أحمد سمير

قريباً من البهجة

رواية

دار الشروق

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

قريباً من

البهجة

قريبًا من البهجة

أحمد سمير

الطبعة الأولى ٢٠١٧

تصنيف الكتاب: رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ١٦٧١٩ / ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3432-6

تصميم الغلاف: هاني صالح

أحمد سمير

قريباً من البهجة

رواية

دار الشروق

إهداء

إلى الله..

هؤلاء اقتربوا من البهجة

أيمن حنفي ١١
هدى والي ١٦
أسامة عودة ٢١
الحسين منصور ٢٩
سمية أسامة عودة ٣٥
حذيفة أسامة عودة ٤٤
باكينام الصباغ ٥٣
منال عبد الرحمن البدري ٦٠
مريم شعلان ٧٣
أحمد ماحي ٨٢
محمود شعلان ٩٤
محمد رفيق ١٠٢
عفاف عودة ١١١
شيماء محمود شعلان ١٢١
يونس الدجوي ١٢٣
جميلة ١٣٤
كارولين الأعصر ١٣٩
أحمد فكري ١٤٨
أسماء منصور ١٥٥
شريف خير ١٦٢
إسماعيل صلاح ١٦٩

قارئ ١٧٨
صبحي وزة ١٧٩
أشرف صبحي ١٨٦
حسن صبحي ١٩٢
ياسمين أبو العز ١٩٧
عزيز البدري ١٩٨
منى وحيد ٢٠٤
أميرة أبو العينين ٢١٣
مجدي الفيل ٢١٩
محمد مهدي ٢٢٨
الشاب في المترو ٢٣٨
الحاجة سهير ٢٤٠
شاب في ميدان ٢٤٤

«الاقتراب لا يكفي، الاقتراب يعني أنك لم تصل»..

«رميت حجرا فأصبت شخصا..

أراه يتلوى من الألم، أتابع ضحيتي ببصري وهو يمسك بدوره حجرا ويلقيه بغيظ نحونا فيدمي شخصا من جانبنا.

زميلي الذي أصيب كان يقف في صفنا، لكنه لم يكن ينخرط في قذف الحجارة، بعد ما اُستهدف قرر الاشتراك، ألقى حجرا، لكنه بدا ساذجا إذ رماه من مكانه حيث يقف، فلم ينطلق الحجر سوى بضعه أمتار ليقع على رأس شاب معنا في صفوفنا الأمامية.

الشاب الذي أصيب انتابته لوثة غضب فور سقوط الحجر عليه، كان حريصا لذا فقد ذهل من أين جاءته الضربة، تعمد الاقتراب من صفوف خصومنا ليصيب وجوههم، وفعلا ألقى بحجره وأصاب واحدا منهم.

المتتالية مرعبة..

لا وجود لعالم جميل ترمي فيه الحجارة على من يلقيها عليك، فكلنا نقذف حجارتنا على من يقفون بجوار من أصابونا.

صدقوني المتتالية مرعبة»..

أيمن حنفي

١٩٩٤ كان لا ييأس من الانتصار على الأشرار، ولهذا السبب تحديدا أتحدث عنه الآن بصيغه كان.

عانيت صدمة الانتقال من لطف ونعومة «Miss Mona» في مدرستي الابتدائية الخاصة «مجدي بيبي هوم»، لشراسة أساتذة «مصطفى كامل الإعدادية بنين»، وبينما أفعل التقيت حينها بأيمن حنفي خلال أيامي الأولى بالمدرسة.

أيمن أسود، وهو جاري بشارع مجلس الشعب بالسيدة زينب، أسموه بالمدرسة «فيلكس» على اسم لاعب الأهلي حينها. والده النقاش عاطل غالبا عن العمل لذا فلطالما أراه يُضرب من المدرسين ويستدعى للمدير لعدم تسديده المصروفات الدراسية، لكنه وبإصرار مذهل لم يدفع.

أيمن لا يتعامل مع «الكانتين»، أعطيه يوميا شطائر الجبن البيضاء والحلاوة التي لا أحبها، وفي كل يوم يعتذر عن أنه «يأكل أكلي». لم يقتنع إطلاقا بكلامي عن أنني أتناول إفطاري قبل النزول للمدرسة وأنني أمنحه ما لن آكله أصلا.

أثناء زمالتنا بالإعدادي لم يشارك أيمن في دورة الكرة التي نتنافس بها خلال حصة الألعاب، فالدورة يُسدد لها اشتراك لأستاذ إيهاب مدرس الألعاب بمبدأ «ادفع تلعب». أما من لا يدفع اشتراك الدورة فيجمع قمامة ساحة المدرسة. لكني عرفت بمهارة أيمن خلال لعبنا بالزلط أو بزجاجات المياه البلاستيك بعد انتهاء اليوم الدراسي.

كشف أيمن خلال حصة الجغرافيا عن اعتقاده أن البحر الأحمر لونه أحمر، فتحول لمثار سخرية في الفصل لشهور بعد «حفلة» نكات أدارها مدرس الدراسات الاجتماعية عليه.

لم يكن محبوبا، فغالبية التلاميذ يعتقدون أنه غريب، إذ يصبر على السخرية من ملابسه المتهرئة أو كيسه البلاستيك الأسود الذي يحضر فيه كشاكيله المبرومة، بل أحيانا يتجاوب ويسخر من نفسه بدوره، لكنه فجأة يرد بعنف مباغت عندما يشعر بأن ثمة إهانة.

ورغم أن أيمن لم يكن بليدا، لكنني فرحت عندما رأيته في الخديوية الثانوية. سعدت جدًّا بنجاته من فخ المجموع الهزيل ومدارس التعليم الفني.

في الثانوي، رأيته يتشاجر أول مرة عندما ناداه طالب أكبر منا بـ«عثمانه البواب» تعقيبا على صورة فوتوغرافية مع والده رحمة الله عليه بلباسهما الداخلي القطني الأبيض على شاطئ سيدي بشر بالإسكندرية.

الصورة التي لم أدر لماذا جاء بها للمدرسة أصبحت مادة للتندر. انتهى الشجار باستسلامه من البداية لشعوره بأن المعركة غير متكافئة عندما تجمع حوله أصدقاء خصمه وضربوه، بينما هو يجز على أسنانه بصوت بدائي كمن لا يجيد الكلام.

نحن أصدقاء، جربته ثم قربته، فصرت أثق برجولته ووفائه، ومرات كثيرة أدافع عنه بالسخرية اللاذعة ممن يستهزئون به فأخرسهم. وحين غاب ليومين عن المدرسة كنت الوحيد الذي افتقده، وفور عودته حكى لي أنه سافر لمقابله فتاة سكندرية تعرف عليها مصادفة بالقاهرة.

- ولا حصل حاجة من اللي كانت في خيالي يا وائل.. آخرنا

اتمشينا على الكورنيش وشربنا الشاي في المركب.. لكن البنت حلوة حقيقي.

بات حينها ليلتين على رمال شاطئ الإسكندرية ليلتقيها نهارا، وبعد عودته أصبح ألطف وأقل حدة في التعامل. ولرغبته في العمل اكتسى بزي كامل لدب في افتتاح محل ألبان بشارعنا ورقص للأطفال كدعاية للمحل، لكنه أقسم إنه لن يكررها ثانية بعدما اغترف أكثر من صبي بأصابعهم من مؤخرته على سبيل الدعابة، ثم عمل أيمن في مقهى صغير غير مرخص يديره صبحي وزة أحد جيراننا بالشارع.

وفي الصف الثاني الثانوي وبعد وصلة استهزاء معتاد منه، طوح أيمن بحقيبة طالب، فقال له الولد: «الشنطة فيها كتاب دين»، وفي لحظة غضب قال أيمن إنه لا يعبأ بهذا، ما جعله يخسر تعاطف الزملاء بالفصل. تجمع حوله أكثر من طالب لضربه، لكن وللغرابة هذه المرة الشجار حسم لصالحه بضرب عشوائي مخيف بالجزء الحديدي من الحزام على وجوه خصومه حتى تراجعوا.

فصل أسبوعين من المدرسة، وحين عاد بدا أشرس وأصبحت جملته «أقابلك بره المدرسة» مصدر رعب، فأيمن يحمل «قتَر» في جيبه ويستخدمه في ضربات بالفخذ سريعة أصبحت بالخبرة محترفة، أصاب العديد من الزملاء، حتى إن رؤية طالب سرواله ممزق عرضيا من الفخذ باتت إشارة أكيدة لأن أيمن اصطاده خارج المدرسة.

التهم صديقي الأسمر بسرعة كل أقوياء المدرسة الذين لم يجرؤ أحدهم على استخدام السلاح الأبيض، خوفا من عقوبة الفصل من المدرسة، أما أيمن فلا يبالي.

تجمع حوله العديد من الطلبة سعيا وراء صداقته وحمايته. وخلال أسابيع تحولت مجموعتهم لأسطورة المدرسة التي يتحاشاها الجميع.

١٩٩٨ ثم ناداه حسن ابن صبحي وزة صاحب المقهى بـ«ابن السوده».

أيمن رد بصفعه، فتجمعت عائلة حسن وضربوه، بعدها بساعات داهم أيمن المقهى بصحبة مجموعته من الطلبة، هجومهم جاء سريعا ومباغتا فحولوا مقاعد المقهى في دقائق لخردة.

رواد المقهى انسحبوا هربا، أما صبحي فاقترب من المهاجمين منفردا فهوى عليه أحد الطلبة بمقعد خشبي فشج رأسه.

بعدها بأسبوع وفي أثناء زفاف أشرف الابن الأكبر لصبحي صعد صبحي منصة الزفاف فور أن اشتغلت أغنية رمضان البرنس «التلميذ والأستاذ».

التلميذ قليل الأصل واتحكم في أستاذه..
عمل عمايل غلط ما هو أصله مش باقي..
مش عارف إن الدنيا فيها لقى وتلاقي..

ما أن وصلت الأغنية لهذا المقطع حتى جذب صبحي الميكروفون من المطرب ورقص بالسيف وهو يكرر «مش عارف إن الدنيا فيها لقى وتلاقي»، رددها ما يزيد عن عشر مرات بانفعال وهو يرقص.

١٩٩٩ اختبأ أيمن لأشهر من المنطقة ليتجنب صبحي، ثم حين عاد لبيته ولأمه، وعقب ظهوره في الشارع بساعات قيد من يديه وقدميه بحبل غسيل بعدما اختطفه صبحي وعائلته وأحضروه قبالة المقهى. أراه ممددا بملابسه الداخلية على منضدة خشبية وأمامه وقف صبحي وفي يده عود خيزران غليظ.

مشهد جسده العريض المقيد بينما نساء الشارع يطللن عليه من

الشرفات والرجال يلتفون حوله بدا مهينا، لكن الإذلال الحقيقي جاء عندما بدأ صبحي في ضربه على قدميه بالخيزرانة.

ساعة كاملة من الضرب والدماء. حاولت وآخرون التدخل لكن رجال صبحي منعونا من الوصول له، فاتجهت مع جيران لأمين شرطة يتابع المشهد بفضول معنا.

ـ واحد ومعلمه.. مالنا ومالهم.

قال أمين الشرطة. والدة أيمن الحاجة سهير نزلت حافية القدمين بجلباب منزلي يكشف نصف ذراعها، جرت نحوهم بجسدها البدين لتنتزعه من بين أيديهم، عندما رآها صبحي ردع رجاله عن الضرب. قدم لها الخيرزانة لتعاقبه بنفسها ووعدها بتركه إن فعلت. ضربته باكية بجلدة خفيفة على قدميه.

ـ حتربيه يا حاجة؟ ولا نربيه لك احنا؟

عاودت ضربه ثانية، ثم ألقت بجسمها على ابنها الممد مقيدا باكية.

ـ فكوا الولد.. لأجل خاطر أمه الحاجة.

فتى المدرسة القوي امتهن تمامًا، انكسار تام، كما بدا جارحا جبن مجموعته عن نجدته، خوفا من كمين كان ينتظرهم فعلا في حي مستعد لهم. اختفى أيمن بعدها ولم يظهر طوال الدراسة، لكني حمدت الله لحضوره الامتحانات.

بعد اختبارات نهاية العام عاود الاختفاء فلم أره بعدها بتاتا، حتى لقيت صورته على يافطة متربة في ميدان السيدة زينب، ومكتوب تحتها «شهيد جمعة الغضب ٢٨ يناير ٢٠١١».

وعقب تجديدات قسم السيدة زينب عام ٢٠١٣ مررت بنفس المكان، وكانت اللافتة انمحت ولم يعد لها أثر.

هدى والي

١٩٩٨ من الذي يستطيع مقاومتها عندما تنظر بهذه الطريقة؟

السلام على من اتبع هدى. وجدت جمالها في درس اللغة الألمانية بالصف الثاني الثانوي، كنا ثلاثة أولاد وبنتين وهدى.

ملامحها ملائكية بحجابها الأنيق، كل تفاصيل وجهها صغيرة ومنمقة باستثناء عينيها الواسعتين. والدها قيادي في الحزب الوطني وموظف كبير بالضرائب، عين الكثير من أبناء دائرتنا في وظائف حكومية. هدى تكبرني بسنة دراسية لكننا ندرس سويا وفقا لنظام «التحسين» الذي يتيح لطلبة الصف الثالث الامتحان معنا لتحسين مجموعهم.

في الدرس أمزح كعادتي، أتألق وأصير أخف ظلا كلما زاد عدد الحضور أو وُجدت فتيات. تبسمت هدى نصف ابتسامة بحياء، فأيقنت لحظتها أن تسعة أعشار السعادة أن تبتسم لك هدى.

في مرة بدت حزينة. المدرس شرح لنا أن البنات يكتئبن خلال فترة «دورة الزفت الشهرية»، وهي كما أخبرنا ستة أيام لا يطقن فيها أحدا ويتضايقن دون سبب.

ـ الله يخرب بيت «الهرمونات».

يقول المدرس.. لشهور اكتفيت بمراقبه رقتها، وفي يوم امتحان الألماني اتصلت بي لنراجع إجاباتنا سويا رغم أنها متفوقة عني. هذه أول مرة تتصل بمنزلي، وفورا ميزت صوتها الناعم من زحام أصوات تافهة كثر أعرفها، وفي نهاية المكالمة سألتني هدى:

ـ هو أنا وأنت حنتقابل تاني امتى؟

١٩٩٨ أحب السير إلى جوارها، هذه مشاعري تجاهها بإيجاز. جمعنا القدر في وقت كل شيء له عندي دلالة جنسية، لكن خيالاتي انطلقت في كل اتجاه باستثناء طريقها.

هدى الأنثى الأولى، أتنسن بصوتها وبنعومتها، تفتنني حينما تهز كتفيها بدلال عندما ترفض. تلاقينا كثيرا خلال الإجازة الصيفية، وهي أول فتاة أسير إلى جانبها على كوبري قصر النيل، للدقة أول وآخر فتاة أسير معها على كوبري قصر النيل، فلم أفعل ذلك بعدها أبدا مع أخرى.

ما مميزاتها؟ ميزتها أنها أنثى، وبعد هذا تأتي تفاصيل صوتها الذي أسمعه فأذوب، ورموشها الطويلة التي أتأملها طيلة حوارنا.

تسألني هل نمت جيدًا؟ وتطمئن إلى أني تناولت الغذاء قبل النزول، وتنصحني بارتداء ملابس أثقل في الشتاء.

هكذا تهتم بي، وهكذا أسرتني، هي ملاك، وعزرائيل أيضًا كذلك.

١٩٩٩ ثم التحقت هدى بالجامعة.

باتت طالبة بكلية الألسن، بينما واصلت مسيرتي بالصف الثالث الثانوي، حصدت هدى ٩٥٪، بينما اكتفيت أنا بالـ ٦٩٪.

انشغلت هدى عني في أسابيعها الدراسية الأولى، توارت لفترة وحين تواصلنا ثانية لنسير كعادتنا على كوبري قصر النيل حدثتني عن جانب آخر من العالم، عن أساتذة الجامعة وزملاء الكلية، وعن والدها الذي وعدها بشراء سيارة لها حال نجاحها في الفصل الدراسي الأول.

ـ الله.. حيكون عندك عربية لوحدك.

قلت بانبهار، فحديثها فتح لي آفاقا لا أعرفها. تغير كل شيء وصرت أصغي أكثر مما أتكلم، فهي تعرف كل قصصي عن أستاذ

عبد الغفار ناظر مدرستي الثانوية. الشيء الوحيد الذي لم يتغير في علاقتنا أن دعاباتي ما زالت تضحكها.

حين عدت للمنزل تذكرت أنها حدثتني بشغف في لقائنا الأخير قبل التحاقها بالجامعة عن قصة يأجوج ومأجوج، وهي القصة التي حكاها لها مدرس العربي، وتريد أن تعرف عنهم أكثر.

وكعادتي حين أهتم بأمر، قرأت كل ما كتب عن يأجوج ومأجوج، أجزم أني صرت أعرف عن يأجوج ومأجوج أكثر مما يعرفون عن أنفسهم. في لقائنا التالي انتهزت لحظة صمتها لأكسر حاجز صمتي، حكيت لها عنهم، ففوجئت بفقدانها أي اهتمام بالقصة، قاطعتني وبدلت الحوار لتحدثني عن علامات تجارية معينة تشتري منها ملابسها الآن لتليق بطالبة بكلية الألسن. سألتها: هل تقصد المحلات الغالية في مصر الجديدة ومدينة نصر؟ فأشاحت بيديها يأسا مني بدلال.

يومها اختتمت كلامها عن الملابس بأن سألتني بابتسامة هي بحر لا ساحل له:

ـ هو أنت مفيش عندك غير القميص الرمادي ده؟

أمتلك غيره، لكني أحبه فأكرر ارتداءه حين أراها. أخذت من المفاجأة للحظة ثم مازحتها فضحكت، ولئن تضحك لك هدى خير لك مما طلعت عليه الشمس.

غابت أسبوعين ثم جمعنا لقاء أمام مستشفى جراحة اليوم الواحد المجاور لبيتها. رأيتها فابتهجت ورأتني فابتسمت.

أنظر لها في حين تنظر لهاتفها المحمول، وهو الهاتف المبهر الذي انتشر مؤخرا بين الأثرياء. بدت مختلفة وصامتة، سألتها إن كان

هناك ما يضايقها فنفت، لم أصدقها لكني لا أهتم بأن تقول الحقيقة بقدر اهتمامي بالاستمتاع بروعة القرب منها.

لم يكن لقاؤنا حميميا، أسأل نفسي هل هي أيام دورتها الشهرية التي أخبرني بها الأستاذ؟ يوما سأعرف الأيام الست التي لا ينبغي أن أحدثها فيها. واصلت صمتها، فتسرب لي انكسار الاستناد إلى كتف يستثقل وجودك، سكت بدوري وفكرت أنه ربما الأفضل ألّا نلتقي فترة.

حين ركبنا المترو لأوصلها إلى بيتها، شعرت بسحابة تجهم توحي بأن هناك شيئا سيقال. تقترب محطتها فأسألها مستكشفا:

ـ ساكتة ليه؟ من ساعة ما تقابلنا وأنت كئيبة.

ـ احنا مننفعش لبعض يا وائل.

كانت هذه أول مرة تطرح أصلا فكرة أننا لبعض، فسألت وأنا ما زلت أحاول استيعاب ما تقول:

ـ ليه؟

سكتت قليلا كأنما تستجمع شجاعتها، ثم هزت كتفيها بما يشبه الاعتذار وقالت بصوت خفيض:

ـ أنا أحسن منك بكتير.

فتحت عيني لأخرهما معتصرا عمود المترو، أما هي فابتعدت خطوة للوراء لتقف بجوار باب المترو الذي قارب محطته.

ـ أنت بتقرا كتير وبتضحكني ومعجب بي أو بتحبني، لكن ده العادي. أنا حلوة وشاطرة وأتحب، عشان كده أبويا بيحبني.. لكن أكيد مش حيكون حبيبي ولا حتجوزه.. هدفي حاجة أحسن.

وصلنا المحطة وفتح باب المترو، تراجعت بظهرها خطوة أخرى للوراء وهي ما زالت تنظر لي، وعندما تحرك باب المترو في اتجاه الإغلاق خرجت في اللحظة الأخيرة قبل أن يقفل.

لمحتها تلوح لي بيدها مودعة وعلى وجهها اسف ما. وبينما ما زلت أعتصر العمود بقبضتي وأنظر للباب الذي خرجت منه لتوها تحرك قطار المترو واختفت عن عيني. انطلق المترو بسرعة فلم يعد أمامي سوى صورة جدران نفق المترو السوداء.

لم أرها بعدها.

أسامة عودة

١٩٩١ أحب صلاة الجماعة، أتعلق بالكبار حين نزولهم لألهو في مسجد السلطان الحنفي الواسع، تصفف لي أمي شعري وتلبسني جلبابا أبيض طفوليا مخصصا للمسجد، لكني مرة بعد مرة بدأت أتضايق حتى عدت لأمي باكيا وعازما ألا أفعل ثانية.

ـ زقوني ورجعوني لآخر صف.. خدوا مكاني مع إن أنا رحت أول واحد فيهم كلهم.

أتحدث بصيغة الجمع، لكن من كان يفعل هو خالي.

١٩٩٨ خالي د. أسامة عودة.

خلال انتقاله من جيرتنا بالسيدة زينب إلى شقته الجديدة بالهرم تشاجر مع سائق سيارة نقل الأثاث، اتفقا على السعر ثم طلب السائق «الشاي يا أستاذ»، أي إكرامية إضافية فوق المتفق عليه. رفض خالي وتطور الخلاف لصرف السائق، لتبقى المفروشات في الشارع ليلة كاملة، حاولت أمي إثناءه عن صرف السائق موضحة أن طلب نقود إضافية كبقشيش عرف عند السائقين.

ـ يبقى كلهم حرامية.. الحق حق، والصح مش حيتغير حتى لو الكل عملوا الغلط.

هكذا رد خالي، ثم نقل الفرش على يومين. زوجته اغتمت عندما تكسرت قطع من الأثاث بسبب تبدل العمال، لكن خالي بدا فخورا بانتصاره لـ«المبدأ».

٢٠١٠ ينتمي خالي لتنظيم الإخوان المسلمين، أو للدقة شباب التنظيم هم من ينتمون له، فهو قيادي نافذ.

رغم صرامته لكنه محبوب جدًّا في حينا، كتلة خدمات تسير على قدمين، يدير قوافل طبية، ويوزع بنفسه وجبات الإفطار في رمضان من خلال نشاطه بلجنة الزكاة بالمسجد.

أزوره كثيرا في المستشفى حيث يعمل طبيبا، وهناك أرى سيدة مسنة تجلس مع طبيب تقص عليه شكوتها.. عامل البوفية أحضر لها كوب شاي خال من السكر، فتذمرت خلال مرور د. أسامة الذي طمأنها إلى أن الغلطة ستصوب.

- بسرعة قبل الشاي ما يبرد.

تقول العجوز لمن تصورته عاملا بالمشفى. ودون أن يلحظه أحد سواي جلب لها السكر وقلبه بالكوب ثم ناوله لها معتذرا بأدب.

رائع هو، ويكفيه ليستقر في قلبي الخمسين جنيها الكاملة التي كان يمنحني إياها في الأعياد.

لكن كرمه ودماثة خلقه لم يمنعا صدامه مع سمية ابنته.

عقب ملحمة «يناير» عندما اجتاحت البلد مظاهرات معارضة، واعتصام مليوني في ميدان التحرير دام ١٨ يوما، تنحى على أثره الرئيس حسني مبارك عن الحكم، أقدم خالي على الزواج من أرملة شهيد سورية «ليكفلها» إبان تصاعد الاقتتال هناك.

سمية سخرت منه بوضوح لم تعتده شخصيته الكاسحة. قالت إنها لا تمانع زواجه من امرأة ثانية أو حتى ثالثة لكن لا معنى للادعاء أن زواجه خدمة للإسلام.

- حسي بالناس يا بنت.. أنت رجلك في حضنك وشاري لك تموين بيتك وبيضحك في وشك.. فيه واحدة غيرك إيدها على

خدها تتمنى ولو خيال مآتة عند شباك أوضتها يحميها من كلاب طمعانة فيها.

ـ مؤثر جدًّا.. لكن أنا متأثرتش.. هدفك تسترها؟ عظيم.. جوزها شاب صغير أو ساعدها تشتغل، وساعتها ولا حتضطر تحتاج لمخلوق أصلا.

خالي الذي لم يكن يعجبه أن أخي حسين سافر لإنجلترا دون أن يدعو زملاءه في العمل للإسلام، بدا واثقا جدًّا من قراره فواصل بقوة:

ـ واحدة عندها أربعين سنة تتعلم شغل دلوقت يا مفترية؟ والله أنت ولا فارق معك الست.. أنتم متخذين أنانيتكم وحب النفس إلها تعبدونه من دون الله.

حرك خالي يديه بعصبية خلال الكلام، فخمنت أنه يمنع نفسه بصعوبة من لطمها، بدا مذهولا من صلابتها، وهي من كانت ترتعد طول عمرها حال نظرة واحدة منه.

أنهت سمية الحوار ببرطمة نسائية يفهم منها استهزاؤها بكلامه. أما أنا فاستجبت لدعوة خالي وحضرت حفل الزفاف.

٢٠١٢ خلال مرحلة الإعادة في الانتخابات الرئاسية بين محمد مرسي القيادي بتنظيم الإخوان وأحمد شفيق آخر رئيس وزراء في عهد مبارك، دعاني د. أسامة للحضور مع مجموعة ممن أسماهم «شباب يناير». حدثنا عن أن قوتنا في وحدتنا فحدثناه بما يكره، وحين أنهينا كلامنا عقب قائلا:

ـ أنتم ولا واحد منكم فاهم أي حاجة.

ثم سرد د. أسامة نفس وجهة النظر التي نفهمها ونعرفها، وقلنا له إننا نرفضها.

لم نقتنع، ورغم ذلك أغلبنا انتخب مرسي في الإعادة. وبعد اشتباكات الاتحادية حين فض تنظيم الإخوان اعتصام معارضي الرئيس مرسي وسقوط ضحايا من الطرفين، ذهبنا له في مقر حزب الحرية والعدالة بلاظوغلي وهو مشغول باجتماع تنظيمي مع إخوانه. التقانا بعدها فقلت له:

ـ نقطة ضعف مرسي أنه مرشح تنظيم مغلق.. فأي قرار يخص انتزاع السلطة من المؤسسة العسكرية فيه شبهة انتزاعها لصالح تنظيم.. ضروري تحالف واسع نقدر به ننقل السلطة للمدنيين.

وأضاف زملائي ملاحظات أخرى مشابهة، بينما خالي يستمع وهو يبتسم بوقار. توقعت الكثير من عبارة «أنتم ولا فاهمين حاجة»، لكنه لم يرد. وفور أن انتهينا نهض من مقعده بهدوء ووزع علينا قطع شيكولاتة من أمامه وهو يربت على كتفنا بأبوة.

وجمنا. لمحت زميلا بجواري يقلب قطعة الشيكولاتة بين يديه وينظر لها بمرارة ويبدو أن الرسالة لم ترق له، أما أنا فتناولتها بهدوء ووضعتها في جيبي دون تعليق، همَّ ثالث بمواصلة ما يتصوره نقاشا، فقاطعه أكثرنا حنكة قائلا إن وقت الدكتور أسامة غالبا لا يسمح. صافحنا خالي وأنهى اللقاء ووعدنا بلقاء آخر لم يأت أبدا.

٢٠١٣ البعض يفعل كل شيء يقوده إلى ما يخشاه.

لمحني أغطي لجريدتي المؤتمر التأسيسي لتحالف دعم الشرعية الموالي للرئيس مرسي في قاعة المؤتمرات بمدينة نصر.

خالي يشرف على تنظيم اليوم، طلب مني أن أبقى للنهاية فانتظرته.

بدا عصبيا، زعق في عامل الكافتريا، يومها بدت لحيته فقط

المهذبة. لم أسترح لدعوته لي للنقاش، فلا أحب الجدال مع من حصيلته اللغوية أكبر من أفكاره. توقعت أنه يريد مني معلومات بحكم شبكة علاقاتي ومصادري الصحفية. اقترحت أن نجلس على مقهى قريب فاستجاب لكني شعرت بأنه غير مرتاح ومتوتر.

ـ أنت عارف.. دي تاني أو تالت مرة في حياتي أقعد على قهوة.

تصورته يمزح فضحكت.

ـ والله تاني مرة فعلا.. إن لم تزل المنكر زل عنه.. والقهاوي كلها دخان وشيشه وزفت.

كانت أسوأ عبارة يبدأ بها حوارنا حول حركة الشارع. تجاهلت ما قال وحدثته عن مليونية كاسحة في ٣٠ يونيو سيشارك فيها كل من أعرف على المستوى الشخصي، ويحشد لها كل من أعرف على المستوى الإعلامي. أخبرته أنني سألت قيادة عسكرية كبرى فقال: «مليونية كبيرة ننزل.. اشتباكات كبيرة ننزل»، حدثته عن اجتماعات حسنين هيكل مع شباب تمرد وقيادات الجيش، طالبته بأن يعود تنظيم الإخوان خطوة للخلف ويقنع بانتخابات رئاسية مبكرة، وقلت له إن التنظيم لن يصمد أمام ملايين محتشدة معها الجيش والشرطة وموظفو الدولة والقضاء والإعلام. واختتمت كلامي بأن حذرته أن اتقوا يوما ترجعون فيه إلى السجن. ففي الماضي كان يقال سجن فلان وفلان، وغدا سيقال سجن د. أسامة. هز رأسه بثقة فعلمت أنه فهم الكلام ولم يدرك التحذير، قال لا تخف إن الجيش معنا فسألته:

ـ صحيح أنتم ناويين تقفلوا الفضائيات المعارضة لكم؟

ـ مش حنقفلها وبس.. احنا قريب جدًّا حنحطهم في السجن وبالقانون، ومن غير إجراءات استثنائية.

ـ إزاي؟

ـ نعدي الأيام دي وحتشوف.. سنة كفاية عليهم.

وشفت..

في ٣ يوليو ٢٠١٣، عزل الجيش بقيادة وزير الدفاع عبد الفتاح السيسي الرئيس محمد مرسي، وعطّل الدستور.

أما خالي فأقام بعدها في اعتصام رابعة، ويوم فض الاعتصام وبينما أغطي كصحفي رأيته يعتلي المنصة ويتحدث كقائد ميداني. مشهده بدا ملحميا وهو يحرك يديه بحماسة وحوله مئات الشباب يحفزهم لفتح ثغرة بين قوات الأمن المقتحمة. بايعوه على الشهادة وحدثهم عن النصر.

لم أفهم ما فائدة الثغرة؟ وكيف سيتحقق النصر حال اختراق عصبة شباب للقوات المهاجمة، فقوات الأمن حتما وراءها أخرى، وشقها بثغرة يقتحمها الشباب بأجسادهم لن يترتب عليه تحول إستراتيجي.

تقدموا فتقدم الرصاص نحوهم. وخلال دقائق تساقط أمام عيني العشرات وسط هستريا إطلاق نار، تفرق من بقي حيا من الطليعة الشبابية كجيش مهزوم يولي الدبر. ثم تساقط من كانوا حول خالي يحمونه حين استهدفت المنصة نفسها.

تصورته سقط صريعا، لكنه لم يقتل يومها ولم يعش بعدها. نجا من رصاص رابعة ولم ينج من رصاص ابنته سمية.

اجتمعنا مرة وحيدة بعد رابعة. زرته مع حذيفة ابنه في شاليه يختبئ به بالعين السخنة، فسألنا بمرارة:

ـ ليه سمية بنتي تعمل كده في أبوها؟

كنت أفهم، لكني ادعيت الجهل والبلاهة وهو يفتح حسابها على تويتر ويريني شتائم بذيئة لـ«تجار الدين»، بينما صورة حسابها

الشخصي وهي مبتسمة ويدها في وسطها وترتدي فستانا أزرق قصيرا فوق الركبة وترفع إحدى قدميها للخلف بدلال.

حذيفة شاركني الامتعاض المدعي المجامل، فزوجة حذيفة هي أيضًا غير محجبة، لكنها حافظت على عادة التدثر بالحجاب خلال زيارتهم لمنزل د. أسامة أو في المناسبات العائلية، كي لا تحرج زوجها مع والده، وهو ما اعتبرته سمية نفاقا.

خالي لم يعرف إجابة سؤاله حول سمية التي لم يرها بعدها أبدا. فبعد أيام قبض عليه من شاليه العين السخنة.

٢٠١٥ «الله يكرمك يا بني.. أنا نفسي في صورة له، ولو وهو في القفص.. أحفاده قربوا ينسوا ملامحه.. حتلاقيه لابس بدله حمرا وبنضارة».

تقول زوجة خالي للمصور خلال المحاكمة، فحدثت نفسي أن اخشوشنوا فإن السجن ربما يدوم.

بدا د. أسامة غلبانا يصلّي طوال اليوم، كي يبدو منشغلا دائما فلا يضايقه السجناء الجنائيون.

تلاحقت المصائب، فسريعا أدين بسلسلة أحكام مغلظة، ومع الحكم الرابع توقفت عن عد السنوات التي يفترض أن يقضيها بالحبس.

بعدها صدر حكم بإعدامه فتجهزنا؛ فكل ما هو آت قريب، ولأن حفيدته مرتبطة به، حاولت والدتها سمية التمهيد للطفلة التي ستنفصل عن الجد للأبد، فروت لها قصصا بديعة عن الجنة وجمالها.

ـ تحبي تكوني هناك يا حبيبتي؟

ـ آه.

ـ جدك رايح هناك قريب يا حلوة.

٢٠١٦ القارب ثقبه من ادعى أنه الخضر، لكن خالي ما زال يحتل مكانه في قلبي، والغريب أنني كلما اشتقت له لا أتطلع إلى صورته بل أفتح درج مكتبي، حيث ما زلت أحتفظ بقطعة الشيكولاتة.

الحسين منصور

١٩٩٤ نقف عند الكشك لنشرب المياه الغازية، ونثرثر فيما نعلم أنه هراء، نضحك ويعلو صوتنا ونردد تفاهات مراهقة. يتوسط حلقتنا صامتا بجسده البدين المترامي. نسكت للحظة فيطلب منا استذكار بعض الدروس لنستفيد من وقتنا.

هل يمكنك تخيل كم كان منبوذا بيننا؟

١٩٩٥ الصورة الأكثر حضورا لحسين في ذاكرتي وهو بشارة الكتف الحمراء يقود الشرطة المدرسية في مدرسة الجيل المسلم الإعدادية، فالمقارنات بينه وبين حذيفة ابن خالنا د. أسامة تصب دوما لصالحه. فحسين ملتزم، أما حذيفة فيسميه مدرس العربي «ابن نوح» لفساده مقارنة بأبيه.

حسين أخي الأكبر هو الأكثر جدية في عائلتنا، عندما أغلقت خالتي عفاف العين السحرية بيدها مازحة ورفضت إخباره بمن وراء الباب، أوى لينام لأننا «لا ينقصنا هبل» وترك الطارقة، والتي عرفنا فيما بعد أنها خالتنا تنزل من دون أن تلج للشقة. وفي مرة أخرى تعمدت سمية بنت خالي استبدال صوتها مداعبة لتختبر إن كان سيعرفها، فأغلق الهاتف في وجهها بضمير مستريح.

حفظ في طفولته القرآن الكريم كاملا تحت إشراف خالنا د. أسامة، وفي الثانوي كان من الأوائل على الجمهورية، وفور تخرجه من كلية الهندسة سافر إلى بريطانيا بمساعدة أستاذ جامعي أحب اجتهاده،

وهو نفس الاجتهاد الذي كفل له معادلة الشهادة والتفوق على رفقائه البريطانيين، لكنه انزعج مما أسماه «بؤس الحياة مع قوم لا يغسلون مؤخراتهم»، متذمرا من عدم وجود «شطافة» بلندن. وسخر كثيرا من سفلة يتساقطون في ليلة العطلة الأسبوعية كالجيف في الطرقات من أثر الإفراط في السكر.

سألته عن مشاعره نحوهم، فقال إنه لا يكرههم وإنما هو فقط لا يحب نماذج بعينها، وللأسف هذه النماذج موجودة حوله في كل مكان ببريطانيا.

أغلب أصدقاء حسين مصريون وعرب. شكى لي ضيق زملائه من تفوقه، لكنه لم ينزعج من عنصريتهم لأن «الطبيعي أنهم يكرهوننا». سألته لماذا لا يرد على خطابهم العنصري، فقال إنهم قوم ناضجون يغلفون حقارتهم بالأدب. وبعد أيام من حوارنا عن العنصرية أبلغني الخبر، حسين بدأ في مواعدة فتاة لندنية.

ـ حلوة؟

ـ مجتهدة.. بتحاول.

ضحكت، فأضاف:

ـ أول علاقة لي.. الواحد لازم يجرب.

هكذا قال..

٢٠٠٦ بعد أسبوعين أحب أخرى.

ثم أخبرني أنه يحب ثالثة، ورابعة، وخامسة، كل أسبوع تقريبا يحب فتاة لندنية جديدة.

أخي الحسين الذي نناديه جميعا بـ«حسين» يستفزه كثيرا أن أقول له إنه فقط يقيم علاقات معهن، يقول إنه يحبهن ويستمع إليهن ويهتم

بهن، وليس ذنبه أنه يعيش في مجتمع مريض اعتاد على العلاقات السريعة والمبسترة.

ثم أخبرني أنه وجد حب عمره.

فتاة لندنية فقيرة تعمل في دار سينما، تحمل ليلا ونهارا في يدها كتابا. أزعجه ذلك، فحسين لم يرق له الروايات الخفيفة التي تقرؤها، نصحها بتطوير نفسها بالدراسة بدلا من الانشغال بروايات عاطفية وبوليسية تافهة.

قال لها إنها تشغل حياتها بعلم لا ينفع وجهل لا يضر، ولم يتوقف عن الاستهزاء بما تقرأ إلا حين أخبرته الفتاة بوضوح أنه يحب التعليم ويكره العلم، ولا يحق لمن لم يقرأ في حياته سوى كتب الهندسة أن يقيِّم لها جودة ما تقرأ.

وبدا أن الاختلافات بينهما تظهر على السطح حين قال لي:

ـ تصدق؟ بنت الكلب بتشتري لنفسها أكل دليفري، ولا كأن فيه مخلوق معاها في البيت.. مش قصة بخل، لكن هي عايشة في فقاعة لوحدها.

ثم أضاف بعزم:

ـ حاليا بعمل زيها.. والبادئ أظلم.

ثم فجأة انقطع عنها، لا أعرف هل هجرته أم هو من هجرها؟ كل ما أعرفه أنه حين تركها وصفها بأنها مجرد «بريطانية أخرى». نطق الجملة باعتبار أنه سباب مفهوم في ذاته، ثم قال:

ـ بائسة جدًّا وحياتها فارغة.. والله الناس دي أقصى حاجة يقدروا يعاشروها قطة ولا كلب من اللي بيربوهم في بيوتهم.. وفى الآخر كل واحد فيهم يموت على سريره لوحده، من غير ما يلاقي بني آدم واحد يسأل فيه.

٢٠٠٧ رغم اعتياده ممارسة الجنس مع صديقاته اللندنيات، لكنه انزعج عندما سألته هل شرب الخمر يوما؟ أكد أنه لم يقربه بتاتا. فحسين الذي لم يعد يحافظ عموما على الصلاة لا يغفو قبل أن يصلي العشاء، خوفا من أن تقبض روحه خلال النوم، اعتزم الخلاص من أسْر فتيات يأتين ليخلعن القلب ويرحلن. قال إنه يعيش وسط عواطف بلاستيكية مع قوم مبتسمين وقتما شاءوا أتوا ووقتما شاءوا رحلوا. لعنهم ولعن علاقتهم السطحية التي تهدر العمر.

قال إن مشروعه الشخصي هو العمل على رسالة الماجستير وتطوير نفسه بالمذاكرة، لن يهدر وقته في تفاهاتهم. رجع إلى مصر في عطلة وعقد قرانه بمصرية متدينة، مع وعد بأن تكون معه قريبًا حين ينتهي من الانتقال لبيت أكبر يليق بزوجين في لندن.

بدا حسين منبهرا بعروسه وهو يقول لي:

- مفيش فيها غلطة.. ملاك نقي منزه والله.

أنهى إجازته وعاد لبريطانيا. انضبطت علاقته باللندنيات، لم يعد يواعدهن إلا قليلا، وأكد أنه سيهجرهن تمامًا فور أن يزف بعروسه وتنتقل للحياة معه بلندن. لكنه بعد أسابيع زفر بضجر قبل أن يقول لي:

- قبل ما أكلمك كنت بدردش مع عروستي.. عارف؟ الإنسان عنده القدرة على كتم صوت اللي قدامه زي ما بتعمل وأنت بتتفرج على التلفزيون، أو على الأقل أنا عندي القدرة دي.. اكتشفت الموهبة دي عندي كل ما أكلمها.

قال إنها تطيل البقاء ولا تجيد الحضور. وتساءل كيف تنهي حوارا سريعا مع إنسانة تملك الإرادة لمشاهد مسلسل تركي من ١٨٠ حلقة؟ اكتشف أنه يزهق من الكلام معها، بعكس اللندنيات اللاتي لا

ينتهي الكلام معهن. قال إنه لن يحبها، سيظلمها كما ظلمته الفتيات اللندنيات اللاتي اهتم بهن لكنهن بلا مشاعر.

طلقها برسالة هاتفية.

٢٠٠٧ لطالما استغربت من أن أخي حسين الذي لم يفتقد أحدا في حياته يفتقد الآن اللندنيات. فحسين لا يحب الهزل ولا الثرثرة ولا الزحام ولا أن يرفع السماعات من أذنه، لكنه يحب اللندنيات.

فور طلاقه، تواعد مع زميلة له بالعمل في إنجلترا. كان مجرد لقاء ليلة واحدة وانتهى عند هذا الحد، أو هكذا كان الأمر بالنسبة للفتاة اللندنية، أما هو فبدا معجبا بها، وإن لم تبادله الاهتمام.

لاحقها في كل مكان جمعهما. بدا جادا ومخبولا، وذاك مزيج مقلق، أزعجه استهتارها به كأنما لم يكونا معا يوما.

قالت له إنها تقدره كزميل لكنه يحمل قلبه في كفيه وكلما بسط يده ليصافح فتاة سقط قلبه عند قدميها وأحبها، وهددته بإبلاغ الشرطة إن لم يتوقف عن مضايقتها، فتحداها أنها من داخلها تحبه، والدليل أن ليلتهما الوحيدة كانت مليئة بمشاعر حقيقية. اتصلت اللندنية بالفتاة المصرية الوحيدة التي تعرفها كصديق مشترك ببريطانيا، عسى أن تتدخل وديا، لكن المذهل أن الصديقة المصرية تطوعت بإبلاغ الشرطة عنه.

أفلت من الحبس لكن سلسلة التحقيقات الأمنية امتصت روحه، موقفه كان مهينا في العمل، خاصة بعد ما أصرت صديقته المصرية أن تكشف للشرطة كيف يطارد «العربي المتخلف» اللندنيات، كما كانوا يطاردونها هي بمصر. تعاملت بغل حتى إن الفتاة البريطانية نفسها ذهلت.

كان بإمكانه تجاوز الموقف والمحاربة من أجل البقاء بأوربا، لكنه

لم يفعل، فضل المغادرة للقاهرة عن أن يعيش مع ما أسماه «أجواء مريضة» ببريطانيا وسط بشر وجوههم كالثلج وعيونهم كالزجاج.

٢٠١٦ الآن يعمل حسين مهندسا ناجحا بمصر لكن حلمه القديم لم يعد يعمل. لا يذكر اللندنيات إلا بوصف «اللبؤات»، ويقسم إن الناس بالقاهرة أحسن وأنقى ألف مرة.

المدهش أنه يدرس الآن الإجراءات القانونية للعودة إلى أوربا. ما زال يحاول، لا أعرف إن كان سينجح في ذلك أم لا.

سمية أسامة عودة

١٩٩٩ زارتنا سمية بنت خالي، وفور أن فتحت لها الباب ألقت حقيبتها على أقرب مقعد وسألتني:

ـ حسين عامل إيه دلوقت؟ طمني.

لم تسمعني أطمئنها، فحين رددت أخبرها بإصابة أخي حسين بنزلة معوية حادة، تركتني سمية المراهقة في الثانوي وفتحت عليه باب غرفته، مررت يديها بلهفة على جبهته تتحسس حرارته، ثم افترشت الأرض ملتصقة بسريره وهو نائم.

تأملته سمية بحب ثم قبلت رأسه بشفقة، فانسحبت من الغرفة وتركتهما. وبعد دقائق عدت فوجدتها تبكي بجواره. شممت رائحة أنثوية كاسحة، ففهمت أنها نشرت رذاذ عطرها بكثافة عمدا ليعلم بأنها كانت هنا فور استيقاظه.

تعافى بعدها بأيام، كان ينتقل من غرفة لأخرى ببطء من لم يشف تمامًا من المرض، حين قال لي بلا مبالاة:

ـ أنا كنت صاحي ومغمض عيني ساعة ما سمية كانت هنا على فكرة.

٢٠٠٠ تعتقد سمية بنت خالي د. أسامة عودة أنها ستتزوج حسين، صدقت بنت خالي ـ أو أرادت تصديق ـ أن الفتيات يتزوجن ابن عمتهم في النهاية.

وفي نادي القاهرة حيث اعتادت العائلة التجمع، يلقي حسين بدعابة فتعقب:

ـ والنبي عسل.. بحبك وربنا يا حسين.

قالت بتلقائية، حتما لم تخطط لإعلان حبها له في جلسة عائلية واسعة. كانت مجرد واحدة من عشرات المحاولات للتبسط معه في الحديث عن المشاعر لحثه كي يبدأ بالكلام، لكنه رد عليها بسرعة كأنها إجابة جاهزة تنتهز فرصتها لتنطلق:

ـ قدامي سنتين في الكلية ومش جاهز ماديا للجواز.. يعني لا عندي استعداد لا لحب ولا لارتباط نهائيا.

تصعيده بدا عنيفا. تغير لون وجهها فتمنيت أن أختفي، وحدقت في مقدمة حذائي بتركيز كأنه مهرب من الإحراج. صمتت مصدومة فتشجع حسين ليتقدم خطوة أخرى نحو الحسم:

ـ ولغاية ما أكون جاهز للجواز أحب أفهمك إن لا أنت ولا أي بنت خلقها ربنا تستاهل أني أدخل النار لأجل خاطر سواد عيونها.. من الآخر أنا لا بفكر فيك ولا في غيرك.

بدا حسين لحظتها في ذروة حماس التزامه الديني. يطلق لحيته ويبدو متأثرا بجلساته مع خالنا د. أسامة عودة؛ أي والدها، الذي لم تتأثر هي به أبدا.

ضايقني عجزها عن الرد، نهرته وقلت إن رده غبي فهي لم تقصد شيئا. أشاح بيديه بما معناه «هل سنمثل؟»، ثم نهض باعتبار أن الحوار انتهى. دعوتها إلى كوب حمص الشام وثرثرت معها للتشويش، لكن امتقاع لونها لن يمحى من ذاكرتي.

بعدها توقفت سمية عن إظهار الاهتمام به وظلت تهتم. ابتعدت ليعرف قيمتها فعرف مجموعة ضخمة من اللندنيات. سافر وأحب بينما حرصت هي باستمرار على أن تسألني عن تفاصيل حياته، تابع حياته، أما هي فتابعته وهو يتابع حياته.

٢٠٠٢ سمية الفتاة الأهلاوية بعكس والدها الزملكاوي، كانت تحلم في طفولتها ببطولة فوازير رمضان بعد نيللي وشريهان، فيوبخها والدها. وخلال مراهقتها كان أكبر خلاف مع أبيها اعتراضه على رغبتها في ارتداء العباءة بدلا من الخمار، لأنها تراها أكثر أناقة. رفض الأب بصرامة معتبرا الخمار والدبوس الذي يعلو الصدر زيا مميزا للأخوات.

ـ كل كلامه الأخوات ميلبسوش كده.. وأنا مال أهلي يا حاج.. أنت أخ.. لكن أنا مش زفت أخوات وربنا.

وخلال الثانوي طالبت سمية بترك المدرسة الإسلامية لتنقل لمدرسة أخرى «طبيعية»، على حد وصفها، فرفض والدها د. أسامة عودة قائلا:

ـ الظباط بيجروا على مدارس الإخوان عشان أولادهم يتجنبوا اللي بيحصل في مدارس الإنترنشونال والراهبات.. واسألي عن محاضر التلبس في الحمامات من أول الحشيش والبانجو لغاية الأولاد مع البنات.

مدرسة سمية الإسلامية وقيود والديها لم تمنعها أن تكون الأكثر جرأة بالعائلة. فخلال استعداد أسماء أختي للزواج تسألنا عن العرف في تقسيم شراء الأجهزة الكهربائية بين العريس وعروسه، فترد سمية بسرعة:

ـ معروفة يا حبيبتي.. أي حاجة لا مؤاخذة موجب وبفيشة على العريس.

صدمت أسماء مما اعتبرته انحطاطا لا يليق، وقاطعت سمية لفترة رغم تراجع الأخيرة وتأكيدها أنها قصدت فقط الأجهزة الكهربائية.

٢٠٠٦ رجع حسين.

عاد يفتش عن عروس متدينة. لم يعد حينها ملتزما كما كان، لكنه شعر بأن زوجة مصرية ستكون الخلاص مما أسماه «نجاسة» علاقاته باللندنيات.

أسماء أختي أقنعته بسمية. فرحت سمية بعودة حسين المفاجئة وأدت حركة راقصة بكتفيها وصدرها بشكل مضحك في وجود والدها الذي نهرها بصرامة، لكن صراخه لم يقلل ذرة من فرحتها.

خلال ارتباطهما حرصت على العناية بمظهر الفتاة المحافظة لترضي حسين، لم تستوعب التغير في شخصيته منذ سافر لبريطانيا، لذا فحين مد يده لمصافحتها، هزت يدها من بعيد وتركت يده معلقة:

ـ مبسلمش.

ـ ومبتسلميش ليه يا سمية؟ هو أنا سفير إسرائيل؟

تخاطب سمية شخصا أحبته في طفولتها لم يعد له وجود، لكن خلال أسبوع إجازته عقد قرانه عليها ثم سافر.

وبعد أشهر صارحها حسين برغبته في الانفصال. فجعت، لم يكتمل حبهما أبدا لذلك بدا دوما مثيرا. تقول لي:

ـ كنت ساعات بغمض عيني وأتخيل يوم جوازنا.. هقول له إيه واحنا بنرقص أول رقصة. كنت بفكر إني لو تخيلت اليوم ده كتير حيحصل.. عبيطة.. صح؟

انقلب ألمها لسخط. لم تستوعب منطق أن حسين هجرها خلال مراهقتهم لأنه متدين، ثم هجرها في شبابهم لأنها هي المتدينة.

حلمها ضاع فجأة كما عاد فجأة، ولسنوات ظلت لا تفهم لماذا عاد ولماذا رحل؟ ولماذا اغتصبت في أفكارها بهذا الشكل؟

عدم الإحساس نعمة، لذلك لم يدر حسين أنها اكتأبت عامين

ولم يعذبه ضميره أبدا. أما سمية فعندما زارت أطباء نفسيين وبخها والدها د. أسامة.

ـ أنت عبيطة يا بنتي.. فين الرضا؟ ما يا ما بنات حصل فيهم... لكن البنت تلاقيها قوية لأنها مؤمنة.

لم يتفهم أكثر، فاكتأبت أكثر.

٢٠١٠ ثم عقد قرانها ثانية.

تزوجت زواج صالونات من شاب إخواني من مريدي والدها، وتزوجت معه الشجار.

الصدام بدا مبكرا عندما احتضنت عريسها الجديد من خصره خلال رحلة عائلية إخوانية. انتقد الحضور زوجها باعتبار أن سلوكه وزوجته لا يليق بشخص اختار أن يقدم نفسه للناس بصفته داعية، خاصة وأن الرحلة يشارك فيها العديد من الأخوات صغيرات السن غير المتزوجات. عاندت بأن ما تفعله ليس حراما وكررته ثانية، فاضطر زوجها لإحراجها بدفع يدها بفظاظة مكتفيا بأن يمسك يدها.

فيما بعد عانت لاضطرارها إلى تحضير المشروبات والوجبات الخفيفة لستة رجال يستضيفهم زوجها أسبوعيا في منزلها. قالت إنه جعل بيتها دار من لا دار له، وطلبت منه لقاء أصدقائه على المقهى أو في المسجد، فرد بأن البيت أفضل لأسباب أمنية.

ثم جاء الصدام الأكبر بينهما حينما تركها خلال الأيام الأخيرة لحملها ليذهب لمعسكر للتنظيم بالإسكندرية. عندما عاد للقاهرة كانت قد أنجبت بالفعل، عاتبته فحدثها عن نصرة الإسلام، فسخرت من إغاثة دين الله بترك الزوجة في غرفة العمليات للتصييف مع الأصدقاء على البحر.

قالت سمية إن هناك ملايين الملتزمين دينيا لكنهم ليسوا مطاردين، في حين أن بيتها على كف عفريت.

زوج سمية عبر لها خلال أحد شجاراتهما عن ندمه لعدم زواجه من أخت تتفهم وتساند، فاقترحت عليه ببرود أن يصحح خطأه. وتطلقا..

٢٠١١ فور الإطاحة بالرئيس التونسي بن علي شاركت سمية بحماسة في مظاهرات يناير ضد الرئيس مبارك، ثم عملت كمحامية في المراكز الحقوقية، وانخرطت في حملة عبد المنعم أبو الفتوح المرشح المستقل للرئاسة، رغم تحذير والدها منه أو ربما بسبب تحذير والدها منه.

صديقاتها القدامى في مدرستها الإسلامية وصفوها على فيسبوك بقلة الأصل وانعدام التربية لهجومها على المرشح الرئاسي محمد مرسي، لكن سمية ردودها ساحقة وسخريتها كاسحة مهما تكاثروا عليها في التعليقات.

ثم بدأت صورها على فيسبوك تتبدل ببطء.

في البدء غيرت صورتها بأخرى لممثلة أجنبية، ثم صورة لوجهها ينحصر فيها الكادر على الوجه فقط، ولكنك ترى خصلات شعر بسيطة تستخلص منها أنها دون غطاء رأس، ثم صورة لها تحمل ابنتها وهي بثوب محتشم وتعقد شعرها دون حجاب.

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

بدا لي تعليقها ذكيا، لكن تحته كان هناك ١٥٤ تعليقا أغلبها دعوات بالهداية وتأكيد على فرضية الحجاب.

خلعها للحجاب شكل زلزالا عنيفا في عائلتنا. أسماء أختي قالت لها:

ـ أنت أحلى بالحجاب.

بينما قال والدها:

ـ أنت بنتي ولو تؤمريني إني أعمل لك أي حاجة فأنا موجود جنبك.. لكن أنا مش راضي عنك، وحد الله بيني وبينك طول ما أنت من غير حجابك.

قدرها السيئ نازعه قدر آخر أسوأ. طليقها اختطف ابنتها وهي خارجة من مدرستها، قال إن البنت ستتربى وسط أخواته في الله؛ إذ إنه لا يمكن أن يأتمن كاسية عارية على صغيرته.

طلبت من والدها التدخل، فقد كان الوحيد الذي تسمح عائلة زوجها له بزيارة البنت، فعاد لها الأب قائلا:

ـ وعدوا أنه بمجرد ما تقومي سلوكك كل حاجة ترجع لطبيعتها.. مفيش داعي أنك تقلقي.. بالعقل حناخد حقنا.

ـ ولا عقل ولا هباب.. بنتي راجعة لي يعني راجعة لي.

نصحها والدها بأن ترضيهم وتعدل من ملابسها، فشكرته هازئة مما اعتبرته انحيازا لشروطهم، وسألته هل محصلة مساعدتك وجهودك دومًا هي: اجتهد فأخطأ، ألن تجتهد يومًا فتصيب؟

زادتها خسائرها خفة فعاندت، على عكس ما طلب منها نشرت على فيسبوك صورة في حفل زفاف إحدى صديقاتها وهي ترتدي فستانا قصيرا، وكتبت ساخرة ممن تعرف أنهم سينتقدونها: «أختاه أخجلني صمودك».

تتعمد اختيار كل إكسسواراتها على شكل خروف، وفسرت ذلك

بأنه نكاية في زوجها الإخواني؛ لأن الوصف الذي شاع للإخوان حينها بأنهم قطيع المرشد، وأخمن أنها لم تقصد النكاية في طليقها وحده.

بعد تحرك الجيش في ٣ يوليو ٢٠١٣ السلطة ضيقت على المراكز الحقوقية، فتم تسريحها من عملها، في إطار تراجع نشاط العمل الحقوقي. اتجهت للعمل الخاص، وفي غضون عامين من الجهد المميز صارت المحامي الأشهر في الدفاع عن المعتقلين.

ـ شعلقة الناس فينا مؤلمة أكتر من الظلم اللي بيتعرضوا له.. أحيه.. تعبت جدًّا فعلا يا وائل.

ـ بتقولي أحيه! يخرب بيت الليبرالية.. تعال شوف بنتك يا دكتور أسامة.

ـ والله أنا من زمان كده.. لكن أخيرا خدت فرصتي.. وعلى السيرة بقى، أنا أكيد مكنش قصدي على الأجهزة الكهربائية.

٢٠١٦ نشطت في العمل التطوعي. قالت إنها لن تصلح العالم، ولكن بإمكانها إصلاح شارعها.

أحسبها عصفورا يجر ديناصورا لكنها سعيدة. يرونه بعيدا وتراه قريبا.. تقول إنها تنتظر يوما آخر كيوم ٢٨ يناير ٢٠١١.

ـ لسه عندك أمل يا سمية؟

ـ القصة مكملة، لكن إحنا لسه معرفناش نهايتها.. بكرة المية يصيروا مليون، والمليون هيدوسوا فرعون.

قالت الهتاف، ثم مشت في الشقة ترددد بحماس لطيف، كأنما هي فعلا في مظاهرة. ولأنها مبتهجة، ففور أن أنهت هتافاتها، التفتت تسألني عن أخبار «الزفت حسين» أخي.

ثم صبرت فظفرت. ألقي القبض على طليقها لتمضي طفلتها تسعة

أشهر في حيازة جدها، وحين قبض على الجد بدوره اضطرت عائلة طليقها لإعطائها طفلتها.

لاحظت بعدها أن سمية استعاضت عن حلقها الذي كان على شكل خروف، والذي كان والدها يصفه بالاستفزازي، بآخر عليه آية قرآنية.

حذيفة أسامة عودة

٢٠٠٠ كان قريبا من النجاح، كان قريبا من البهجة.. لكنه فشل.

بدا حذيفة ابن خالي واثقا بنفسه، أشهد أنا والأسرة من مدرجات نادي الزمالك مشاركته في لعبته المفضلة الوثب بالزانة. يقف فوق الأرضية الحمراء المميزة لرياضات ألعاب القوى وينظر إلينا باعتداد، ثم ينفخ صدره بالهواء ملتقطا شهيقا عميقا.

جسمه الرياضي الشاب بدا مبهرا، يحمل في يده زانة طويلة كأنه فارس عربي قادم من عصور مجيدة، يرمق هدفه بتركيز فيرتفع هتاف فتيات العائلة بالتشجيع. يطوح جسده للأمام ثم للخلف تأهبا، فأسمع دعوات والدته بجواري بألا يسقط الحاجز كي لا تعتبر محاولة لاغية.

ينطلق بسرعة هائلة تحيطه نظرات الفخر، وصل إلى الصاري وغرز الزانة بقوة في الأرض ليرتكز عليها مرتقيا للأعلى ثم حول سرعته إلى قوة صعود لترتفع رءوسنا معه وتلحق أعيننا به في الأعالي، طوح ساقيه في الهواء ليرتفع فوق الحاجز ويصبح على بعد سنتيمترات طفيفة من تخطيه فنتقافز فرحا.

ما جرى بعد هذا كان غريبا.

انثنت الزانة المصنوعة من الألياف الزجاجية المرنة تحته ومالت باتجاه الحاجز ليهوي للأسفل وهو ما زال متشبثا بها. كانت الزانة ما زالت مغروزة بالأرض بينما ثقل جسمه كله أصبح محملا عليها

وهي منثنية ومائلة، لترتد الزانة المرنة بشكل مخيف إلى الجهة المعاكسة التي جاء منها.

الارتداد المفاجئ جاء عنيفا. طار في الهواء في مشهد يليق بأفلام كارتون توم وجيري، ليهوي على الأرضية بعيدا بشكل مفجع.

ارتعدت من بشاعة المشهد وسط هستريا من الصراخ حولي. حاول النهوض في لحظتها، لم تسعفه قدماه فعاود السقوط على الأرض.

الغريب أن فيديو الواقعة أصبح متداولا فيما بعد على يوتيوب، إذ انتشر بكثافة فيما بعد باعتباره فيديو كوميديا، مأساته حازت على ملايين المشاهدات وتناقلتها برامج المنوعات باعتبارها موقفا طريفا مضحكا لقفزة فاشلة.

تصورت أنه سيعود ثانية للعبة، فلطالما تدرب جيدا وكان مؤهلا ليكون بطلا أولمبيا. المفاجأة أنه لم يفعل، طالت فترة الإصابة حتى تعذر عليه أن يتابع الممارسة.

مأساته مضحكة، والمرعب أن أغلب المآسي مضحكة.

أتساءل كم من الهزائم نحتاج حتى نستسلم تمامًا؟ وكلما رأيت الفيديو أعرف أن الإجابة: واحدة عنيفة تكفي.

١٩٩٥ كنت تلميذا حديثا بمدرسة الجيل المسلم الإعدادية، انتقلت لها عاما واحدا فقط، بعد ثناء خالي د. أسامة عليها.

في مسجد المدرسة نصطف لصلاة الظهر، فنحن في الأسبوع الأول للدراسة وما زلت أحاول استيعاب فكرة جمعنا في الفسحة للصلاة. ألمحه يخرج من جيبه زجاجة مياه صغيرة ويرفعها إلى فمه ويشرب. زجرته بيدي لعله نسي أننا في صلاة. ارتوى ثم مد يده ببساطة يناولني الزجاجة، متصورا أنني كنت أغمزه لأطلب الماء.

كان هذا حذيفة أسامة.

وسط أساتذة يمشطون المدرسة بحثا عن الهاربين من صلاة الجماعة وأصوات فرك اليدين تأهبا لتلقي ضرب الشتاء الموجع، كان حذيفة يقود تهربا يوميا منظما من الصلاة. وفعلا لم يصل إليه الأساتذة، لكن الشرطة المدرسية التي تزعمها أخي حسين منصور فعلت، وغصب عليه حسين مرات كثر على الخروج من مخبئه حيث يلعب الكرة للذهاب للصلاة.

كون حذيفة عصبة هدفها ضرب الشرطة المدرسية، وتطور نشاطهم لملء أكياس بالبول وإلقائها من الدور الأخير عليهم وعلى زملائنا المتوجهين للصلاة.

حذيفة لقي عناية بالغة من الأساتذة. فالمدرسة إخوانية ووالده د. أسامة عودة قيادي بالتنظيم، وبالرغم من أنه مدلل نظريا ولا يعاقب بالضرب مثلما يعاقب الطلبة الآخرون، لكن تركيز الأساتذة مع كل تفاصيله يخنقه، فلا يمكنه أن يشرد قليلا لأن المدرس حتما يتابعه بنظره وسيسأله.

يكلفه الأساتذة «بالوقوف على الفصل» لكتابة أسماء مثيري الشغب خلال غيابهم، ولم يحصد حذيفة من ذلك سوى البغضاء من الطلبة الذين اعتبروه بشكل ما جزءا من إدارة الفصل.

بذل حذيفة جهدا جسيما للتملص من الوصم بالعمالة لإدارة المدرسة، حتى إنه تعمد السخرية من الأساتذة علنا، وأجاز لزملائه اللعب والتحدث كما يشاءون دون أن يدون اسم أي طالب.

آخر ما أذكره قبل أن تجعلني أمي أغادر مدرسة «الشيوخ» لأعود إلى مدرسة مصطفى كامل الإعدادية، أن حذيفة تعارك مع طالب بسبب لعب الكرة، اشتبكا فضربه حذيفة. المدرسون عاقبوا الطالب

واستدعوا ولي أمره، في حين عوتب حذيفة بهدوء، لتتفاقم بعدها عزلة حذيفة واحتياط الطلبة منه بصورة أشد.

١٩٩٧ أسرة حذيفة وأصدقاء والده كلهم من الإخوان، لذا سر عندما اكتشف فور التحاقه بالمدرسة الثانوية الحكومية حقيقة أن هناك أشخاصا على كوكب الأرض لا ينتمون للتنظيم، كانت مفاجأة سعيدة له.

في مستهل أيامنا بالمرحلة الثانوية، توقف حذيفة عن استكمال حفظ القرآن رغم وصوله للجزء الـ ٢٤، وبدت «لجنة أبناء الإخوة» عاجزة أمام شائعات تدخينه السجائر وتردده على السينما.

عاد من عند الحلاق وقد قص شعره «عرف الديك» وصبغه باللون الأصفر، أدرك والده أنه يتمرد علنا فصفعه وأمرني أن أصطحبه برسالة شفوية ما للحلاق. رفضت بشكل قاطع، فكلف سمية أخت حذيفة الصغيرة بالمهمة. نزل ثلاثتنا للحلاق، وفور دخولنا هتفت سمية بطفولية مرحة:

ـ بابا بيقول لك رجع أخويا رجل تاني.

انفجرت عاصفة ضحك في المحل. دمعت عينا حذيفة قهرا وسط عتاب الحضور له، لأنه لم يستأذن والده في شكل شعره قبل الحلاقة، بينما أخته تنتظره كي تعود به رجلا كما أمرها أبوها.

سمية فهمت أنها جملة عقابية ولكنها لم تدرك تبعاتها. رسالتها كانت فاتحة لتوتر عميق في علاقتها بأخيها، لم تستوعب حجم الإهانة التي وجهتها له إلا بعد سنوات. والغريب أن حذيفة نفسه تسامح، أما سمية فلم تنس لأبيها أنه وجهها للانتقاص من أخيها الأكبر، مستغلا صغر سنها وعدم وعيها بأبعاد الرسالة.

وحين اشترى د. أسامة طبقا هوائيا ليشاهد الجزيرة وهي تتحدى النظام، شاهد حذيفة فضائيات ميلودي وروتانا وهي تتحدى الملل بأغاني رآها والده مخلة. لم يرق سلوكه لوالده ومع الوقت لم يعد هو نفسه يرق لوالده، فجافاه لتنحصر علاقتهما في تحيات رسمية باردة.

٢٠٠٥ في طفولته أحب حذيفة أفلام حرب أكتوبر، ثم جند بالجيش فلم يعد كذلك.

فترة تجنيد حذيفة أورثته ضغينة لكل من يحمل نجوما فوق كتفه. يعود من كل إجازة صموتا على عكس عادته والغضب يلمع في عينيه. وما أن استلم شهادة إنهاء خدمته حتى اتصل أمامي بقائد اللواء الذي عمل عسكري «مراسلة» له. بدأ حذيفة الحوار مهذبا وفهمت من الحديث أنه على علم بأن العميد كان يستقصي عن عمل في مجال التأمين حال الانتهاء المرتقب لخدمته. حدثه حذيفة عن عمل براتب جزيل في انتظاره، وحين سأل العميد عن طبيعة العمل أجابه حذيفة:

ـ مطلوب منك توصل بنت أختي وترجعها من المدرسة.

قالها بثبات وجدية، ثم ضحك بثقة عندما سمع عبر الهاتف تهديدات وسبابا بذيئا تلقاه بقهقهات جنونية صافية.

٢٠٠٤ لم ينتم حذيفة للإخوان مطلقا، وخلال دراسته الجامعية تفلت من لقائهم لانتقادهم ارتباطه بإحدى زميلاته في الجامعة.

وفور تخرجه بدأ أعمالا تجارية مستقلة وراجت مشروعاته الصغيرة، وإن منعه الفساد من أن يكون في مكانته الحقيقية بين رجال الأعمال الشباب. حذيفة لسنوات انتظر ما أسماه «تمكن المصريين من احتلال مصر» لذلك تحمس مثلي لمظاهرات يناير ٢٠١١،

وبجواره رأيت الحب يُلقى علينا من الشرفات يوم جمعة الغضب ومعه زجاجات المياه والخل لنزيل آثار الغاز المسيل للدموع. مشينا سويا وسط أمهات تنزلن من بيوتهن تبكين وهن يحملن المصابين في سيارتهن. ذبنا وسط جموع هائلة انضوت إلينا مع رجة هتاف «يا أهالينا ضموا علينا».

ثم، اللعنة على ثم، هل ينبغي أن تأتي ثم؟

ثم شرع في إقامة معرض لليخوت بشرم الشيخ، وهو المعرض الذي كان يخطط له منذ عامين وينوي إقامته في مارس ٢٠١١، وبسبب اعتصام يناير تأجل المعرض حتى أكتوبر، لكن أحداث محمد محمود التي قتل خلالها ٥٦ متظاهرا يطالبون المجلس العسكري بتحديد موعد للرحيل أرغمت حذيفة على تأجيل المعرض لمارس ٢٠١٢، وانتظره كنجدة تنقذه من ديون بدأت تتراكم. وحين وقعت مذبحة بورسعيد حيث قتل ٧٢ مشجعا للأهلي قبل موعد المعرض بشهر، اضطر إلى تصفية الشركة.

تخبطه المالي عطل زيجته طويلا، وحين أتمها انصرف أبوه باكرا من حفل الزفاف عندما رقصت الفتيات مع الشباب على أنغام أغنية «قولوا للعالم مصر إسلامية»، إذ لم يطق الوالد هذا الاستهزاء.

حذيفة تضايق، قال إنها مجرد مزحة من أصدقائه بعدما ذاع صيت الأغنية بعد الإطاحة بحكم محمد مرسي، وحين قبض على أبيه نفسه فسر حذيفة ذلك:

- فيه ست طيبة قابلت حسن البنا في الإسماعيلية سنة ١٩٢٨، وقالت له ربنا يديك على قد نيتك يا شيخ.. وقد كان.

بسبب كل هذا حسبت أن علاقتهما متوترة، ولم أع عمق تعلقه بوالده إلا حين حبس د. أسامة. توقع حذيفة السجن لوالده بعد فض

رابعة، لكنه توقع الخبر ولم يتوقع الألم بعده، فلعامين كاملين ظل مكسورا بغياب الأب حتى قال لي مرة:

ـ عاجز أستوعب أن ابني بيكبر قدامي وبابا ولا مرة شافه.. أما مراتي ولدت قلت حيطلع ويشوفه قبل ما ابني يبدأ يمشي.. طيب حتى قبل ما يبدأ يتكلم.. لكن الحقيقة أن كل يوم فيه أمل جديد وصدمة جديدة.. ده صعب.. صعب جدًا.

أهون عليه، فيقول:

ـ الاعتياد مريح للأعصاب.. وأنا مش قادر أتعود.

٢٠١٤ ما أسعد الذين لم يسعوا للإصلاح أبدا لذلك لم يعش سعيدا..

اهتم فاغتم، حتى لم يعد لديه قدرة ولو على الإحساس بالغضب. ولأن الغضب يحتاج إلى طاقة فقدها مع الوقت، استغرق حذيفة في خلق مسافة عن كل شيء بالانشغال بالعمل.

أعاد مشروع معرض اليخوت عبر شركة جديدة فور انتخاب السيسي رئيسا، وليتجاوز ديونه استخدم مدخرات والده التي تركها حين سجن، ودخل حذيفة في شراكة مع أصدقاء العمر ووعدهم بربح يكفيهم ويعوضه.

أفسد البحث عن الأفضل عليه كل شيء. خدعته غواية الاقتراب، كلما خسر يزيد الرهان ليعوض، اكتشف بعد مرور ثلاث سنوات عجاف أنهم كانوا الثلاث السمان، تنظيم الدولة الإسلامية تمدد بسيناء وعمليات استهداف السياح تزايدت بشكل ممنهج، ثم فجرت طائرة شرم الشيخ لتنفجر معها السياحة، صفيت الشركة الجديدة بدورها بديون هائلة هذه المرة وثقة متدنية في شخصه.

حاول، فانظر ماذا حدث له؟ مذكروه نسي ومذخوره فني، فقال

ساخرا أنها شدة ونحن من سنزول، والآن إذا انتويت المحاولة ستكون نصيحة حذيفة «لا تفعل»، سألته ماذا ستفعل في ديونك فنصحني أن نؤسس خططنا المستقبلية على فكرة أننا سنفشل في كل الأحوال.

ـ ولا فيه أي أمل.. هدوء بعد إذنكم.

٢٠١٦ لم يستطع الهجرة فانتقل للسكن في كمبوند معزول كحل مؤقت، وخلال عودتنا من شقته الإيجار في «زايد ٢٠٠٠»، جاءنا نبأ فشل أمه في التعرف على مكان والده الحالي، بسبب نقله المتكرر من سجن إلى آخر، تلقى حذيفة الخبر بعدم اكتراث وكأن ما يسمعه لا يعنيه في شيء.

كنا نستقل التاكسي سويا، السائق في الخمسينيات من عمره، يبصق ويلقي بقايا الطعام من الشباك ثم يطلق تعليقات جنسية على الفتيات غير المحجبات. وحين أزعجني تنقله بسرعة لا ضرورة لها بين الحارات المرورية قلت له:

ـ مش مستعجلين على حاجة يا أسطى.. براحتك.

ضحك، التفت إلى حذيفة بتوتر فوجدته مبتسما في هدوء وهو يدخن سيجارته.

تباطأت سيدة محجبة تقود عربتها بجوارنا فأخرج السائق رأسه من الشباك وسبها بأمها. بعد دقائق لف بسرعة في منحنى ومال على سيارة ملاكي، فاضطر سائقها للانحراف بعيدا ليصطدم بميكروباص.

سمعنا أصوات الارتطام خلفنا، زاغ سائقنا سريعا لكن سائق الميكروباص لحق به وأجبره على التوقف بالتاكسي ثم فتح الباب لينتزعه من سيارته الأجرة ويجذبه من قميصه نحوه وهو يصفعه

بشكل متتال مهين، حاول سائقنا أن يتقي الضربات بيديه فلكم سائق الميكروباص بقبضته في بطنه.

هممت بالنزول لإيقاف العراك، فسور حذيفة معصمي بيده اليمنى، ومال بجسده ناحيتي ليغلق بيده اليسرى صمام الباب المجاور لي بحزم.

الأسوأ جاء، شاب متين يجري بجسارة نحو سائقنا ويهوي على وجهه بحديدة لتنبثق الدماء. كان سائق الملاكي التي مال عليها سائقنا وأرغمه على الاصطدام بالميكروباص.

تجمع أصحاب المحلات المجاورة ليوقفوا الشجار، وفعلا أنقذوه ودفعوه لسيارته ليستكمل طريقه ويهرب من اللطم والركل، أكمل بنا طريقنا واجما مهانا، بينما واصل حذيفة تدخين سيجارته دون أن تتبدل ابتسامته الهادئة.

نزلنا من السيارة وحاسبه حذيفة على قيمة العداد بالضبط. تناول السائق النقود ووضعها بجواره بلا مبالاة وهو يعاتبنا:

- مش كان واجب تهزوا طولكم وتنزلوا تحوشوا عن راجل كبير يا أساتذة.

لمعت عينا حذيفة حتى بدا لي لوهلة مختلا، قبل أن يستعيد هدوءه ويقول بصوت مسموع وإن كان خفيضا:

- كلوا بعض يا أولاد القحبة.. كلوا في بعض كلكم يا أولاد القحبة.

باكينام الصباغ

٢٠٠٥ الطريق مظلم. وجدت باكينام ضوءا فتوجهت إليه..

الضوء لكشك صغير على الطريق الزراعي. توصلنا صديقتنا باكينام الصباغ بسيارتها لتقديم واجب العزاء لزميل بالعمل، وتسأل صاحب الكشك:

ـ صباح الفل.. لو سمحت يا عمنا.. ممكن تقول لنا الطريق لسمنود؟

ـ بصي.. امشي على طول.

ـ تمام.

ـ على الشمال شارع مكتوب على أوله يافطة ممنوع الدخول.

ـ جميل.

ـ ادخلي من عندها.. وكملي على طول.

كان الرجل يصف جادا، ضحكنا، أما باكينام فتجهمت ولعنت شيئا ما والأرجح أنها لعنت مكانا ما.

٢٠٠٥ كانت محجبة ثم اشترت سيارة.

السيارة ضمنت لها حرية ملبس وحركة. خلعت الحجاب ولم تعد تسعى لتجنب ما يُعتقد أنه استفزاز للمارة بملابسها.

باكينام شديدة بياض الوجه شديدة سواد الشعر لا يرى عليها أثر للفقر، فهي الأكثر أناقة بين زملاء جريدتنا، ونحافتها أتاحت لها ارتداء ملابس قصيرة نسبيا دون أن تكون فجة.

جميلة، وبالنسبة لي مثيرة، فيها شيء جذاب تشعر به نفسك ولو

أخطأته عينك، على الأرجح هو ابتسامتها. حين توصلني بسيارتها تبدو متبرمة من بطء من يقود عربته أمامنا.

ـ ربنا يضعف موقفك يا بعيد على سريرك مع صاحبتك لأجل خاطر السرعة الزفت دي.

لم تكن عبارتها استثناء، فهي غرائبية في تعبيراتها، تقول لي:

ـ أنا الشيكولاتة طعمها مزعج بالنسبة لي.. لكن كل أما أقول لبنت إني بكره الشيكولاتة تتفاجأ كأني قلت لها إني عندي عضو ذكري.

الغريب أنها بدت مثيرة جدًّا لحظتها، فاللهم اغفر معاصينا التي ارتكبناها وتلك التي فشلنا في ارتكابها.

تجلس باكينام أمامي في سيارتها وشعرها متهدل وراء مقعدها فيكاد يلامسني، أقاوم باستماتة رغبة جارفة في العبث بخصلاتها وتمرير يدي عليه.

كنت متصالحا مع فكرة أن شيئا ما يشدني لباكينام حين قالت لي:

ـ كل ما أتكلم عن حرية البنت مع أي ولد يفكر أنه ينط عليا.. مالهم، احلويت فجأة؟ ما أنا هو أنا، ولا هو هيجان والسلام؟

أهز لها رأسي بتأثر، متغاضيا عن حقيقة أني حلمت بالأمس أني أنام معها. كانت أول فتاة أنجذب لها بشكل يستحيل إيقافه.

لعنت باكينام المجتمع القذر باشمئزاز، فاستدرت بوجهي وهي تتحدث كي لا تصيبني لعنتها.

وحين انتهت موجة تنمرها مالت نحوي وابتسمت. تقاربنا فجبنت، بها جانب يهز ثقتي بنفسي ويجعلني لا أجرؤ على الاقتراب.

فماذا لو لم أكن جبنت؟

٢٠٠٥ في سينما أوديون نشاهد فيلما كوميديًّا لمحمد هنيدي،

شعرت بتوترها، وتصورت لوهلة أنها قلقة بسبب حركة خلف كرسيها اعتقدت أنها همس حبيبين. سكت صوت الفيلم فتعالى للحظة ما يشبه اللهاث.

بحركة سريعة أخرجت باكينام المحمول من حقيبتها وأضاءت الكشاف، ونهضت لتستدير لسمين أصلع ألصق جسمه بمقعدها. كان معها زجاجة عصير ممتلئة فصبتها فوق رأسه، ثم عاجلته بسلسلة صفعات انتفض بدنه مع كل واحدة ألما وصدمة.

ـ لا.. لا يا روح أمك.. اجري استمني على أمك يا بن الفاجرة.

أخذت تكرر عبارة «على أمك يا بن الفاجرة» بهستريا، لم يحم الرجل وجهه ولا حاول الوقوف أصلا، فقط كرر مأخوذا «أنا آسف»، أرادت أن تبصق عليه، لكن البصقة لم تتجاوز شفتيها مع تتابع أنفاسها، صمتت ثانية قبل أن تشتم الشباب جواره لسكوتهم عليه، ثم زعقت:

ـ غور من قدامي.. اخرج عايزة أكمل الفيلم.

طردناه وتطوع آخرون لانتزاعه من أمامها ثم استكملنا الفيلم، بدت كاسحة، ولكن ليس كل ما يبدو عليه المرء يدركه.

جسدها ارتعش لدقائق وهي بجواري ثم انفجرت باكية.

٢٠٠٧ بدا جليا أن عزيز رئيس تحرير جريدتنا يضاجعها بنظراته يوميا منذ خلعت الحجاب، فتقول لي لن أتحجب وسيتأدب، وحينما لفتت نظراته الانتباه قالت بحسرة ساخرة:

ـ يعني كل يوم الصبح أقعد أحط مكياج ساعة وفي الآخر البص كله على صدري.. حاولت والله أشتت انتباهه لكن مركز جدًّا في هدفه ابن الكلب.

كان يعتقد أنها تبادله إعجابا، فتوقفت باكينام عن إلقاء السلام عليه.

ـ خياله المريض مصور له إن معنى إني قلت له صباح الخير أو ابتسمت له إني دماغي فيه.. يا أخي يلعن أبو التخلف.

وحين واصل توددة وتعامله المتميز معها قالت باستهانة متهكمة:

ـ عشان كده.. صباح الخير ممكن أنام معكي؟ تختصر كتير في مصر والله.

استمرت المطاردة بينهما لشهور حتى انتهت بشكل مباغت، لم تتحجب وهو لم يتأدب، سافرت.

كانت زيارة تدريب قصيرة لبريطانيا، لكنها في أول رحلة لأوربا لم تجد تفسيرا لمصر. ولأن فاقد الشيء لا يجده هنا، قالت: إن على هذه الأرض ما يستحق الرحيل، أخبرتني ابنة كفر الشيخ أنها إن كانت ستتغرب للقاهرة فالأولى أن تتغرب لأوربا، ففي جميع الأحوال هي بعيدة عن أمها وعائلتها، فقد جاءت للعاصمة من أجل فرصة عمل وحياة أحسن، وبالتأكيد كلاهما في بريطانيا أفضل.

سألتها: هل تنوي الرجوع قريبا، فقالت: ما عندكم ينفد وما عند الأوربيين باق. قلت: إن أحدا لا يعرف أين الخير، فقالت: إنها تعرف أنه ليس هنا.

ـ تروحي وترجعي بالسلامة.

ـ نكتفي بجزئية أروح بالسلامة.. والنبي ما لازم الضمير الزيادة عن اللزوم في الدعاء يا صاحبي.

٢٠١١ سنواتها الأولى بالهجرة لم تكن سهلة، تركت الصحافة وتخبطت كطفلة في شوارع لا تعرفها بعدما تركت طمأنينة الأصدقاء وأمان الاعتياد.

من تقول إن فوطها الصحية الشيء الوحيد الذي يتغير في مصر مبارك، أسعدها امتلاء ميدان التحرير بالحشود، ورغم انشغالها بإتقان اللغة الجديدة وبالتعلم، لكنها شعرت بالفخر حين صفق لها كل من بمطار لندن هيثرو من كل الجنسيات صباح تنحي مبارك، لمجرد كونها مصرية حيث ميدان التحرير.

لحظتها قررت العودة في إجازة. ارتدت مع شابات شارعها زيا موحدا يصلح للعمل ونزلت لتجمع القمامة من الطرقات ودهنوا الرصيف بألوان مبهجة. قالت إنها لا تعرف الكثير عن السياسة لكنها تعرف الكثير عن الحياة، وما نعيشه ليس حياة، وإن كل ما تريده من مصر بعد يناير أن تصبح شوارعها نظيفة وبها رصيف يصلح لسير البشر وحوله شجر.

في الذكرى الثانية للإطاحة بمبارك وبينما الشوارع تضج بمظاهرات ضخمة ضد الرئيس مرسي وأخرى مؤيدة له، وبينما نجلس بكافيه بمصر الجديدة، تطلعت للخارج برثاء وقالت:

- ودي أجمل شوارع فيك يا مصر؟ خرابة؟ جدران وخيم مظاهرات.. وأنا عبيطة كان تفكيري أنزل إجازات كتير هنا.. قال إجازة قال؟ أنا أساسا محتاجة إجازة حقيقية بعد الإجازة دي.

لم يكن لها أي موقف من المظاهرات المؤيدة أو المعارضة، واعتبرت الاشتباكات المتكررة دليل عته مصري جماعي. نصحتني ألا أشارك في أي احتجاجات كي لا أمنع من السفر، وقالت: ماذا يفيدك إن كسبت كل شيء ثم خسرت جواز سفرك؟

- مبسوطة هناك؟

- عمري ما فكرت في القصة دي.. كل تفكيري إني لازم أمشي وأبني حياة جديدة.

ومشت، لم أرها في مصر بعد ذلك. تزوجت بريطانيا مسلما، وبعد أن كانت أمها تخاف عليها من الغربة خلال سنوات السفر الأولى، استدعت باكينام الأم لتعيش معها بعد ما خافت هي عليها من مصر.

قالت باكينام إن الحياة حلوة، أما كونك في مصر فهي مشكلتك أنت. ونصحتني أن أقلدها قائلة: «اخرجوا من مصر إن شاء الله آمنين». ويوم حصلت على الجنسية قالت إنها أقسمت على احترام قيم الحياة البريطانية من حرية ومساواة، وإنها الآن فقط شعرت أن بإمكانها أن تنجب أطفالا تحكي لهم رحلتها ليكون لها «وطن حقيقي».

كنت قد عرفتها على حسين أخي، وفى البدء بدت علاقتهما رائعة، ورغم صداقتها تقول عنه:

ـ سعيدة بأني بأدفع جزء كبير من دخلي ضرايب.. يمكن في يوم فلوسي تحقق حلم طفل في بلد إفريقي.. لكن من غير زعل أخوك ربنا كرمه ببلد تعلمه وتقدم له خدمات صحية.. معقول أول حاجة يفكر فيها أنه يسألني عن التهرب من الضريبة؟

صداقتهما الوليدة انتهت بقطيعة بعد إبلاغها الشرطة عنه واتهامها له بمطاردة زميلته بالعمل. لم أعاتبها، أما حسين فسبها بغل مبرر قائلا:

ـ نهار أسود.. باكينام بتاعت شارع فيصل قالت لي أنت عربي قذر.

لم أناقشها فيما فعلته، أما هي فاكتفت بأن ألمحت مرة أنها قامت بما أملاه عليها ضميرها. وبعد فترة طويلة فتح بيننا الموضوع فقالت:

ـ إحنا أصلا سفلة وعالة على البشرية.

ـ إحنا مين؟

ـ العرب والمسلمين.

٢٠١٥ حين زرت بريطانيا تلاقينا. كنا في شهر رمضان فدعتني لمطعم تركي وحذرتني من الذهاب لمكان بعينه لأن كله مصريون وقالت:

ـ أنا لسه بصوم.. كل سنة في فكرة واحدة بتسيطر على بالي.. لو فطرت يوم.. ولو يوم واحد.. الله أعلم ساعتها حعرف أصوم تاني ولا خلاص.

أشرت لطفلتها الصغيرة وسألتها هل هي متأكدة أنها تريد أن تربي ابنتها في بريطانيا؟ فقالت:

ـ السيناريو المرعب عندنا كمصريين من الهجرة هو أن بنتي تدخل لي البيت مع صاحبها وتنام معاه.. ده متساوي مع رعب إن ابني يطلع شاذ.. لكن ولا عندنا أي قلق إطلاقا من أن ابني ينام مع واحدة أو أن بنتي تطلع سحاقية.. الرعب كله إن أولادنا يكونوا الجانب المتلقي للعضو الذكري.. رعب وهوس ولا له أي علاقة لا بأخلاق ولا بالزفت.

وبسبب توقفها عن زيارة مصر، أصبحت كل علاقتي بها من خلال فيسبوك، والذي أقلعت باكينام عن نشر كتابات النقمة على البلد من خلاله، أصبحت فقط تنشر فيديوهات عن بريطانيا، ورأيت صورة لها مع صديقتها البريطانية تشجعان فريق الأرسنال، ورغم قوة صداقتنا إلا أنني لم أعد أتابع ما تكتب بعد تحول منشوراتها كلها للغة الإنجليزية.

اكتشفت أنني الوحيد تقريبا الذي بقي في قائمة أصدقائها بموقع فيسبوك من المصريين. حذفتهم كلهم تقريبا، تأملت صورة ابنتها التي نشرتها على صفحتها على فيسبوك فابتسمت، تشبه أمها تمامًا. فكرت أن ربما كان بالإمكان أن تشبهني الصغيرة أنا أيضًا، لولا أنني جبنت.

وأعود وأتساءل.. فماذا لو لم أكن جبنت؟

منال عبد الرحمن البدري

٢٠١٥ ربما يود الذين أحبوا لو ما كانوا يفعلون، وربما في الصباح أستيقظ سعيدا دون أن تخطر ببالي، ربما غدا أنسى رائحتها، ربما أكره ابتسامتها، ربما أجد خصلة شعر بنية اللون ولا أعرف لمن تكون، ربما أحتاج لحضن مطمئن فأفكر في امرأة أخرى.

ربما يحدث هذا مستقبلا، ولكني الآن تعيس.

هي بهجتي، يمكن أن أحيا دون بهجة، ويمكن أن أعيش بمبهجات صغيرة فأضحك دون أن تلمع عيني، لكن بائس أن تجد بهجتك وتفقدها.

أغمض عيني كل يوم قبل النوم فأتذكرها، أفرح وأنا أقرأ رسائلها القديمة، أغني شعرها البدائي الذي أعشقه رغم أنها تسخر من رداءته، أتخيلها بجانبي تصحح كشاكيل تلاميذها في المدرسة.. لكن الحقيقة أنها ليست هنا.

فكيف لم تعد كذلك؟

٢٠٠٨ أحببتها، هذا ما حدث أولا، ثم بعد ذلك جاءت لماذا؟

ملامحها مريحة، وجهها مضيء بابتسامة تشعر بأنها جزء منه كالأنف والعينين، صوتها رقيق يخدر الأعصاب، مرحة وحجابها أنيق تحرص عليه أبيض هادئ كبشرتها.

أحببتها، ثم فتنت بكل شيء.

عطفت علينا الملائكة بالظهور فلمحتها تسير في مقر موقعنا

الإلكتروني متجهة لمكتب عمها عزيز البدري رئيس التحرير. لم تكن أول مرة أنظر لوجهها ولكنني فجأة رأيته. دار بيننا حوار لا أذكر منه حرفا، لكن ثبت بذاكرتي دفاعها عن شخص ما في غيابه كان زملاؤنا ينتقدونه، ثم ضحكتها البريئة وهي تقول بنقاء:

ـ كل واحد له ظروفه.

٢٠٠٩ وجدت منال فوجدت كل شيء، الله خلقها في لحظة صفاء كوني، أراها فأقرأ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

لأن الحياة مبهجة بشكل عام، فليوم كامل أسير أحجل بفرحة، بعدما اكتشفت أنها أسمتني على هاتفها «أبو شامة وعلامة أبو طلعة بسامة».

تحدثني عبر دردشة برنامج «ماسنجر»، ترسل وجها باسما فأتخيل بسمتها وأبتهج، نفس الوجه الباسم الذي اعتدت أن أتلقاه من صديقات أخريات وكنت أعتبره ردا باردا لا يعبر عن مشاعر.

أردتها، مددت يدي فأخذتها، لم أُلمح للحظة بل صرحت لها مباشرة برغبتي في الارتباط، ابتسمت منال، وحين يرضى الله عن عبده يجعلها تبتسم له.

أحببت منال فأحبت منال لقائي. في أول عيد حب معا تأخرت على ميعادنا، تعاتبني بنظرة حانية فأقول:

ـ هابي فامبير داي.

تضحك، فأجرب روعة أن تضحك لك الحلوة مرة، وأعرف أنني صالحتها.

ولأن التفاصيل لا تهم، خلال تشطيب الشقة اشتريت البانيو لونه فيروزي جميل وطاقم الحمام لبني رائع، بعد أن قمت بتركيبهما

فهمت من انفعالها أنها تعتقد لسبب ما أن درجتي الأزرق لونان مختلفان.

وقفت تصرخ في وسط الشقة، ضربت الأرض بقدميها بغضب، ضممتها لصدري فسكنت. وبعد دقائق سألتني الحبيبة:

ـ معانا فلوس نغيره؟

ـ ما أنتِ عارفة.

ـ خلاص.. حتصرف وأحاول أغطيه ولا أي حاجة.

قالت بصوت أقرب للبكاء، فاستبدلته في نفس اليوم.

لترضى..

٢٠٠٩ وجاءت مريم بنت خالتي.

قبل الزواج بأيام عرضت مريم رفقة أختي أسماء المساعدة في ترتيب ملابسي بدولاب سكن الزوجية الجديد، وفور دخولها البيت اختلفت مع منال حول مكان التلفزيون، منال أرادته في غرفة نومنا ومريم بطبيعتها المحافظة صممت على أن الأصول أن يكون في غرفة المعيشة ليكون متاحا للضيوف.

ـ ولا المفروض كل ما نزوركم ونقعد نتفرج على التلفزيون، نضطر ندخل نشوف قمصان نومك مرمية في أوضة نومك يا حبيبتي؟

بنت خالتي تتبرع بإبداء ملحوظات حميمية كوسيلة لهداية البشر حينا وللتودد أحيانا. تحملتها طويلا لكني لم أتحمل تلميحها لمنال أنها ممتلئة، والأفضل أن تلتزم بحمية قبل الزواج.

ـ ده لمصلحتك يا عبيط.

ـ وأنت مال أهلك يا مريم.

ـ فاهمة فاهمة.. ما أنا بشوفها بتكلمك إزاي.. أعوذ بالله من

كهن البنات.. دلع على الآخر.. غرضها تحبها.. ده أنا نفسي قربت أحبها.

ضحكت مريم وحدها على نكتتها، لأسباب أفهمها؛ فمريم تحتقر الدلال الأنثوي تمامًا كما تحتقر البدانة، ولأن ما جمعه الله لا يفرقه تطفل بنت خالتي تزوجت منال في ليلة مبهرة كملامحها، لكني لم أستطع منع نفسي من التساؤل هل هي فعلا سمينة؟

٢٠١٠ ولنا في منال حياة..

اقتحمتها فملكتها، تفور أمامي منحنيات جسدها فأعشقها من أول لمسة، ولحظة تعامد ضوء غرفة نومنا على النهر الجميل بين نهديها كانت هي الأروع في حياتي.

ما رأتني إلا تبسمت، جمالها مما يمكن الاستدلال به على وجود نعيم مقيم في الآخرة. تعلق القلب والجسد بها، ومنذ وطئت دار ضيافتها لم أوجه طمعي لغيرها.

الشغف يمتد، كل شيء بدونها ناقص وكل شيء بوجودها كامل. أبتهج لأني أراها، وتلمع عيني لأني أتحدث عنها. أتكلم فقط لأجعلها تتكلم، فصوتها يسحرني بغض النظر عما تقول.

أصبح هوايا تبعا لما جاءت به، فعرفت أن الهوى هوى بي تحت قدميها.

أرتبك عندما ألمح عينا نسائية رمادية، ولطالما نصحت نفسي ألا أتناقش مع فتاة لون عينيها رمادي، لكني تزوجت منها.

كنت سعيدا؟ طبعا كنت سعيدا، ثم امتلأت شرفة منزلنا في وسط البلد عام ٢٠١١ بالغاز المسيل للدموع، وإن العين لتدمع وإن القلب ليحزن.

٢٠١١ أعود من ميدان التحرير منهكا، أشكو همي وحزني إلى منال بحثا عن عناق صامت فأجد لوما نمطيا على المشاركة.

ـ قول لهم يرجعوا يا وائل.. كفاية خراب وارجعوا.

أصلي الجنازة في التحرير نهارا وأسمع مطالباتها لنا بالعودة ليلا. التلفاز مفتوح على فضائية المحور أو القناة الأولى الأرضية، أسمع بأذني أننا ممولون ومتآمرون. أتوتر وأقفله، فتخرج وتشاهد في الصالة.

قصتنا رائعة، لكن ما بالك باثنين جهاز التلفزيون ثالثهما؟ تصدق ما يقوله عمها الإعلامي عزيز البدري على التلفاز؛ لذا قدرت أنها على تدينها ستكون أول المؤمنين بالمسيخ الدجال حال ظهوره.

صوتها يعلو شيئا فشيئا. يأتي ذكر أيمن زميلي القديم بالمدرسة فتقول:

ـ مش ده الولد اللي راح يحرق قسم السيدة؟

أرد وأشرح بهدوء. ولأن والدها ضابط شرطة على المعاش فاض ما في قلبها على لسانها.

ـ لو بابا لسه في الخدمة الولد ده كان حرق القسم وبابا فيه.

ـ أيمن صاحبي هو اللي مات.. عمو ربنا يخليه لينا في شاليه الساحل الشمالي من أسبوع هو وطنط حبيبة قلبي.

هزت رأسها مبتسمة كأنها تقول لا معنى للحديث معك. ولأنها ذكرت الشرطة، أسخر من اختفائهم من الشوارع خلال «يناير» فتقول:

ـ كل همك أنهم ينزلوا يموتوا قدام شوية همج؟ سابوا لكم البلد عشان تاكلوا في بعض وتحسوا بقيمتهم طالما بتتنمردوا عليهم.

أقسمت لها إنني لن أسمح أن يقتل أيمن آخر ظلما، فقالت كان غيرك أشطر. قلت لها مكملين، فتأملت الحال وسألت في ماذا بالضبط؟ عايرتني إن شبابنا يذهبون جفاء، وأما أبوها الضابط فيمكث في الأرض.

وعندما اشتبك مسلمون ومسيحيون في ظل اختفاء الأمن قالت:

ـ احنا نعمل مليونية في التحرير نطالب بالإفراج مؤقتا عن حبيب العادلي.. يدخل الفيران جحورها ويرجع تاني.

حديثها يثير اشمئزازي، لذلك فالاستهزاء يتسلل لكلامي بهدوء. حفلت ليالينا بالجنس لنتصالح، استيقظت من النوم أشعر بأنفاس قريبة، وقبل أن أفتح عيني شعرت بشفتيها تقبلني خلال نعاسي.

واصلت نومي واستفقت مبتهجا.

٢٠١١ في شارع محمد محمود لا جدوى من الصراخ بالاحتجاج إن كان رصاص الأمن المركزي لن يسمعنا، وفي البيت لا جدوى من الصراخ بالشرح إن كانت لا تسمعني.

رأيها قتلهم جميعا ولم تحدد من هم، تعايشت مع الأمر لكنها بدأت تشير لمن تقصد، وإشاراتها اتجهت لصدري.

مبهوتا عدت من اشتباكات فض مظاهراتنا ضد المجلس العسكري في محمد محمود ممتلئا بدماء من كانوا بجواري، فقدت أربعة رفاق وأحلاما حملتها في رأسي هذا الصباح. امتقع وجهها خوفا على سلامتي وسألتني:

ـ وإيه اللي وداكم هناك؟ مش لو كنتم قاعدين في بيتكم ولا مخلوق كان لمسكم؟

أقول لها إن القتيل كان خلفي، والرصاصة مرت قربي لتستقر في صدره، أحكي عن رصاص حصدنا، فتضيق عينيها بريبة وتستمع بهدوء محام يتعرف على ثغرات في قضية خصمه.

رائحة الموت دفعتها للضغط، ويوميا تحدثني عن خطأ معارضة

السلطة فهم أدرى منا بصالح الوطن. أصرخ فيها باحتداد لتكف عن هذا الخراء، فتختتم الحوار بجملتها المفضلة:

ـ دي ديمقراطيتكم، ممنوع أقول رأيي في بيتي؟

خاطبتها أن تحدَّثي في المهم، فقالت أنت المهم. بضاعتها الجيدة باعت نفسها، فابتسمت لها قسرا، منال التي عند المنكسرة قلوبهم لأجلها ثرثرت بلطف لتخفف احتدادي. ليلتها استكنت في حضنها، ورأيت الحب بين شفتيها وهي تصالحني:

ـ حتى في غضبك كنت جميل.. لسه فاكرة شكلك وأنت بتخبط بإيدك على المكتب واحنا بنتخانق.. حتى لحظتها كنت عاجبني.. ضحكك وجدك وضيقك وعقلك.. حتى عيوبك حلوة.. أنت منزه.. كل ما فيك جميل.

٢٠١٢ دستور الإخوان منع أعضاء برلمان ٢٠١٠، الذين ينتمون لحزب مبارك من المشاركة في الانتخابات عشرة أعوام، مما أضر بعمها عزيز مصدر قوة عائلتهم.

ـ الحرية حلوة مفيش كلام.. تقول ساخرة.

ويوم مظاهرات ٣٠ يونيو ضد الإخوان نزلنا معا، دعوت الله أن يولي من يصلح، ودعت أن يولي من يقتل، تقول إنها تريد انتهاء الفوضى.

بدأت دماؤهم تسيل في الشوارع وبدأ انحطاطها يعشعش في بيتي. أتفهم خوفها من خطاب الإخوان، لكن تشفيها في قتلى رابعة والنهضة بدا مخيفا.

أكتب ضد جرائم تحدث، فيهبط سقف الحريات فوق رأسي، مكالماتي مسجلة والأمن يمنعني من السفر مرتين، فتعقب قائلة إنه ثمن منطقي للحفاظ على البلد.

احتملت كثيرا لكنها لا تحتمل. أتجنب الحديث معها في الشأن العام، ولأني أحبها لا أرد عليها بما أريد؛ فالسكوت عن جواب منال جوابها. أخرج من البيت لأنها تفتح التلفزيون، أو لأنها تعيد على مسامعي ما يردده صندوق الأكاذيب المعدني.

انتبهت منال لتسربي من يدها فاجتهدت ألا تسيء لي بالقول، لكن طاردني ما تضمر في وجهها وفلتات لسانها.

فيما بعد وبينما نسير في وسط البلد خطا بجوارنا ضابط شرطة ببذلته السوداء، ابني صعد إلى حافة الرصيف وحياه بطفولية بالتحية العسكرية.

ـ اقتلوا الخونة يا عمو.

ضحكت فخرًا بما علمت طفلنا، ثم التفتت لي كأنما تذكرت شيئا فرأت في عيني ما لم تره من قبل.

بعدها لم نعد نتحدث تقريبا، فأصبحت ترتاب من صمتي وما أفكر فيه، زاد توترها وزادت معه غيرتها وتفتيشها في أشيائي الخاصة.

تنتزعني من شرودي لتسألني فيم أفكر، فأرتبك وأشعر بأنني ارتكبت جرما أخفيه. ما أفكر فيه وحدي هو ما يبقيني إنسانا يا جميلتي، لذا فأول مرة قلت برقة كاذبا إني أفكر فيها، وفي الثانية تجاهلت كأني ما زلت شارد الذهن ولم أنتبه لسؤالها، ثم بدأت أرد بجفاء.

يزحف الصمت على حياتنا. وبينما لا يسود غرفتنا سوى أزيز عال مزعج لمصباح كهربائي أبيض قديم سألتني:

ـ بتحبني؟

ـ وحكرهك ليه؟

٢٠١٥ يوم بلغني خبر مذبحة الدفاع الجوي ضد مجموعة من

مشجعي الكرة بكيت بحرقة، عرفت أن زميلي بالموقع الذي كنت أعمل به «محمد مهدي» مختفٍ، أما منال فحدثتني عن إصابة ابننا بنزلة برد ثم قالت:

ـ الله يرحمهم.. فاكرين الناس حتهيج تاني وتضرب في الشرطة بسببهم.. لكن خلاص الناس فهمت.. بيموتوا نفسهم عشان يحرجوا الداخلية.

شتمتها لأول مرة في حياتي، فردت بقسوة تليق بما قلته، لكن الشجار بيننا لم يتصاعد، فقد عرفنا إن ابن عمها ضمن القتلى.

صدمت منال أياما، ثم سألتني ونحن عائدان من العزاء:

ـ هم صحيح كانوا داخلين الإستاد من غير تذاكر؟ ليه عملوا في نفسهم كده؟

لم أسبها هذه المرة، دخلت غرفتي وأغلقت الباب خلفي وأنا أصرخ بجنون: «لا.. لا.. لا».

لحقت بي. أجلس على الفراش بينما تقف أمامي تتحدث بالمنطق، وأنا الآن أكره أي منطق، واحتقر فكرة الحوار نفسها. طلبت مناقشتي، فقلت بصوت خفيض ويقين راسخ:

ـ مبتناقش مع سفلة منحطين يا حبيبتي.

لم تسمع وإن رأتني أحرك شفتي، وبلا أي مقدمات تمهد لإنهائي الحوار ألقيت ظهري على الفراش ثم تقلبت على جنبي وسحبت الوسادة ووضعتها فوق رأسي، فاستلقت منال إلى جواري ودفعت وجهها أمام وجهي.

ـ أنت مجنونة.. أنت حلوة ومجنونة يا بطة.

قالت منال، عيناها التي طالما عشقتها أمامي، أقسم بالله أني رأيت عيناها الرمادي سوداء لحظتها.. فهل اسودت؟

أغمضت عيني ليختفي وجهها الذي أقحمته في مجال نظري، شعرت بها تقوم من جواري، أصغي لها تنتحب في الصالة قهرا من صفاقتي. استرحت لبكائها فما دامت تتوجع إذن فأنا أعيش مع إنسانة.

نمت مطمئنا على صوت نشيجها.

٢٠١٥ ما زلت أحبها.

فررت منها إلى حبي لها، فلا ملجأ منها إلا إليها، تمسك يدي بحنان بعد شجارنا.

ـ محتاجة حضن وإنك تلعب لي في شعري لغاية ما أنام.

ضممتها بقوة معتصرا جسدها ونسيت العالم. استرحت لدقائق، رفعت رأسها نحوي وابتسمت فأشرقت ملامحها، ثم قالت وهي تمرر راحة يدها على صدري:

ـ وائل أنت ضحية فيلم فانديتا.

تجمدت يدي التي تلاصق ظهرها، وفكرت أن لعل ما ترجوه ليس بكائن ولعل ما تخشاه سوف يكون. نهضت منال من قربي وتربعت على الفراش وواصلت بحماس نظريتها عن أن أمريكا والغرب يحاولون تقسيم الوطن بشعار الحريات، لكننا شعب لا يصلح معه إلا الكرباج.

٢٠١٥ ظللت أسامحها بحب حتى لم أعد أطيقها باقتناع. والآن شقائي ليس في حبي بل في عدم احتمالي لحبي، فلم تعد مشكلتي أني أتعب نفسي لأصالحها، وإنما المشكلة أنني لم أعد أراها تستحق.

جاءني سفر في تدريب صحفي بالمغرب، فطلبت منها مرافقتي

على نفقتنا، أريد أن نكون وحدنا. رحبت منال أملا في الخروج مما تصفه فتور علاقتنا.

نتناول الإفطار في بهو الفندق بالرباط وخلفي التلفاز الذي كان بعيدا لذا فصوته لم يكن مسموعا، وجدتها تقول بغنج كما ندلل الأطفال:

ـ يا أختي عليه.. جميل والنبي جميل.

التفت خلفي فلاقيت الرئيس السيسي بزيه العسكرية على الشاشة. عدت لها بنظري لتقع عيني في عينيها، تأملتها بصمت فتشاغلت بالطعام، الغريب أنني لحظتها رأيتها فعلا بدينة.

قطعت الصمت بأن أخبرتها بتعذيب صديقي محمد مهدي في السجن بعد القبض عليه في أحداث إستاد الدفاع الجوي، فهاجمت منال التعذيب، استرحت لموقفها وإن أدهشني، لكنها تابعت ضاحكة:

ـ وليه التعذيب.. المفروض يخلصوا عليهم على طول.

ضحكت معتبرة أن ما قالته دعابة، تضحك بنفس براءتها القديمة ما أرعبني. الصمت رد أتقنه فجاوبتها بترك الجواب.

صعدنا لغرفتنا وهي في حالة مزاجية رائقة، وواصلت الغناء وهي تهز مؤخرتها بشكل كان يوما يبدو لي مثيرا.

خلال اليومين الأخيرين قبل عودتنا للقاهرة تأملتها طويلا. عيني تحيطها سواء وهي تتحدث أو حتى وهي نائمة، أنظر لها لأحفر في ذاكرتي تفاصيلها، ويبدو مشهد عيني التي لم تنزل من على جسمها راق لها، فكافأتني بأن نظرت لي بحب.

في نهار اليوم الأخير لنا بالرباط وقفنا سويا أمام المحيط الأطلنطي، بدا للحظه أزرق جميلا رائقا، لكني سرعان ما لاحظت أنه عميق وحوله جبال بحواف مدببة وموجه عالٍ بشكل مخيف.

احتضنتها طويلا أمام المحيط، بكيت في صدرها كما كنت أفعل في صدر أمي. حاولت أن تفلتني لتتكلم لكني تمسكت بها، فنظرت لي بوجد اكتشفت أنها لم تنسه.

وفي يوم رجوعنا أمسكت منال بيدي كأني طفلها الذي تاه منها واستردته، بدت فرحانة وهي تضحك مع كل من في المطار، عادت لمرح غاب عنها لأشهر.

تقعد بجانبي بالطائرة، تقرأ في جريدة الأهرام باهتمام لا يليق بالتفاهات المكتوبة، يدها ربتت على يدي فارتعشت. تمكن الألم حتى إن ربتتها الحانية على يدي أضحت تؤلمني.

نظرت إلى الأسفل، تتداخل الأفكار والمشاعر، رفعت رأسي ببطء وفارقت نفسي بخطوة وقلت بصوت غريب عني:

ـ منال أنا مش قادر أستحمل.. بحبك لكن مش قادر أستحملك.

نظرت لي بعدم فهم، فاستصغرت ما دون النهاية وقلت:

ـ أنا عايز نتطلق.

عدم الفهم انقلب لشراسة فألقت يدي بعيدا، حاولت منال التكلم لكنها تهتهت من الصدمة والشعور بالخديعة، اختنق صوتها فسكتت وتطلعت للفراغ خلف شباك الطائرة. ظلت هكذا لدقائق ثم التفتت لي بغل وفتحت فمها وقالت كلاما لم أنتبه له، لكني أخمن من تعبيرات وجهها لحظتها الذي أذكره جيدا أنه كان مهينا.

بعد أيام تطلقنا.

٢٠١٥ الحنين قبر..

أحبب منال فإنك مفارقها، رأيت اللابتوب وعليه صورتها فقبلته بحب وابتسمت.

ولأن الحياة حزينة بشكل عام باتت فتاتي محال، فمتى يعود كل شيء كما كان رائعا؟

الغريب أن تذكرها أجمل من البقاء معها، الآن أشتاق لرائحتها.. اشتريت زجاجة من عطرها المفضل ووضعتها على مكتبي لأشمه كلما تسلل خاطرها.

اكتشفت أني أعرف ملمس كل منحنى في وجهها، أستعيد ملامحها فأبتسم لحسنها وأقرا ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

مريم شعلان

٢٠٠١ مريم بنت خالتي عفاف ارتدت النقاب.

طالبة الصف الثالث الثانوي فعلتها أيام الامتحانات. الغريب أنها لا تحافظ على الصلاة، فأخوها الأكبر محمود شعلان عضو الإخوان بح صوته من تذكيرها بالاستجابة للأذان وهي لا تهتم.

بدت خالتي ساخطة، لأن بنتها اكتست بما تسميه خيمة سوداء، تقول لها:

ـ والعريس يعرف إزاي أنك بنت أصلا؟ ما احتمال تكوني رجل مستخبي في الخيمة اللي أنت لابساها دي.

أوصتني خالتي بإقناع مريم بخلعه، فهي تعرف بصداقتنا.

بينما أتمشى مع مريم في ميدان السيدة زينب، أخبرتها بما طلب مني لكني أكدت لها أنني سأدعمها في اختيارها.

ـ أعظم إحساس في الكون شعوري دلوقت وأنا بالنقاب.

تصورتها تتحدث عن مشاعر إيمانية، لكنها أضافت:

ـ أنا عارفة فلانة وعارفة فلانة.. أسلم ولا أتجاهل.. القصة كلها من اختياري أنا.. أنا حرة.. كأني لبست طاقية الإخفاء.

ابتسمت مكتشفا شعورا خفيا بالقوة، فأضافت مفسرة:

ـ من أسبوع وقفت جنب بنات من المدرسة عندنا.. سمعت منهم كلام زفت عن واحدة صاحبتي.. كان نفسي أقف كمان يمكن يتكلموا عني.

فندت كلامها بحجج لا أذكرها، لكني أذكر أنني قطعت كلامي

وطلبت منها بعصبية أن ترد إن كانت توافقني الرأي، فما ترتديه يعيقني عن استشفاف ردود فعلها أو معنى صمتها.

ـ وهو المطلوب إثباته.

قالتها وضحكت كأنما راقت لها اللعبة، لكنها لم تستمتع بها كثيرا. فتحت ضغوط أمها هددها محمود أخوها بأنه لن يسمح لها بخلع النقاب حتى إذا أرادت حال التحاقها بالجامعة وهي ترتديه، فليس من اللائق أن تسير سافرة فتكون فريسة لفضول الطلبة لوجهها الذي سبق أن حجب عنهم بالنقاب.

بكت وخلعته قبل أول يوم دراسي، وبعد شهر واحد أصبحت تزين وجهها بمساحيق التجميل.

وعاد أخوها للشجار معها حول ملابسها الضيقة.

٢٠٠٢ أتحدث معها هاتفيا على المحمول، قاطعتني قائلة: «ثانية واحدة» وسمعت صخب صراخها «دي أمك اللي سحلية».

ثم واصلت معي بنفس النبرة الهادئة كأنما لم تكن تصرخ حالا «أيوه.. معك يا وائل».

فهمت أن شابا تحرش بها وسخر من نحافتها الشديدة. ففي العائلة يسمونها «البرص»، وأخوها محمود يسجلها على هاتفه المحمول «مريم ٤٢» وهو وزنها بالكيلو جرام. ولقطع الطريق على استهزائهم تسخر هي من نفسها بأن هناك حضارات وثنيّة قديمة البرص كان عندهم إله.

ولكنها توقفت عن السخرية من نفسها حين بدأت تهتم بصديقنا أحمد ماحي. فمنذ الأسابيع الأولى لها في كليتها «علوم القاهرة»

وظهورها المكثف ملاحظ في كليتنا «آداب القاهرة»، ففور أن أجتمع أنا أو أخوها محمود مع ماحي تظهر لنا فجأة من عدم.

ارتبت ونهرتها، فلا يمكن أن تحدثك بنت خالتك وهي تنظر لصديقك إلا إن كان هناك شيء ما.

ثم رأيتها عند المظاهرة.

كانت مسيرة من الآلاف للتضامن مع الانتفاضة الفلسطينية يتقدمها ماحي ممسكا بالميكرفون بحماس وينتفض وهو يهتف: «يا أقصانا لا تهتم.. راح نفديك بالروح والدم»، بينما مريم واقفة مع الطلبة الذين يشاهدون المسيرة وعينيها مسلطه عليه.

الأمن ألقى غازات مسيلة للدموع على مقدمة المسيرة، ارتبك الطلبة وتوقفوا عن ترديد الهتافات وأغلبهم استخدم مناديل للوقاية من الغاز.

ـ الناس تشيل المناديل من على وشهم.. مش حنجاهد بمناديل على وشنا.

صرخ ماحي، ثم رمى الميكروفون بعيدا باستهانة وهتف بحنجرته وحدها، صوته القوي بلغ أقصى المسيرة، ألمح مريم تنضم للمظاهرة ونظرتها لا تفارقه، أيقنت يومها أنها تحبه، لذا لم أندهش عندما رأيت على حائط غرفتها ملصقا ضخما للممثل هاني سلامة، فهو يشبه ماحي.

تصورت الحكاية انتهت بعد القبض على أخيها محمود شعلان، لكن ماحي ناولني خطابا استلمه منها بعد المسيرة.

«جزاك الله خيرا على كل هتاف قلته بإخلاص لله.. عندي لك سؤال.. إن كانت فتاة مسلمة تحب شابا متدينا هل من حقها أن تظهر حبها له؟ مع العلم أن هذا الشاب متدين مثلك ولا يعرف أنها تحبه».

أراد أن أكون في الصورة. يبحث عن عروس ويعتقد أن مريم مناسبة، تحبه وأخوها وخالها من «الملتزمين»، وهي ميزة. قال إنه سيتقدم لخطبتها رسميا فور انتهاء العام الدراسي. وقبل أن أسأله هل رد على رسالتها قال إنه طلب لقاءها أمام المبنى الجديد واستأذنها أن ذلك سيكون بحضوري.

لم يعجبني دور المحرم، وضايقني تعريهم عاطفيا أمامي، لكنها اتصلت بي وقالت إنها تريدني معها لحين خروج محمود أخيها من السجن، فبدون ذلك لن تستطيع مقابلته.

رضخت بتذمر، وقبل أن ننهي المكالمة همست لأنها تتكلم عنه:

ـ لو أنا ما اتكلمتش.. عمره ما كان اتكلم.

اجتمعا عند حديقة الساعة التي تتوسط كليتي علوم وآداب. مريم تعرف القواعد، احتفظت بمسافة مناسبة ولم تمد يدها مصافحة.

بكلمات قليلة قال ماحي جملا مبتورة عن نيته الزواج فور إنهائه عامه الدراسي الأخير وخروج محمود من الحبس، ثم تبادلا البريد الإلكتروني وودعها بعبارات رسمية مهذبة.

أضافوني في رسائلهما الإلكترونية لتكون علاقتهما في النور.. وكنت النور.

٢٠٠٣ حين أزور مريم أعرفها عندما تكتب له الرسائل، تتربع وتتحفز أمام الكمبيوتر بابتسامة بلهاء وعيون تلمع في انتظار الرد.

تصلني رسائلهما على بريدي الإلكتروني فأتجاهلها، اثنان يحبان بعضهما فما دخلي بتفاصيل كلامهما.. هذا سمج. التزمت بذلك لفترة ثم حثني الفضول لأقرأها كلها دفعة واحدة.

«السلام عليكم يا مريم.. ربنا يجمعنا في ظل طاعته قريبا.. عايزك تتعرفي على الأخوات، لأني متأكد أنك استحالة تفهمي دماغ أحمد ماحي إلا أما تكوني واحدة منهن.. بالنسبة لشخصيتي دعوتي أهم من الدنيا وما فيها.. عيبي العناد، وعشان كده الطاعة أهم شرط في زوجتي بعد الدين.. ادعي لي».

«سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. الأخ الكريم.. بالنسبة للأخوات تعرفت عليهن في مسجد الكلية لكني أشعر بحرصهن الشديد كي لا يفصحوا عن أي شيء.. سرية تامة.. لكن إن شاء الله حاقرب منهم وأفهمهم طالما أنها لدين الله.. أنت اتعرفت على الإخوة من وأنت في أولى إعدادي، وده ساعدك على الاستقامة، لكن أنا اتأخرت كتير وأخويا مكانش بيفهمني.. كان بيزعق لي وبس، كأن الحكاية هي الشعرتين اللي خارجين من الطرحة، مش إني بعيدة عن رحمة خالق الكون.. إن شاء الله حبدأ أحفظ القرآن.. بقول لك عشان تتابعني.. أكره أن يشعرني أحد بأني أقل منه في شيء بالذات في الدين، وحصلت معي من أخت وسأثبت لها أني لست أقل منها في شيء.. وان كنت حتقدم روحك لله فأنت مش أفضل مني، فجسدي وروحي فداء لدين الله.. وإذا كنت عصبي فأنا صبورة جدًّا، وبالنسبة للطاعة دي أمر من الله.. على فكرة أخويا حيفرح جدًّا.. طلب مني كتير أني أتعرف على الأخوات لكن أنت أقنعتني».

«السلام عليكم يا مريم.. فرحت جدًّا بكلامك عن تعرفك

على الأخوات وبكلامك عن واجب الطاعة في الإسلام.. الأخوات أقدر على مساعدتك لأن مقابلاتنا حتكون محدودة زي ما اتفقنا.. حبعت لك من خلال وائل ابن خالتك أسطوانات كمبيوتر فيها دروس لعمرو خالد عن حب الله، وأسطوانات للشيخ عمر عبد الكافي عن الدار الآخرة، اسمعي منها درسا كل يوم مثلا».

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا ماحي.. الحمد لله أنا الآن أفضل من أي وقت.. الإنسان لما يرضي ربه ويتوكل عليه بيكون فرحان على طول.. صحيح كنت أريد أن أسألك ما موقف الدين من الحب، خاصة إن مش كل الناس تقدر تضبط نفسها؟ أنا خايفة عليك.. الواحد أما بيحصل معه شيء يفرحه بيخاف يروح.. بالنسبة للصحبة الطيبة الحمد لله بدأت أقعد جلسة منتظمة مع الأخوات.. بارك لي بقيت أخت وبحاول أكون رقيبة على نفسي.. أمنيتي أكون مريم جديدة.. حفظك الله».

تبدلت مريم. تكلفت الأفعال الصادرة عن الملتزمين دينيا ابتداء فصار التزامها خلقا انتهاء. تحرص على حضور دروس عمرو خالد في مسجد الحصري بانتظام، وأبدلت حجابها القصير بخمار طويل. عدلت اسم ماحي على هاتفها المحمول من حبيبي إلى قرة عيني، وحين توقفت رسائله خلال امتحاناتها أرسلت هي له:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا ماحي.. بالنسبة لعلاقتي مع الله.. الحمد لله كل ما أحس أني حرجع يرسل لي رسائل تقول لي أكمل.. الامتحان كان كويس بفضل كل الناس اللي دعت لي.. يا رب تكون منهم.. أنت معلمي

وفعلا نفسي تكون جنبي على طول.. إحساسي أنك جزء مني موجود على الأرض وربنا جمعني بك.. خوفي كله إني أكون في حلم لو لم يتحقق يكسرني.. ربنا يرزقني حنان منك.. محتاجة للعلم أكثر في الدين كي لا أصبح ماشية مع الماشي أردد وفقط.. ادعي لي، ولا مش ناوي تصحبني معك في الجنة وعينك على الحور العين.. خد بالك من نفسك.. إلى اللقاء بأمر الله أما محمود أخويا ربنا يفك أسره.. أتمنى تقرأ هذه الرسالة بقلبك».

سارت مريم على الدرب ولم تصل، لاحظت إهماله لها لسبب لا تعلمه وكنت أعلمه، فأرسلت له:

«إلى من أهمل قلبي القلق عليه.. إلى من فشل قلبي أن يدخل السرور إلى قلبه.. قول لي عملت إيه عشان أطمئن وأعرف أذاكر.. أي حاجة عملتها سامحني عليها».

أعرف علة تغيره ولا أخبرها، أحمل هما ثقيلا.

أهدته مريم مصحفا أنيقا من خلالي لعله يلين، لكن رسالتها الأخيرة كشفت أنه لم يفعل.

«الله يسامحك فعلا يا ماحي.. قول لي أي سبب ولو جبر خاطر».

لو يدري ما تلقاه من شجن، هل كان سيفعل؟

لم تتبادل معه كلمات حب، فالفتيات لا تتبادل كلمات حب مع الملائكة، لكنها تثق بأنه يحبها، لذا انهارت عندما أنهى العلاقة فور انتهائها من امتحانات السنة الثانية بكلية العلوم، معتذرا بأنه غير جاهز ماليا وبارتباك خططه لاحتمالية التحاقه بالجيش بعد التخرج.

انفصلا، اختفى، وليقطع وسيلة الاتصال بينهما ألغى بريده الإلكتروني.

٢٠٠٤ بعدها بدت كما هي، لكنها أطلال بشر.

صارت رزينة دائما، باتت أكثر نضجا وأقل مرحا، تهدمت ملامحها كأنما كبرت عشرين سنة فجأة.

انشغلت مريم بالاجتهاد في العبادات، فأرى فوق مكتبها ورد المحاسبة اليومي الذي تراجع فيه انتظامها في قراءة القرآن وقيام الليل وصلاة الفجر.

فيما بعد انهال العرسان عليها، فهي زوجة مثالية، لا تكلم أولادا، وحجابها طويل، وتحفظ ثلث القرآن الكريم.

تقدم لها صديق لمحمود أخيها، سألت مريم عنه فعرفت أنه قريب من الإخوان لكنه ليس عضوا بالتنظيم.

ـ أنا لا يمكن أرتبط بإنسان إخوانه شايفينه لا يستحق أنه يكون أخ.. إزاي ائتمنه على نفسي واللي عارفينه لا يأتمنوه على دعوة ربنا؟

لكن مسئولتها في الأخوات نصحتها بالقبول حرصا على مستقبلها، أما أمها فضغطت عليها لتذعن.

ـ ده بدل ما تحمدي ربنا إن أخيرا بني آدم محترم اتقدم لك يا مسلوعة.

تزوجا، ومضت حياتهما مستقرة، باستثناء عدم تقبله انشغالها بمشاكل الأخوات صغيرات السن المسئولة عنهن، أو تذمره من خروجها مرتين أسبوعيا للقاء أخواتها.

أو هذا ما تصورته.

٢٠١٣ اتصلت بي خالتي تستغيث أن بنتها ستخرب بيتها، فزوجها غاضب من اصطحابها أبناءه لاعتصام رابعة العدوية رغم تهديدات الفض.

كان الزوج طرح مشاركة مريم في الجمع المزدحمة، فالأمن لا يتعرض للمليونيات، خالتي قالت إن الاقتراح يحفظ حق ابنتها في النزول للاعتصام ويطمئن الزوج. رحت لمريم اعتصام رابعة بناء على طلب خالتي، بدت مريم غير مرتاحة للاقتراح وقالت إن تحكيم شرع الله ليس تزجية وقت فراغ في الجمع والإجازات، لكنها جمعت أشياءها من الخيمة بقهر، ثم توقفت فجأة والتفتت لي قائلة إنها ستحسم أمرها بسؤال الشيخ.

ما أن انتهى الشيخ من درسه في مسجد رابعة، حتى طلبت منه الكلمة وقالت له: زوجي يخيرني بين الاعتصام والطلاق.

ـ إذن يعوضك الله خيرا منه.. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. مش جايين نهزر.. إحنا في جهاد واجب على الجميع.

صدمت مما قاله لها، وفور خروجنا من المسجد جريت عليها لأقنعها بأن تتريث قبل اتخاذ قرار نهائي، لحقتها وألححت لكنها بشت لي مطمئنة وعلى وجهها سلام نفسي لم أشهده في حياتي، ثم اتصلت بزوجها وأخبرته بكلام الشيخ، وصفها بالمجنونة وطلقها في التليفون وتوعدها أنه سينتزع أولاده بالعافية أو بالمحكمة.

احتضنتها أخواتها بحب، لم تبك مريم وبدت جامدة هادئة مطمئنة.

والآن، كلما مرت مريم بخاطري يحضرني مشهدها وهي تضم ابنها في اعتصام رابعة وتردد بيقين:

ـ هي لله.. هي لله.

أحمد ماحي

٢٠١٦ ظلي بجواري نهارا، وأنا بجوار ماحي ليلا ونهارا.

ما بيننا؟ المذاكرة في بيتي التي تتحول لسهرات نلعب خلالها لعبة الحرب «ريد أليرت» الإستراتيجية، رحلات الإسكندرية حيث شقة خالته بالمعمورة، سلم قسم جغرافيا الذي جلست عليه أكثر ما جلست على سلم قسمي، حتى تصور أغلب زملائه أنني طالب معهم، إقناعه لي بشراء أول جهاز كمبيوتر وتعليمي كيف أكتب على برنامج « ميكروسوفت ورد»، حلمنا بافتتاح مشروع تجاري، والذي صرفنا النظر عنه لأننا نسيناه.

هو الأقرب لقلبي لسنوات، أحكي له مشكلتي فيسألني: «طيب.. واحنا حنعمل إيه؟».

هذا ما أذكره عن الشخص الذي مر أمامي بالأمس، فتعمدت النظر لهاتفي المحمول مدعيا أنني غير منتبه.

٢٠٠٠ إذا سألت أي طالب في أسبوعه الأول عن شكل طلبة الإخوان الذين يتوقع رؤيتهم في الجامعة فسيجيبك بأن طلبتهم متجهمون بلحى طويلة وجلاليب بيضاء.

لكن الحقيقة أنهم كانوا أروع من هذا.. كانوا أحمد ماحي.

فور التحاقي بالجامعة عرفته من خلال ابن خالتي محمود شعلان. في أول أسبوع دراسي دخل مدرجنا ليتكلم مع الطلبة قبل وصول الدكتور للمحاضرة. ألمحه يتمتم بدعاء لنفسه قبل أن ينظر لأعين

الطلبة بثقة، ثم يقرأ آيات قرآنية مناسبة لموضوع حديثه ليضمن التزام الحضور بالصمت وتوقفهم عن الكلام الجانبي احتراما للقرآن، ثم يستهل كلمته التي كانت خليطا من مبادئ التنمية البشرية وكلام مبهج عن الابتسام في وجه الآخرين.

بعد الكلمة رأيت الطالبات يسألنه عن حكم علاقاتهن العاطفية، وشابا أمريكيا يدرس اللغة العربية بالجامعة يناقشه باعتباره الممثل الشرعي لثقافتنا. فماحي الطالب الأشهر، هو وابتسامته محبوبان، يقدم مع طلبة الإخوان أعمالا خدمية للطلبة كجداول المحاضرات وملازم امتحانات السنوات الماضية.

انغمست مع ماحي الذي أصبح سريعا صديقي الأقرب، وكذلك مع شعلان ابن خالتي في حملات ضد التدخين والزواج العرفي، نضع في كل مبنى بالكلية لافتة باسم المبنى وتحتها جملة عن الصلاة أو الحجاب، يقول لي:

ـ أما تسقط الأنظمة بأي شكل.. احنا اللي حنحكم.. الإسلاميين.. الناس مؤمنة بالإسلام، وقناعتي بأن الإسلام قادم توازي قناعتي بأن الله موجود.

٢٠٠٢ ماحي لم يحب أي بنت حتى سن الـ ٢٢ عاما، فقد اعتبر الأمر تفاهة تلهي عن العمل السياسي. وأول انشغال حقيقي له بأنثى كان اهتمامه باهتمام مريم شعلان به.

ظهرت مريم وهو يبحث عن عروس في آخر سنوات دراسته الجامعية، تركها تحبه فتصورت أنهما أحباء، انشغل بحنانها لأشهر حتى تم تصعيده ليكون نائب مسئول الكلية وكلف بأن يكون حلقة الوصل بين الإخوة والأخوات.

كان هناك حوار قصير شبه يومي يدور بين رباعي الأخ مسئول الكلية محمود شعلان ونائبه ماحي من جهة، وبين الأخت مسئولة الكلية ونائبتها من جهة أخرى، للتنسيق وللحديث حول مشكلة الأخت التي سحبت بطاقتها الجامعية في أثناء تعليقها اللوحات، أو لإعطائهم الملصقات التي يطبعها الأولاد، وحين كثرت اللقاءات مع الأخت المسئولة اكتشف شيئا.

ـ مريم رفيعة جدًّا.. ومن غير أي تضاريس حريمي.. عود قصب راشق فيه زيتونة. بصراحة يا صاحبي جسمها مش مقنع كأنثى، فننهي وفورا أحسن مليون مرة من أننا نتعس بعض، وأحسن من الطلاق قدام.

توقف عن الرد على رسائلها، وفور انتهاء امتحاناتها أخبرها برغبته في الانفصال، وبسرعة تزوج الأخت مسئولة الكلية ليكون أكثر من عرفت استقرارا في حياتهم الزوجية، قال إن الاجتماع على طاعة يذيب المشاكل، فماحي يتابع زوجته يوميا على الحفاظ على ورد يومي من القرآن، ويحرصان على صلاة الفجر سويا.

استمرت صداقتنا بعد التخرج، وخلال اعتصام يناير ٢٠١١ بالتحرير كنت ألجأ لخيمته التي عمرها إخوان حيه بالجبن والخبز والحلويات، لكنه عقب اشتباكات شارع محمد محمود ضد المجلس العسكري صادفني أحمل في يدي كتابا فسألني ماذا أقرأ وقبل أن أجيبه بادرني:

ـ أكيد رواية مائة عام من العزلة.

ضحك وحده على سخريته من أننا وحدنا، ثم حدثني عن أن الإسلاميين في طريقهم لحكم مصر وتونس وليبيا واليمن وسوريا وإقامة الخلافة بموجب الربيع العربي، فالناس يحبونهم

وسيتخبونهم، جاء اللقاء عقب فوزهم في الانتخابات، فقال إن الأهلي لا يخسر الدوري وكذلك هم لا يخسرون الجماهير، بدا لي أن ما يقوله مجرد مناوشات سياسية مفهومة، لكن الأمر تطور عندما دشن في الذكرى الأولى لرحيل مبارك وخلال حكم المجلس العسكري حملة «شغلني مكانه» للرد على دعوة من أسماهم «مؤيدي يناير المزيفين» للعصيان المدني ضد المجلس العسكري، فكتب مخاطبا الجيش: «هناك طابور طويل من الكفاءات لشرفاء عاطلين.. نهيب بكم فصل كل من يشارك بالعصيان المدني بالشركات والمصانع واستبدالهم بمن يستحق».

وكل متوقع آت..

٢٠١٢ علمت بنزول الإخوان للاتحادية حين كتب ماحي على صفحته على فيسبوك أن حركة حماس حسمت في ٢٠٠٦ ونحن سنحسم في ٢٠١٢. ليلتها احتشدت مليونية ضد الإعلان الدستوري للرئيس محمد مرسي وبقي منها بضع مئات للاعتصام.

عقب بدء الاشتباكات بين الإخوان من جهة ومن بقي من مليونية الأمس اتصل بي ماحي، قال إنهم يحتاجون لاستيعاب من ضدهم، وما مطالبهم لحقن الدماء، عرضت التوسط بينهم وبين النشطاء الفاعلين، فقال لي صاحبي وهو يحاورني:

- حنستفاد إيه من الكلام مع النشطاء؟ تعرف اللي بيدوروا على الأرض.

- أنا صحفي.. يعني أنا أعرف.

في الطريق للاتحادية أرى على جانبي الطريق أتوبيسات تحمل الإخوة القادمين من الريف تتعرض للتكسير، وشبابا يقطعون جذوع

شجر لاستخدامها كهراوات، وآخرين يكسرون حجارة الرصيف لاستخدامها في التراشق.

موقف الإخوان حرج، فالقتال خارج أرضهم وسكان مصر الجديدة يكرهونهم، فتاهت تكبيراتهم في أرض لا تطيقهم.

وصلت إلى أشرف جاري وسائق الميكروباص الذي يتصدر كعادته الاشتباكات، ويقود مجموعات من شباب حينا، بدا غير مكترث باللقاء فشجعته بأن ماحي النافذ بالتنظيم وعدني بأنهم سينسحبون حقنا للدماء.

ـ ضامنهم؟

طمأنته أن ماحي صديق طفولتي، ثم سلمته لهم، ليس هناك أي توصيف أخر لما فعلته.

٢٠١٢ هل أعطيته أشرف أم منحته حبلا ليشنق صداقتنا؟

اتصل بي محمود شعلان ابن خالتي ليستفسر مني عن بلطجي أمسكه الإخوة يستنجد بي، وأرسل لي صورته عبر المحمول.

أطل من الصورة وجه متورم وعينان غاصتا في اللحم ويد مكسورة متدلية وأنف هو قطعه دماء جمدها برد ديسمبر، فخمنت أن ذلك الشيء كان أشرف.

أطلت النظر في الصورة مأخوذا، أشعر بضآلة لم أحس بها يوما، صح مني الود فرآني ماحي هينا.

ـ يا وائل البوليس باعونا.. إحنا مكان الأمن دلوقت ومضطرين والله.. لولا نزولنا كان زمانهم سحبوا الرئيس وجروه من رجله في الشوارع.

قالها لي فور أن أبصر هياجي أمامه، أشار إلى جموع المتظاهرين

في الجانب الآخر الذي أتيت منه وقال إن الإسلام يشن عليه حربا، لم يقل أنني من أشنها.. فيه الخير والله.

سألته عن أشرف، وكما الملاكمة حرك يده اليسرى وضرب باليمنى فأجاب:

ـ يلزمك؟ بعيل وسخ متأجر بجنيهات واعترف لنا.. ولا أنت معاهم يا وائل؟

أذاه ورجا ثواب الله، فهمت ذلك حين حدثني عن تدين الرئيس وتدين أتباعه، فأعرضت عنه وتواصلت مع خالي أسامة عودة القيادي بتنظيم الإخوان لكنه كان منشغلا فلم يرد. عدت للماحي فلاقيته التفت عني ليتابع تفاصيل أخرى مع إخوانه فارتفع الدم في رأسي.

ـ الولد فين يا ماحي الكلب؟

ـ كلب؟ الكلاب هم أصحابك.. المخنثين والعاهرات اللي مسكناهم بيمارسوا عمليات جنسية كاملة في خيم الاعتصام قدام القصر الجمهوري.. ده غير الواقي الذكري والخمور والحشيش اللي لقيناه معاهم.

غرست عيني في وجهه المتبجح، وكبرت على صداقتنا الفقيدة أربع تكبيرات، وقلت:

ـ أنتم أنجاس يا ماحي.

ـ مش أنا اللي عملت فيه كده.. أنا سلمته لأهل الاختصاص، ولو اعترف بالذوق كانوا ضربوه قلمين والقصة خلصت. لكن هو عاند.. ثم اتق الله وكفاية تعميم وشتيمة في ناس محترمة.

ـ اتفقنا.. نحدد.. أنت بالذات ابن قحبة يا ماحي.

ـ بتشتمني؟ بتشتمني أنا يا وائل بأمي؟ عشان بلطجي؟

ـ آه.. وبقول إنك أقذر خلق الله.. دي مش شتيمة أنت فعلا كده.. والولد حيخرج غصب عن عين أهلك.

بهت، فتح فمه ليصدر صوتًا فلم يخرج إلا الهواء من اثر الصدمة. حذرته أنه يهد نظامهم الوليد فقال بتكبر من يجد مهانة في نفسه:

ـ بتهددنا بالسجن يعني يا وائل؟ اصحى يا بني إحنا اللي بنحكم وإحنا اللي بنسجن، انتم اللي لازم تخافوا.

لم أبادله كلمة، فقد قال لي «أنتم»، وصاحبك الذي يقول لك «أنتم» لم يعد صاحبك. نظرت لعينيه بثبات للحظة، ولأن الاحتقار ما وقر في القلب وصدقه العمل غادرته دون سلام.

٢٠١٣ حينما هددته بضياع متوقع لكل شيء، قال لي موتوا بغيظكم. تحرك الجيش في ٣ يوليو فعاش هو بغيظه. فماحي الذي طالما أراد النزول للناس لإقناعهم بأفكار التنظيم صدم كثيرا عندما صعد الناس لمنزل عائلته الإخوانية في قريتهم ليحرقوه.

بعد هذه الحادثة التي أعقبت هياج الدعوة لتفويض القوات المسلحة لمواجهة الإرهاب المحتمل، بعث لي رسالة نصية «أنا مسامحك»، لدقائق نظرت بعدم فهم للرسالة، هو من سامحني؟ سامحني؟

وبعدها بيومين زارني في المنزل دون موعد. هذه أول مرة أراه من يوم الاتحادية، أربكني ظهوره فلم أعد أحمل له مشاعر حب ولا كراهية.

أتى ومعه أسطوانة لعبة «فيفا»، كتلك التي اعتدنا أن نلعبها. كانت لفتة لطيفة لكني لا أقبل سوى اعتذار يبدأ بالاعتراف بالخطأ.

ـ شعب سلبي قعدنا نحرك فيه سنين، وأول ما يتحرك يطلع يقتلنا.. تصدق؟

قال ماحي، ثم تحدث بحميمية عن سوء الأوضاع متعمدا المزاح وكأن شيئا بيننا لم يحدث فشككت أن قلبه أصيب بالزهايمر واكتفيت بردود معدنية. لعن الظروف التي تقف ضدهم فلعنت حماقته، قال إن الناس تخاف السيسي لذلك لا يشاركون في مظاهرات رابعة، ففتحت الكمبيوتر وأريته فيديو لمظاهرات ٣٠ يونيو في التحرير والاتحادية.

كان يمسك بكوب شاي فتجمد في يده طوال سبع دقائق هي مدة الفيديو، لم يرفعه لفمه ليشرب ولا وضعه بجواره، وجهه ارتسم عليه مزيج من الدهشة والذعر وعدم الفهم والانزعاج.

ـ كنت عارف أنكم أكتر مننا.. لكن الأعداد دي.. الأعداد دي.

صمت كأنما لا يريد أن يتابع، سقطت يداه في حجره وبدا وكأنما لا يقوى على تحريكهما، وببطء أعاد تشغيل الفيديو لكنه لم يكمله هذه المرة، نهض مشتكيا من إرهاق مفاجئ وانصرف.

٢٠١٣ مع تنامي الحديث عن فض رابعة استشعرت أن واجبي مساندته، ولأننا في شهر رمضان اجتمعنا مع أصدقائي القدامى بالجامعة: محمود شعلان وإسماعيل صلاح بمطعم جاد بمدينة نصر للسحور، كان ماحي الوحيد بينهم شبه المقيم بالاعتصام، فالفتى لم يره التنظيم أبدا حيث نهاه ولم يفقده حيث أمره، تحدث معهم ماحي حول مظاهر كونها حربا على الإسلام ثم التفت نحوي وحدثني عن أنها حرب على الديمقراطية.

دعوته يومها للجوء لمنزلي حال فض الاعتصام، فبيتي آمن فلست إخوانيا ولم أكن.

لم يتصل يوم فض رابعة، لكنه فعل في اليوم التالي، أتتني استغاثته وهو يطالبني بأن أنتظره أسفل كوبري ١٥ مايو حيث مظاهراتهم محاصرة فوقه، بدا صوته مرتبكا فأدركت حجم المأزق الذي يعانيه.

الطرق خالية بسبب الاضطرابات، لذا فخلال دقائق وصلت للكوبري. المشهد بدا مرعبا، فالمتظاهرون يقفزون في الفراغ من فوق الكوبري فرارا من فوهات بنادق تحاصرهم على جانبي الكوبري، وبالأسفل مجموعة من أنصار محمد مرسي يجمعون جثث قتلاهم على سيارة نصف نقل بيضاء كأنهم ذبائح، عشرات القتلى تم تصفيتهم في دقائق، فأتطلع بهلع لوجوه الجثث خشية أن يكون ماحي بينهم.

لكنه نجا. اتصل بي ثانية وقال إنه وصل بشكل ما إلى المظاهرة التي ستعتصم بميدان رمسيس. لحقت به وهناك شممت الدخان ورأيت الكراهية. حولي سكان يطلون من الشرفات ويشيرون للأمن على أماكن اختباء المتظاهرين بمداخل البنايات السكنية أو يلقون تجمعاتهم بالمياه القذرة، بينما يرد أنصار محمد مرسي على السكان بالحجارة.

رأيت امرأة أربعينية محجبة تمسك شابا بلحية خفيفة في العشرينيات وتجذبه من قميصه أمام بناية منزل وتهلل أن «المكفراتي» أراد الاحتماء بمنزلها، في حين رجل يهوى بيديه بغل على قفا أحد المتظاهرين قبل أن يسلمه للجيش، بينما متظاهر آخر يجري وجموع هائلة تجري وراءه.

ملحمة استبسال غرائبية لمنع أن تجثم المظاهرة بالميدان وتتحول لاعتصام. الحماس مرعب، والمصاحف التي ترتفع في وجه الأهالي لإيقاف عنفهم تثير لوثتهم أكثر، فأسمع:

- إحنا مسلمين أحسن منكم يا خونة.

الهتاف الهستيري «خونة.. خونة» يغطي على أصوات إطلاق الرصاص، ووسط وجوه غاضبة وعيون مترصدة، طلع ماحي من مسجد

الفتح قبل حصاره بدقائق، يفتح الزر الأخير للقميص ويضع سيجارة اشتراها لتوه في فمه كي لا يتعرف عليه الأهالي ويسلموه للجيش.

فتح باب سيارتي وقبع إلى جواري، وفي وجهه مرارة الانسحاب، ومرارة الدم، ومرارة إخباره القادمين للدعم بحتمية أن يولوا مدبرين من حشود أكبر منهم يحملون أعلام مصر في مواجهة مصاحفهم.

لحق به إسماعيل صلاح وشخص ثالث، فقال الذي لا أعرفه:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل.. ١٦ عربية كلهم رفضوا نركب معهم، ومنهم سبعة شتمونا أو دعوا ربنا أن يتقبض علينا.. والصنف الأخير أكتر ناس تجننك، بيغيروا بقلبهم لأن ذلك أضعف الإيمان.. الأنجاس.

هززت رأسي بلا معنى وسألت ماحي عن البقية ممن قال إنه سيأتي بهم للمبيت عندي.

ـ كلهم استشهدوا.

قالها بنبرة غريبة كأنه يلقي خبرا لا يعنيه في نشرة الأخبار، ثم حرك رأسه باتجاه نافذة السيارة متأملا مشهد ضابط الجيش يطلق الرصاص في الهواء ليبعد معارضين للإخوان عن ملتحٍ أمسكوا به وانهالوا عليه ضربا.

٢٠١٤ لم تشق المذبحة جسده لكن شقت ردود فعل الناس عليها روحه، استمر في التظاهر اليائس في منطقته وسط من أسماهم سكان تل أبيب، لكراهيتهم الكبيرة لأي فعاليات ينظمها أنصار مرسي.

آخر مرة رأيت ماحي كانت عندما قدم ثانية إلى بيتي، جلبت له عصير الليمون الذي يحبه وتبادلنا عبارات في الشأن العام فبدا يائسا محبطا.

استرخى على مقعده صامتا للحظات، ثم لاقيته يمثل التدخين بضم السبابة والوسطي وتقريبهما ناحية الفم، وسحب بعض الأنفاس للداخل وإخراجها.

ـ خسارة صحتك.

قلتها مازحا بلهجة تفتعل الجدية، ابتسم وأشعل لي سيجارة بنفس الطريقة، فواصلت مداعبا:

ـ التدخين ممنوع في البيت.. هنا المكان ضيق ومقفول.

ألح، فتناولت منه اللاشيء وأخذت أمثل بدوري شرب سيجارة وهمية.

استمررنا هكذا لثواني، ضحكنا، ثم انقطعت ضحكتي وحدها فجأة دون قرار مني بأن أفعل فاستكمل الضحك وحده. التقت أعيننا فرأيت في وجهه ودا حقيقيا، ضايقني أنني لم أعد قادرا على أن أبادله إياه، عاملته بشكل رسمي أدرك معه موقعه عندي، بدت نظراته غير مستقرة فعلمت أن قلبه كذلك، قال بحب:

ـ أنا أتمنى إني أستوعب سبب القطيعة النفسية من جهتك.. قلت لك يا وائل إني خلاص سامحتك.

ولأن عتاب ماحي اجتنابه، هززت له رأسي بتفهم، ابتسمت بتهذيب، تأملته متظاهرا بالتفهم، انصرفت عنه بوجهي بهدوء، وسكت.

طال الصمت بيننا وزاد ثقله، فنهض ماحي واحتضنني بتقدير لم أعد أفهم له معنى، وانصرف.

٢٠١٤ أخر عهدي به فيديو نشره عبر صفحته على فيسبوك عن الاستفتاء على الدستور الذي صاغته سلطة ٣ يوليو بعد بيان الجيش. الفيديو رصد طوابير مزدحمة أمام اللجان الانتخابية ونساء يتحلقن

في الحارات للرقص وحولهن لافتات نعم للدستور، ورجل عجوز يرقص بعصا مع ابنته الشابة وسط تصفيق الأهالي.

ـ كل يوم أتأكد أكتر أنه شعب قذر يبطن كراهية الإسلام ويحب العبودية، إلا من رحم ربي.

هكذا كتب تعقيبا على الفيديو.

وفي ٢٠١٥، وهو العام الذي خسر فيه النادي الأهلي الدوري، سافر ماحي لتركيا للعمل. رأيته مرة وحيدة حين عاد للقاهرة في عطلته السنوية، فتجاهلته ولم نتصافح.

محمود شعلان

١٩٩٥ كنت أحبه.. عندما كان حيا.

من تعلق صورة عملاقة له اليوم في شرفة منزله كان هو الآخر يحبني كما أحببته، ولطالما أخبرني أنه يدعو لي بالاسم في سجوده.

محمود شعلان ابن خالتي عفاف، عريض الجسم، طويل، قليل العناية بمظهره، فقميصه عادة أوسع مما يحتاجه بحجة تفضيله الملابس المريحة.

في طفولتنا كان فاشلا في لعب الكرة، فواظب على اللعب مدافعا ليكون مفيدا، وهو مركز لا نفضله، لكنه مع الممارسة أصبح مدافعا جيدا فعلا حتى إننا صرنا نتنازع على من يضمه لفريقه.

محمود متدين، وفي مطلع مراهقته حاول إقناع شيطانه بالإسلام. للأسف لم أعرف نتائج جهده.

٢٠٠٠ الشيخ محمود شعلان يرتب ساحة صلاة العيد ويسهر ليلة الوقفة يعلق البالونات ليفرح الأطفال، فهو جميل، نقي، وعندما التحقت بكلية الآداب اكتشفت له وجها آخر.

شعلان مسئول الكلية.

كل طالب إخواني مسئول عن نشاط معين، مدرج أو لجنة فنية أو رياضية أو مجموعة من المتعاطفين، وكل فرد يعمل في قسمه ودفعته. وإذا لوحظ زيادة في عدد الإخوة بقسم معين يتم إنابة بعض

الطلبة للعمل في الأقسام التي بها نقص ليحدث التوازن.. وشعلان ينسق كل هذا.

راق لي نشاطه فانغمست معه. نقفز سويا من فوق سور الكلية لتمرير لافتة صيغ عليها «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة»، كي لا يستوقفنا الحرس الجامعي على البوابة ويمنع دخولنا بها.

قبل تسلقنا السور أتلفت بحثا عن الأمن، فأنا أعرفهم: ذكور ملامحهم ريفية، يرتدون ملابس رثة لا تليق بطالب جامعي. عادة أميزهم لكني الآن لا أستطيع رصد أحدهم وسط زحمة الوجوه حولنا.

ـ الأضمن أنك تفترض أن كل الناس أمن.

يقول شعلان، ثم يتقدمني ويقفز فأفعل بعده، وفور أن تلمس أقدامنا أرض الجامعة نرى فرد أمن بزي مدني يهرول نحونا من بعيد فلا يلحق بنا، يذوب شعلان بعيدا بسرعة محترفة، أما أنا فأنتظر اقتراب فرد الأمن ومن خلف قضبان السور الحديدي ألوح له بيدي مودعا وأنا أبتسم بشماتة قبل أن أختفي بسرعة.

٢٠٠١ يدعوني شعلان بصوته المهذب الخفيض لأن نتوكل على الله وليس على سور جامعة يحمينا من الأمن.

شعلان مستمع جيد، يسكت طويلا قبل أن يرد على سؤالك، وأحيانا لا يجيب في النهاية من الأساس، عادة يمنح نفسه وقت للتفكير ثم يرد ببطء كأنه يقرأ من ورقة.

يتكلم بثقة، أقنعني أن الشركات «الأمريكية» تستخدم شعارات خفية تتعمد خداعنا بها. فـ«كوكاكولا» لو قرأتها أمام المرايا تصبح

«لا محمد لا مكة»، وبيبسي اختصار لـ«Pay Every Penny to Save Israel».

لكنه عندما قال إن «برسيل» حين تقرؤها بالمقلوب فهي «ليس رب»، وإن لوجو «فانتا» مقصود به «لا إله» ارتبت، وبدأت أعتقد أنه يجيد ترديد كلام فارغ بخلفية صوتية عميقة، فالتلاعب هنا بالعربية وهذه الشركات أجنبية، السبب تافه، لكنه جعلني أتشكك.

وبالرغم من دعائه على أمريكا بالهلاك، لكنه أصر على أن إخواننا المسلمين في القاعدة لم يهاجموا برجي التجارة، وأن هناك ٣ آلاف يهودي حصلوا على عطلة يوم الاعتداء لأنهم كانوا على علم به. سخرت من سذاجته فغضب، فسخرت من غضبه.

وحين أخبرته أن السيدة فاطمة بنت الرسول أسلمت الروح غير راضية عن سيدنا أبو بكر، كذبني لأنه قرأ عشرات الكتب لكبار الإخوة عن السيرة وحياة الخلفاء ولا أصل لما أقول.

تحديته بثقة تليق بمتباه صغير السن، وبعد أسبوع عاد متجهما.

- وبتقول لي المعلومة دي ليه؟ استعراض والسلام؟ حنستفاد إيه أما نعرف؟

ثم توقفت المناوشات الكلامية بيننا فجأة، فقد قبض عليه.

٢٠١١ مكث في الحبس لأشهر، وحين خرج بدا سعيدا بالتطور في شخصية أخته مريم وبالتزامها.

لسنوات ظلت صداقتنا قوية، وخلال «اعتصام يناير» ظهر متحمسا لعدم ترشح إسلامي للرئاسة، ثم انقلب فجأة لضرورة وجود مرشح إسلامي فور تغير قرار التنظيم.

أزعجتني استماتته في التبرير في الحالتين لكني لم أضايقه، أما

سمية أسامة بنت خالي فلم ترحمه. فعندما نجح محمد مرسي وبعث رسالته لبيريز موقعا صديقك الوفي، قالت له متلاعبة بالهتاف الشهير الذي كان يهتفه في الجامعة.

ـ على القدس رايحين.. أصدقاء أوفياء بالملايين.

ـ ده نص بروتوكولي هو ملتزم به يا تافهة.

ـ حلو.. يا صهيوني صبرك صبرك.. لولا احترام البروتوكول لنحفر قبرك.

قالتها وهي تؤدي حركة راقصة بذراعيها استفزته أكثر من تحريف الهتاف، فنعتها بأنها تتكلم كالعاهرات، قالها باللفظ العامي فتوترت الأجواء.

ـ يا واطي دي بنت خالك.

ـ شوف الآنسة المحترمة وطريقة كلامها عن سيادة الرئيس مرسي اللي حافظ كتاب الله.. ثم إيه يعني بنت خالك؟ لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها.

تحدث جادا، فوقفت سمية وطبلت على المنضدة وهو تغني أغنية شهيرة للمطرب الشعبي أحمد عدوية:

«وخلافنا معاكم مفيش موضوع.. غير أنه شبعة من بعد جوع».

كررت مقطع «غير أنه شبعة من بعد جوع».. بأداءات صوتية مختلفة هزلية.

ضحكنا، واحتضنته بمرح لكنه أبعدني بضيق، يبدو أنه لم يتقبل الدعابة.

٢٠١٣ طمأنني شعلان عقب البيان الأول الذي صدر من الجيش قبل مظاهرات ٣٠ يونيو المعارضة للإخوان، أن إخوانه أكدوا له أن

وزير الدفاع سيقبل رئاسة مجلس الوزراء وسيسحقون معا مظاهرات ٣٠ يونيو، لذا كانت الصدمة كبيرة بعدها بأيام حين أدرك أن الإخوة الكبار الذين يعرفون أكثر، هم ببساطة لا يعرفون أكثر.

استوعب الصدمة بسرعة وقال إن كل البشر يخطئون، لكن ما جزمنا جميعا أنه هزيمة اعتبره شعلان معركة لم تنته بعد، قال إن اسم الرئيس المؤقت عدلي منصور تعني «عاد لي منصور»، وإنه من لطائف الإشارات الربانية إلى الرئيس مرسي.

انتقل من فشل إلى فشل بدون فقدان الحماس، فحذرته من الانخداع مجددا واستدللت على ما سيكون بما كان، فقال بيقين:

ـ الانقلاب يترنح.. الشك في أن مرسي راجع شك في الله عز وجل.. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.. يعني أكذب وعد ربنا وأصدق وعد السيسي؟

لكن من أقام دعوة الإسلام في قلبه انتظر بلا جدوى أن تقوم في أرضه. ففي رابعة مزقهم الأمن كل ممزق، فصار أملهم غرورا وخيامهم قبورا.

سجن خالنا د. أسامة عودة، فطمأنني شعلان أن سيذهب الأسر ويبقى الأجر. ذكرته بحرصه من الأمن الذي كان، وقلت له إنك كنت تنفخ في الزبادي، وها أنت الآن تقفز بحماس في إناء الشوربة. لكنه بدا مقتنعا بأنه انقلاب على الإسلام وليس على مرسي.

يعتقد شعلان أن المرء سيسأل يوم القيامة عن دينه ورسوله وموقفه من الانقلاب؛ لذا اعتبر كل قاعد في بيته دون أن يشارك في المظاهرات ليس خاليا من المنكر.

ـ الحمد لله على نعمة الانقلاب.. نحتاج أهل الإيمان وبس. طهارة رابعة أنقى من عفن التحرير، وقت ما كنتم بتغنوا أغاني الشيخ

إمام مع البنات.. بلا ديمقراطية بلا ملوخية، الحل فتح إسلامي جديد يمتلك قوة الإعلام والسلاح.

انتصر السيف على الدم، لكنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل عودة مرسي وما استكانوا، طرح شعلان فكرة سحب العملات المعدنية من السوق، كي لا يجد الناس «فكة» للتعامل ما سيعطل الحياة، فشل الاقتراح، فطرح فكرة تعطيل المرور على الكباري بأن تبطئ سيارات مؤيدي محمد مرسي عليها فتشل البلد، وذلك قبل أن يكتب على فيسبوك:

«الأحد ١٥ سبتمبر ولمدة أسبوع.. اركب من أي محطة مترو الساعة ١٢ ظ، لن نرفع شعارات ولن يقبض علينا. المترو لن ينقل غيرنا، ما سيؤدي لشل العاصمة، الناس لازم تشوف بوضوح نتيجة عدم احترام الشرعية».

حدثني عن قرية كفرت بما أنعم الله وخرابها عقاب عادل، أما حسابه على فيسبوك فينشر به يوميا صور إعلاميين معارضين لمرسي يقول إنهم أصابهم مرض السرطان أو أصيبوا في حادث معلقا ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. ثم نشر فيديو جنسي على صفحته قال إنه لمدرب كاراتيه بالمحلة مع زوجة ضابط ليشهد الناس على انحلال أخلاق الضباط وأسرهم، فتيقنت أنه اختل تمامًا.

صار أكثر نحافة، أصبح يتكلم بسرعة لا تليق مع ما كنت أعرفه عن هدوءه، حدثني عن إحراق الجنود للمصاحف وإغلاقهم المساجد وسخر من السلمية العقيمة، وفرح بقتل العساكر بسيناء وتمنى الخسف بهم لأنهم وقود الظالم، معتبرا العمليات النوعية هي الخلاص.

التزم بفتوى الشيخ محمد عبد المقصود ولم يحضر لدعوة الإفطار

السنوي الرمضاني التي تعدها أسماء أختي لأنها تؤيد السيسي. قال إن الولاء والبراء ألّا تذهب إليهم ولا تأكل عندهم فهم من غير أهلك، إنهم عمل غير صالح. وحين تعرضت أسماء لحادثة تحرش جماعي بشعة، كتب على صفحته على فيسبوك:

«واحدة قريبتي بتحب السيسي.. نزلت تأيده، جمهوره القذر تحرش بها.. اللهم لا شماتة طبعا، لكنه عدل الله.. ربنا يحشرها معه».

كنت أحتفظ له ببقايا مودة، ومن جانبه لم يعتبرني عدائيا، ربما لأنني لم أدخل معه في أي جدال مؤخرا، اتصلت به ليحذف ما كتب قبل أن تراه أسماء.

ـ هي تابت؟

ـ تابت من إيه؟

ـ من تأييدها السيسي.

سكت ممتعضا من الحوار كله، فقال:

ـ خالقهم حيعمل فيهم أسوأ من كده إيه لأجل خاطر يتعظوا؟

قالها بكراهية، لا أحب أن أعرف دعاءه لها الآن في سجوده، يمكنني التخيل.

٢٠١٥ بقي الطغيان وذهب الإخوان..

بينما أعمل في الجريدة ونغطي أصداء عملية نوعية كبرى نفذها تنظيم الدولة الإسلامية للسيطرة على الشيخ زويد، أسمع زميلي صحفي الحوادث يسأل المصدر الذي يبلغه الخبر، وهو ضابط بإدارة الإعلام بالداخلية:

ـ القتلى تسعة من الإخوان في شقة أكتوبر بعد تبادل إطلاق نار.

انتبهت للخبر فرفعت رأسي المنكب على الكمبيوتر، بدا على زميلي الغباء وهو يقول:

ـ مفهوم يا فندم.. صفتوهم بعد تبادل إطلاق نار؟

صمت قليلا ثم ابتسم ببلاهة وهو يقول:

ـ مفيش تبادل إطلاق نار.. آه فهمت.. فهمت.

أنهى الاتصال، والتفت لي مردّدًا بصدمة:

ـ قال لي صفيناهم.. ولو أنت تحب تكتب بعد تبادل إطلاق نار أنت حر.. لكن الخبر الرسمي اللي بقوله لك تصفية تسعة من قيادات الإخوان الإرهابية.. إحنا رحنا صفيناهم من غير لا تبادل إطلاق نار ولا زفت.

ـ خبر أسود.

على بريده الإلكتروني صور القتلى، نهضت وقلبت فيهم، أول صورة كانت لنائب برلماني سابق، أما الصورة التالية فلشعلان ملقى في الأرض تغرقه دماء، وقد اخترقت الطلقة وجهه ويبدو أنها عبرت أسنانه المهشمة.

محمد رفيق

٢٠٠٠ يقف رفيق في منتصف السلم.

انتهى من تعليق النصف الأيمن من لافتة انتخابية كحلية اللون للدعاية لمرشح الإخوان في الانتخابات البرلمانية، وعاود الصعود لتعليق النصف الأيسر حين سمعنا ضجيج فرملة سيارة شرطة تتوقف أسفل السلم.

الحملة الأمنية تطول كل من يشارك في الدعاية الانتخابية، عددنا كبير لكننا لم نجرؤ على الاشتباك مع الشرطة، فاختفينا.

نزل أربعه أفراد أمن من السيارة ومعهم ضابط، ومن بعيد نرى رفيق يواصل التسلق، لم يخفض نظره إليهم، تصورت أنه لم يسمعهم لكني وجدته يجذب اللافتة بعنف.

ـ أولاد الزانية معلقين الزفت ده.. ومغطين على يافطة المحل.

لم يبدر من أفراد الشرطة أي حركة، تاه تحفزهم في زحام ارتباكهم، حيرتهم انتهت عندما صرخ رفيق في صاحب المحل المجاور للافتة:

ـ قلنا مليون مرة ميعلقوش حاجة قدام المحل.. ده مكان أكل عيش.

لم يرد صاحب المحل الذي لا يعرفنا، لم يرغب في سجن صديقنا ولا في توريط نفسه، ففطن لما يحدث وصمت.

ـ والنبي يا ريس امنع أي مخلوق يعلق يفط هنا تاني.

قالها الضابط. لحق بنا رفيق وفي يده اللافتة، وبعد عشر دقائق كان يعلقها على ناصية شارع آخر.

٢٠٠٠ هل رأيت مندوب المبيعات؟ هل تعرف كيف يتعامل مع الناس؟ هل لمحت الابتسامة الباردة التي هي جزء من ملامح الوجه أكثر من تعبيرها عن مشاعر؟

إذن أنت لست بحاجة لأن ترى رفيق.

في البداية أزعجتني ابتسامته الواسعة المبالغ فيها كلما التقيته مع أن علاقتي به لا تسمح بكل هذه الحميمية.

أول مرة رأيته في مدرجنا حين دخل علينا ليلقي كلمة. بدأ حديثه بقصة أول مرة أسمع بها عن رفض الرسول مبايعة شخص لأنه تحرش بفتاة في المدينة، أكد رفيق أن ما تلبسه الفتاة ليس مبررا للتعرض لها في الطريق.

استهلال غريب، فكليتنا مشهورة بكثافة عدد البنات، والمدرج لا يوجد به سوى ثلاثة شباب، فلم يبدأ بانتقاد الأولاد غير الموجودين أساسا؟

تحدث بعدها عن آية ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ موضحا أن فعل الخير لكل الناس منتقدا زميلا له رفض إعطاء مسكين قبل أن يتأكد من أنه مسلم.

يضرب الأمثلة وسط دعابات يقولها بحرفية لجذب الانتباه، دعابات أدركت سريعا أن أغلبها ليس عفويا بل سبق أن ردده في أكثر من مدرج.

لم تمض سوى دقائق حتى صمت المدرج كله إنصاتا له. حاولت أن أمزح مع صديقتي كارولين الأعصر التي دأبت على الجلوس عن كثب منها، فنهرتني لأنها ترغب في الاستماع.

كسب البنات، ورسم صورة ذهنية جذابة لنفسه، ثم بدأ في الهجوم على كل نمط حياتهم: الاختلاط، ومساحيق التجميل، والحجاب غير الكامل.

خرج من مدرجنا ليدخل المدرج الذي يلينا، فهو مثل ماحي يومهما الدراسي كله كلمات في المدرجات، لكن رفيق يزيد عنه بما لديه من كاريزما وحضور.

رفيق لانت كلمته فوجبت محبته، ورغم ذلك لم يكن محمود شعلان يرتاح له، أو دعنا نتحدث بصراحة.. شعلان يكرهه.

٢٠٠١ طلبة التيار الإسلامي ينادون بعضهم بعضا في ساحة الكلية باسم واحد، فكلهم «علاء» كي لا يعرف الأمن أسماءهم. ممنوع دخول أجهزة محمول للغرفة التي يتم بها أي لقاء تنظيمي، ممنوع الاحتفاظ بأوراق أو ملفات على الكمبيوتر تتضمن أسماء لأفراد أو لأعمال اللجان.

رفيق لا يلتزم بأي من هذا، ولا يبالي بقواعد المعرفة على قدر الحاجة. أنذره شعلان من الحديث في أمور تنظيمية فرد رفيق بلا مبالاة:

ـ دي ملصقات عن بر الوالدين وخطورة الاختلاط بين الولد والبنت.. أمال لو كانت عن اغتيال مبارك كنت حتعمل إيه؟

داوم على الاستخفاف بما يسميه الهوس الأمني عند شعلان، لكن التوتر الحقيقي في علاقتهما بدأ عندما نظم شعلان بصفته مسئول الكلية «رحلة جهادية» ست ساعات سيرا على الأقدام من ميدان الجيزة حتى المعصرة، ففي المعادى تركهم رفيق ورجع لبيته.

تزلزل الإخوة دهشة. ناقشه شعلان بعدها، استمع لاعتراضات رفيق وابتسم بثقة من لديه إجابة لكل سؤال، وحين خَلَصَ رفيق من كلامه طمأنه شعلان:

ـ حرد على شبهاتك كلها حالا.

ـ لكن أنا عندي أسئلة مش شبهات.

هنا احمر وجه شعلان حنقا، وختم الحوار بالحديث عن خطورة العناد والكبر، وقال إن كل مياه النيل لا تغرق المركب إلا لو تسللت مياه قليلة داخلها.

الصدام النهائي وقع بينهما عندما رفض الأساتذة الجامعيون الإخوان المشرفون على نشاط طلبة التنظيم قرار النزول بمظاهرتين في أسبوع واحد، واعتبروا ذلك تصعيدا سيستفز الأمن.

تضايق رفيق واعتبر الأمر مهينا له كمسئول عمل عام وتعديا على دوره، فاعتذر عن الحضور للكلية ثلاثة أيام محبطا بحجة المرض، عاد ليجد محمود شعلان عين ماحي مسئول عمل عام مكانه.

ـ مؤقتا.. لغاية ما تقوم بالسلامة.. مش كنت عيان؟

تخرجت من الكلية وماحي ما زال مسئول العمل العام، رفيق لم يقم أبدا بالسلامة.

بعدها انحصر دور رفيق في الحديث بالمدرجات مع الطلبة. وبالرغم من أنه أشهر طلبة الإخوان في الكلية، لكنه أصبح مهمشا تمامًا حتى إنني كنت أعرف مواعيد المظاهرات قبله من ابن خالتي محمود شعلان أو من صديقي المقرب ماحي، رغم عدم انتمائي للتنظيم.

٢٠٠٤ «مش أخت على فكرة.. بنت بتلبس طرحة قصيرة».

هكذا عرفت بخطبة رفيق على جارته، دامت الخطبة شهرين لم يعش رفيق أكثر سعادة منهما، ثم اعتقل.

إذا قبض على ابن آدم انقطع دخله إلا من أموال التنظيم.. دوريا زار ماحي مفوضا من إخوان الكلية والدة رفيق ومنحها راتبا شهريا، أبت في البداية فأقنعها أن تحتفظ به على سبيل الأمانة وتترك رده لرفيق عند خروجه.

خرج رفيق يحمد الله على نعمة الأخوَّة وروعة الاطمئنان أن وراءك سندا، قال إنه يشعر بالأمان الاجتماعي رغم ضغوط تسديده الاشتراك الشهري والمطاردة الأمنية.

استقبلته خطيبته بعد أشهر الحبس الاحتياطي بفرحة نقية في أول لقاءين دون أن تناقشه في شيء، وفي الثالث لمحت برغبتها أن تعيش حياة طبيعية وطالبته بأن ينفصل عن الإخوان، فانفصل عنها.

يئس رفيق سريعا من التنقيب بنفسه عن عروس، فهو موصوم بأنه «رد سجون»، فاتجه إلى زواج الصالونات من خلال الإخوة.

سأله شعلان عن الصفات التي يرغبها في زوجة المستقبل، ثم رشح له أختا، ورتب لهما زمرة مقابلات في مكان عام بحضور طرف ثالث، لم يسترح لها، وحين لجأ لأخ آخر ضايقه أن رشح له نفس الأخت. ماحي فسر له التكرار بأن هذه الأخت من المهم تزويجها سريعا، لأن أهلها يجبرونها على عريس غير متدين لا يحافظ على صلاة الجماعة ومدخن للسجائر.

استخار رفيق الله وتقدم لخطبتها، وحين دعاني لعرسه سألته لأعرف هل ارتقت مشاعره لعاطفة حقيقية نحوها مع اقتراب موعد الزواج.

ـ قصه حب؟

ـ آه.. بتحبني.

٢٠٠٩ صلى رفيق بنا العشاء داخل قاعة الزفاف، وانتشرت صور هذه الصلاة على مواقع التواصل الاجتماعي كرمز لبداية الحياة في طاعة الله.

عمل مدرسا، ترهل جسده وخفت ألقه. جاءه عقد عمل بالسعودية

لكن إخوانه رفضوا سفره لأنهم يحتاجون إليه في مصر من أجل النشاط الدعوي. اقترح على شعلان أن يفتتحا «نت كافيه» ليزيد الدخل وفى نفس الوقت يجمع الصبية حولهما ويجرهم للمسجد والتنظيم، استعان شعلان بفكرته ولم يستعن به هو شخصيا.

ـ واحد أكسل من أنه يصحى عشان دعوة ربنا يقول كلمة وبيختلق ألف عذر.. تفتكر أما يشتغل حيكون شخص يعتمد عليه؟ مستحيل.. عموما ربنا يهديه.

قال شعلان، ذكرته بإخوتهما فأضاف باحتقار:

ـ كم منا وليس فينا، وكم فينا وليس منا.

وفي ٢٠١١ اختير شعلان من مؤسسي حزب الحرية والعدالة، واستبعد رفيق الذي حصروه في الأعمال الخيرية بعيدا عن دهاليز التنظيم.

عرض عليه أن يكون قياديا تنفيذيا بحملة عبد المنعم أبو الفتوح الرئاسية التي نشط بها، لكنه خشي من الفصل من التنظيم، فترك الحملة نفسها.

سألته عن تفسير ذلك فقال إنه مع مرور السنين أصبح مقتنعا بأن إصلاح مصر مدخله الوحيد هو إصلاح الإخوان، لذلك فالبقاء داخل التنظيم خياره الأول دائما.

أنذر رفيق إخوانه من خطر حكم المجلس العسكري عليهم حين رفضوا النزول في مظاهرات محمد محمود، فكتب له محمود شعلان على صفحته على فيسبوك أن اتق الله ولا تكن خنجرا في ظهر إخوانك.

خاف أن ينتقد فينطرد.. خرس.

٢٠١٢ ترك اليقين عنده لظن التنظيم، وانغمس في حملة مرسي للرئاسة التي كان يشك في مآلاتها، نجح مرسي فانتابته موجة فرحة أغرقت شكوكه. ومنذ تلك اللحظة وثق بأن تدبير التنظيم له خير من تدبيره لنفسه، قال إن لديهم من المعلومات والخطط ما لا يعلم، وأثبتوا أن رؤيتهم صائبة.

توهج فجأة، كان تمثالا من الشمع وعندما وصلوا للسلطة دبت فيه الحياة. اكتشف أن عمله للتنظيم أنفع من عمله لنفسه، فتكرر ظهوره في اللقاءات التلفزيونية، ثم رأيت صورة له يقود المظاهرات أمام دار القضاء دعما لإعلان محمد مرسي الدستوري، قبل أن يصدر أو أن يقرأه أي شخص.

اتبعهم شبرا بشبر وذراعا بذراع، وعندما سلكوا جحر ضب السلطة سلكه وراءهم. ولأنه لا طاعة للخالق في معصية الإخوة رأيته على التلفاز يبرر قتل ٧٢ في مظاهرات ذكرى يناير خلال حكم محمد مرسي، ويثني على أداء الداخلية.

قلت له إن الله خلقنا أحرارًا لكن البعض انضم للتنظيم، فأخبرني أن التغيير يحدث للناس. عين بعدها موظفا كبيرا بالرئاسة، فلم يعد يخبرني بشيء.

صار نافذا أكثر، فعلمت أنه لا فضل لأبيض على أسود إلا بالانضمام للتنظيم.

ويوم ٣٠ يونيو ٢٠١٣ بلغني خبر مقتل تسعة من المهاجمين لمكتب الإرشاد بالمقطم خلال الاحتجاجات ضد حكمهم، كان رفيق ضمن المدافعين عن المقر. التقيته بعدها بيومين حين دعاني للنقاش بمنزله، بدا مرتبكا تائها، أفاض في ترديد آيات قرآنية وتجنب الحديث عن اشتباكات المقطم، سألته عنها بوضوح فقال بعصبية:

ـ كل المهاجمين على المقر جون ومايكل وكريستين.. كانوا بينادوا بعض كده.. ولا واحد منهم مسلم أصلا.. يستحقوا اللي حصل.

كنت أعلم أنه أذكى من أن يصدق هذا، خطر فجأة في بالي شيء ما فسألته:

ـ أنت قتلت حد يا رفيق؟

تلجلج، أشاح بيديه وهرب من عيني، قال إنهم قتلوا قضاء وقدرا، فخمنت من كان قضاء الله وقدره، كررت السؤال وطالبته أن يقول صدقا أو ليصمت.. فصمت.

قبل افتراقنا احتضنني طويلا، طال الحضن، وحسبت أني أنصت لأنين نحيبه فضممته لصدري بقوة.

٢٠١٣ ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يعتقل الناس وفيه يقتلون..

خرج من السلطة كمن أدخل إصبعه في البحر دون أن يرجع بشيء، وفي رابعة أصيب شقيقه بشظية وشفي، وأصيب هو بخيبة أمل دون أن يشفى، ولأن ميزة الهزائم الساحقة وضوحها لم يتعذب رفيق بالأمل، فقبل الوصول لخط النهاية عرف أنه خسر السباق فتوارى مع مجموعة سميت أهل الكهف، ورفض اللجان النوعية ونشاط ابن خالتي محمود شعلان، بحجة أن أي عنف سيكون ذريعة لتدمير التنظيم.

استفتى عقله وإن أفتوه، ولم يبد متحمسا للاستبسال في إشارة مرور رابعة العدوية، وقال إن ميزان القوى يكشف أن لجم التظاهر المغضوب عليه جماهيريا ضرورة:

ـ هو ده وقت مراجعات؟ اتكلم بعد زوال المحنة وخروج الأبطال.

هكذا زعق فيه شعلان. لم ينطق رفيق بكلمة، لكنه قال لي متهزا قيام شعلان لدخول دورة المياه:

ـ مجد إيه اللي للمحبوسين؟ المهم الناس تطلع لحياتها وعيالها.. بلا مجد بلا زفت على دماغه.

كان هذا آخر حوار في السياسة بيننا، فبعدها أصبح يتهرب من أي حديث في الشأن العام، وأعاد ترميم صداقته مع زملائه بالعمل. ورغم احتفاظه بعضوية التنظيم لكنه تفرغ لمشروع سوبر ماركت افتتحه ليزيد دخله، لاحظت إهماله الصلاة بالمسجد، أما زوجته فخلعت الخمار الذي كانت قد تدثرت به مؤخرا وعادت لحجابها القصير.

رأيته آخر مرة أمام مدخل سينما جلاكسي، كان يقف في طابور الدخول لمشاهدة فيلم كوميدي لأحمد حلمي ودنيا سمير غانم، ومعه زوجته وابنتاه.

عفاف عودة

١٩٩٧ لم تكن خالتي عفاف ترتاح لها، لكن ضغط ولديها أجبرها على أن تذهب إليها.

الشقة بدت مبهرة، مدخلها فاخر، واسعة، إيجارها مناسب، تطل على شارع قصر العيني الرئيسي وليست مكشوفة للجيران.

أنا أيضًا كنت أعتقد أنها تستحق، حين زرناهم رأيت السعادة على وجه ولديها مريم ومحمود شعلان، لكن خالتي ظلت لا تهدأ إليها وهو ما فهمت سره حين اكتشفت تفصيلة شديدة الغرابة في أول زيارة للشقة الجديدة.

الولولة المفاجئة تخترقك، النواح ينبعث يوميا مرة أو مرتين من طوارئ مستشفى قصر العيني المواجه للشقة.

يموت الناس فتنفجر لطميات لا تتناغم مع شخصية خالتي المرحة ولا مع ضحكتها العالية المعتادة، فخالتي التي تحب المزاح تقول لبنتها مريم:

- بصي يا بنتي واعتبريها قاعدة.. أول ما تلاقي رجل يعرف يضحكك اتجوزيه أو صاحبيه أو بوسيه على طول.. اللي تقدري توصلي له اعمليه.

تضحك بعدها، بالطبع هي تداعب ابنتها، لكن هزلها الغريب لم يرق لخالي أو لأمي، ثم لم يعد سلوكها كله يعجب ابنها محمود شعلان الذي أنكر عليها حجابها الذي يظهر مقدمة شعرها، بسبب الانحسار المتكرر لطرحة لا تثبتها فوق رأسها بشيء.

ـ أما ربنا أمر النسوان بالحجاب ولا كان فيه يومها دبوس ولا مشبك.. ولا أنت فاكر إن السيدة خديجة كانت بتمشي بدبوس صيني في شعرها يا روح أمك؟

١٩٩٨ بالرغم من ثنائها على أصدقاء محمود شعلان الذين يخاطبونها بلقب «يا أمي» المهذب، وفرحتها بأن أحدهم أصر على حمل حقيبتها الثقيلة بالخضراوات من السوق إلى البيت فإنها ترتاب منهم، لا تريد لابنها محمود تكرار معاناة أخيها د. أسامة الذي اعتقل مرتين منذ عودته من السعودية ملتحيا، وبخبث تثني عليهم أمام ابنها لتطمئنه إلى موقفها، فقال بفخر:

ـ لو لم يكن الإخوان لكنا نترحم على الإسلام.

بسرعة رفعت قدمها اليمنى ليطير الشبشب في الهواء ويدور حول نفسه أمامها لتمسكه بحركة محترفة وتلقي به في وجهه.

ـ اترحموا عليك في قبرك يا بعيد.

٢٠٠٢ قبض على محمود شعلان.

تتحسر خالتي أن جيرانها بدأ أولادهم رحلة العمل ويأتيهم جوابات من البنك، بينما ولدها يأتيه جوابات استدعاء من أمن الدولة.

فور خروجه من أربعة أشهر قضاها في سجن ليمان طرة فرضت أمه رقابة عليه، فقناعتها أن ابنها خدع بسبب كونه انطوائيا بلا خبرة وبسبب تأثير أخيها د. أسامة عودة عليه. تلمحه يرتدي ملابس الخروج فتسأله:

ـ على فين إن شاء الله؟

ـ نازل.

ـ أفادكم الله.. نازل تعمل إيه؟

ـ مشوار.
ـ المشوار مكانه فين يعني؟
ـ تحت في الشارع.. يعني حروح فين يا أمي؟
ـ حتقابل مين طيب؟
ـ أصحابي.
ـ صاحبك عزرائيل يا رب.. ما تقول جملة مفيدة يا بني.. هو إحنا داخلين حرب؟ ولا أنا عدوتك؟

يتعمد عدم ذكر التفاصيل كي لا يضطر للكذب، قال إن حقه اختيار شكل حياته فتقول:

ـ أنت محتاج تتعلم تكون رجل.. محتاج حكم النفس على النفس.. يا ريت أبوك كان عايش يقف لك.

ـ حكم نفس إيه يا أمي؟ أسامة بن زيد قاد جيشا فيه أبو بكر وعمر قبل ما يكمل ٢٠ سنة.

سكتت الأم برهة حين ذكر الصحابي، ثم قالت كأنما تذكرت شيئا:

ـ طيب والنبي بلاش يا أمي دي.. أنا اسمي ماما.. بتحسسني أنك خارج من فيلم كارتون مدبلج.

لم تتمكن من منعه، فاكتفت بتوبيخ أصدقائه ومعاملتهم بجفاء حين يتصلون على التليفون الأرضي.

ـ اتصل بي الكلب اللي مضيع ابني اللي اسمه محمد رفيق فقلت له إن محمود مش موجود، مع أنه كان نايم جوه.

هكذا قالت لي، هدأتها وقلت إن محمود ليس طفلا، أما ما لم أقله لها فهو أن ابنها هو مسئول رفيق بالكلية، وهو أصلا مسئول الإخوان بالكلية كلها.

٢٠٠٩ الامتلاء صحة، ومشروب «السفن أب» فيه شفاء للناس، وما يشتريه ابنها بدونها احتيل عليه حتما في ثمنه مهما بدا لنا جيدا. أما إن قال لها أحد أبنائها رأيا مخالفا، فردها الجاهز هو: «كفاية سفالة وقلة أدب».

هذا خلاصة أفكار خالتي عفاف، لكنها محبوبة فتتجاوز عما تقوله، ففور خطبتي لمنال احتضنتها خالتي في أول لقاء بينهما.

ـ قمر والله يا منال يا حبيبتي.

ثم التفتت إلى مريم بنتها قائلة:

ـ الله.. ما البنت جسمها حلو قدامي وجميل أهو، ما شاء الله عليه يا مريم.

فهمنا أن مريم انتقدت جسد منال وامتلاءها قليلا أمام خالتي، لكن منال لم تأخذ على خاطرها مما اعتبرته عفوية من تسميها «خالتك الطيبة».

خالتي لم تتضايق من تأخر زواج ابنها محمود، لكن ما غاظها اتجاهه لعروس من الأخوات.

ـ الخوف أنهم يورطوه في بنت متنقبة.. بطيخة متغطية بقشرتها وبختك يا أبو بخيت.

لم ترض عنه إلا عندما تزوج من ابنة إحدى جاراتها، وعرفها محمود على الأخوات لاحقا.

من جهته عانى محمود مع أمه طويلا لتحافظ على الصلاة، فعلت مع الكبر وتقدم السن، قال محمود إنه مرتاح لتدين والدته، لكن الأم ظلت حريصة على متابعة برامج المسابقات الغنائية التي تعشقها، الفارق الوحيد أنها صارت تتفرج على البرنامج الغنائي وتشتكي مما تراه كأنها متذمرة.

ـ والله الواحدة كانت تستحي تقعد كده قدام رجلها حلالها.. مش قدام ملايين على التلفزيون.

تلعن، تسب، تسخر، وتبدو غاضبة، فأخذ ابنها جهاز التحكم وبدل القناة بهدوء، بينما نتغامز ونحن نراقب الحسرة على وجهها بعد انقطاع مصدر المتعة.

٢٠١١ اشتكت من الرئيس مبارك لسنوات ثم أيدت بقاءه في يناير، رأت أن الرجل كبير في السن ولا يليق إنهاء مسيرته المهنية كرئيس حكم البلد ٣٠ عاما بشكل مهين، والأفضل انتظار وعده بالرحيل بعد ستة أشهر.

يوم ٢٨ يناير قعدت على الباب كي لا ينزل ابنها المظاهرات، وفعلا لم يشارك سوى في موقعة الجمل بتحايل معقد عليها.

ضايقها حماس شباب العائلة لنبأ الإطاحة بمبارك، ولم يتوقف تذمرها إلا يوم أن رأت ابنها لأول مرة على فضائية الجزيرة يدعو في مناظرة للتصويت بنعم على استفتاء مارس الذي دعا له المجلس العسكري، وحينما رأته ضيفا مع الإعلامية منى الشاذلي أخذت تصفق كالطفلة.

لم تنقطع فرحتها بابنها مهما تكررت لقاءاته التلفزيونية، نفس الفرحة ونفس طقوس الاتصال بإخوتها لإخبارهم بموعد اللقاء قبلها.

حضرت مؤتمرا انتخابيا مشتركا للتحالف الديمقراطي الذي يقوده تنظيم الإخوان، افتتح المؤتمر بإلقاء ليبراليين كلمات وسط تصفيق رتيب من الحضور المنتمي أغلبهم للإخوان، ثم صعد محمود لينتفض السرادق بالتكبير.

مشهده بدا مهيبا، أراها في مؤخرة السرادق تجلس مستندة للجدار تضع يدها على خدها وتنظر له بفخر.

بإشارة منه سكن الهتاف، فسكنت معه أنفاسها للحظات انبهارا. رأت معجزته فآمنت به، تبدلت معه، تسكت حين يتكلم ثم تعيد صياغة ما يقول مؤيدة بطريقتها الخاصة. ومرة حين زرتهم بدا شعلان متذمرا منها لسبب لا أعرفه بينما هي تطيب بخاطره.

ـ طيب شوف جبت لك إيه؟

أنصت لصوت خشخشة كيس وبعدها شهقة مفاجأة مكتومة من شعلان.

ـ وشوف إيه كمان.

ـ كل ده يا حبيبتي؟

ـ المهم أنت ترضى يا قلبي.

لم أعرف ما أعطته له، لكنني رأيتها تربت على يديه كأنه زوجها العائد.

٢٠١٣ خالتي عفاف سألت سمية:

ـ أنت خلعت الحجاب؟

ـ لا أبدًا.. إزاي تفكري كده يا خالتي.. القصة أني كنت بلعب دور كوتشينة عليه فخسرته.. لكن أخلع الحجاب؟ أعوذ بالله.

تضايقت خالتي من السخرية، لم تتوقع استجابة ولكنها انتظرت اعترافا بالذنب، أما الاستهزاء فبدا صفاقة لا تحتمل.

زاد الأمر سوءا أن سمية بطبيعتها المحتدة ردت بهجمة مرتدة:

ـ قولي لي يا خالتي.. بما أنك فجأة بقيتي متحمسة للحجاب

ونصرة الإسلام.. هي إيه مظاهر تطبيق الشريعة الإسلامية اللي أنت بتدعمي مرسي لحرصه عليها؟

تلجلجت خالتي للحظة، فوجهت سمية القاضية:

- إن ابنك محمود ربنا كرمه وبقى يدخل القسم فيضربوا له تعظيم سلام.

كلنا ننقدهم أما سمية فتجلدهم. ظلت خالتي لأشهر تحكي الموقف، اعتبرت سمية حاقدة حقيرة على نجاح ابنها.

٢٠١٣ «أنا في طريقي لاعتصام رابعة.. انزلي فوضي لقتلي يا سمية زي أصحابك ما عملوا».

هكذا قالت خالتي لسمية بعد ساعات من بيان الجيش بالإطاحة بمرسي، ليبدأ شجارهم الذي يلتهم كل زيارة عائلية، حوار مرعب يتحدثان خلاله في نفس واحد دون انقطاع، كل واحدة تحكي سردية كاملة مختلفة دون أن تأبه بردود الأخرى أو بماذا تقول في نفس اللحظة.

تسخر خالتي من فتيات غير محجبات يتصدرن مظاهرات المعارضة، فترد سمية بذكر ردود أفعال مريم ومحمود وخالتي نفسها، فسمية تملك ذاكرة مدهشة، وتفاصيل حول متى قالت خالتي، وأين كانت تقف أو ماذا كانت تفعل حين كانت تتحدث، فتقول لها: أيدتي مذبحة ماسبيرو ونحن في المطبخ، وقلتي عن قتلى مظاهرات محمد محمود كذا كذا عندما كنا في النادي مع فلانة.

حاولت التهدئة فحدجتني سمية بغضب فتلاشيت، ثم قالت:

- ودِيني ما اسكت.. أما تسكت هي.

- دينك يا سمية؟

هكذا ردت خالتي بنصف ضحكة مستهزئة، في إشارة لخلع سمة للحجاب، فتجدد التبكيت المتبادل.

٢٠١٣ «ولا فيه أي مشكلة إن خالي يلقى الله شهيدا.. المهم الرئيس مرسي يرجع».

قال محمود عندما حبس خالي د. أسامة عودة. ارتبكت أمه، وهزت رأسها تأكيدا لمجرد أن ابنها من يتحدث، ثم قالت بسرعة كأنما توصلت لصيغة أفضل:

ـ بكره الرئيس وخالك يخرجوا من الحبس.. وكل متآمر عليهم وعلى البلد نزل في ٣٠ يونيو مصيره أنه يكون هو مكان خالكم.

لم يحدث ذلك، تفاءلوا بالخير لكنهم لم يجدوه. ساد صمت الصدمة في منزلهم لفترة، وحين ذهب بعض إخوان محمود للسجن أدرك أنه يوشك أن يذهب الكل.

ـ حتزعلي يا ماما؟

ـ أزعل على إيه يا ولد؟

ـ أنت عارفة.. سؤالي حتزعلي؟

ـ اسكت يا بني.. كفاية عبط.

صمتت الأم قليلا، ثم أضافت وقد بدأت تنتحب:

ـ آه يا محمود.. لو قبضوا عليك زي ما عملوا مع خالك حزعل.

ضمها بحب كأنما يريد أن يستوعب جسدها النحيل بداخله للأبد، وبعدها بأيام اختفى.

٢٠١٤ هناك حياة بعد الموت ووجه خالتي دليل على هذا.. بتها مريم طلقت، وأخوها د. أسامة سجن، أما ابنها فهو المأساة.

خالتي كانت تنتظر سقوط السيسي ليعيش ابنها بأمان، اختبأ محمود بعد ملاحقة الأمن له واتهامه بقيادة إحدى مجموعات العمليات النوعية بالإخوان، فلم تعد تنتظر شيئا.

في آخر لقاء بينهما قال لها محمود إنه ليس قلقا من تدابير البشر فأقصى ما يستطيعون فعله أن ينفذوا إرادة الله. وحين نفذوا إرادة الله وطاردوه في البلاد أدركت أن ابنها أخطأ عندما لم يقلق من تدبيرهم.

بمرور الأيام كبرنا، أما هي فانطفأت. تدهورت صحتها وأقلعت عن حضور دروس المسجد مع الأخوات، ما جلست في مجلس إلا وذكرت فيه الغائب، ومن كانت تخصص نغمة في محمولها لكل فرد بالأسرة، لم تعد تكلف خاطرها بتبديل نغمة هاتفها الرتيبة أبدا.

باتت تريد بغيا يطول الجميع، كما طال ابنها وسكتوا. يسرها أي خبر اعتقال خارج حدود التيار الإسلامي حتى إن مريم ابنتها أصبحت تسارع بإخبارها بتعرض أي صحفي أو ناشط لمضايقة أو أذى، لعلمها أن ذلك يخفف عن الأم، ولم أدر بماذا أرد حين سألتني خالتي بكراهية: لماذا لا يطارد الأمن سمية بنت خالك، رغم أنها تكتب ضد السيسي على فيسبوك؟ أم أن الأمر مجرد توزيع أدوار بين العلمانيين؟

زرتها كثيرا لأهون عليها، ثمانية أشهر وباب منزلها مفتوح في انتظار عودة الغائب، تتركه هكذا ليدخل الغالي فور وصوله ولا يدق الجرس لحظة.

لم تأبه للتحذيرات من خطر التهجم على شقة تسكنها عجوز وحيدة، واختارت لنفسها كرسيا جيرة الباب في انتظار صخب خطوته المميزة وهو يصعد الدرج جريا كعادته.

عاشت على أمل خبر عنه، فجاءها خبره.

٢٠١٤ اختبأ شعلان طويلا، لكنه علم والسلاح موجه لصدره أن كل مستخف بسر من الأمن مرئي، فمن أراد أن يكتب التاريخ أصبح تاريخا، ومن نوى رحيل السيسي رحل هو.

قل إن الضابط الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم..

في البدء بلغها الخبر بالقبض على ابنها، ثم قيل لها بل حدث اشتباك بالسلاح الآلي، توجست شرا حين نما الخبر إلى أن بعض زملاء ابنها قتلوا، ثم قالت مريم:

ـ محمود خلاص ارتقى.

رددت وراءها الأم باستغراب:

ـ ارتقى.

ـ استشهد يا أمي.

في العزاء أطلقت مريم زغرودة خلعت روحي، وفي اليوم التالي وزعت الحلويات علينا وعلى الجيران.

نشر لخالتي عفاف صورة وهي تبتسم وتشير بعلامة رابعة بزهو، بينما ابنتها مريم بجوارها ترفع بفخر قميص محمود المغطى ببقع دمائه يوم مقتله، ورغم ابتسامتهما الواسعة في الصورة، لكني لا شعوريا تردد بأذني أصوات عويل طوارئ قصر العيني التي طالما سمعتها في صغري.

شيماء محمود شعلان

٢٠١٤ عندما أيقن محمود شعلان أن القبض عليه آت لا ريب فيه، فكر في وجع ابنته شيماء التي عمرها ست سنوات، والصعوبات التي ستواجه أمها لجعلها تتأقلم مع غيابه. اعتزم أن يقلل تعلقها به. ولأنها تعودت كل يوم جمعة أن يصطحبها لزيارة أهله في أوسيم، فهذه المرة خرج وهي نائمة.

استيقظت ولم تجده، لم تصدق أنه تركها، نزلت إلى الشارع واثقة بأنه ينتظرها بالأسفل.

لساعات قعدت شيماء على سلالم البرج الأرضية ترتقب عودته وفي يدها عروستها. في البدء بكت ثم بدأت تعتاد الأمر وتلعب بينما أمها تطمئن عليها من شباكهم بالدور الأول وترسل لها الشطائر.

حارس العقار طمأن الأم على البنت عبر الهاتف الداخلي، والأم نزلت بخمارها لتقنعها بالصعود للشقة، ثم أرسلت جارة لشيماء ابنها الذي يماثلها في السن، لعبا سويا لدقائق ثم تركها الولد خائفا من الوحدة.

جلست الطفلة من العاشرة صباحا حتى العاشرة مساء. رجع والدها ليجدها نائمة على سلالم البرج وفي يدها شطيرة الجبن الرومي، فحملها وهو يبكي.

- أنا ابن كلب.. والله ما عايز أسيبك لحظة تاني.. لكن مش بمزاجي.. والله مش بمزاجي.

في الأسبوع التالي رأيت شيماء وحيدة تترقب قدومه، وأمها

إلى جوارها تبكي بحرقة. نفس مشهد الأسبوع الماضي وبنفس التفاصيل، لكنه هذه المرة لم يعد.

الأب حدث له بعدها ما حدث، أما البنت فما زالت محتفظة بعادتها بإصرار قاطع، تمكث على السلم لساعات كل يوم جمعة وتتوقع رجوعه كما عاد من قبل.

حاولت التخفيف عن الصغيرة بأن أذهب ومعي ابني ليلعب معها، فعلنا مرة وفي التالية رفضت منال طليقتي أن أذهب بولدنا لمن أسمتها «بنت قاتل».

لكن خذلاني للطفلة لم يبدل عادتها في ترقب عودة والدها كل يوم جمعة.

منذ عامين وهي تنتظر.

يونس الدجوي

٢٠٠٣ الناس نوعان: بشر صالحون وضباط.. ويونس ضابط.

رفعوا الغمامة عن وجهي داخل مبنى أمن الدولة بلاظوغلي، فرأيت وجهه الأبيض يعلو البالطو الأسود، ابتسم بلطف مزعج قائلا:

ـ ولا تقلق يا وائل.. البريء عندنا بيخرج في الآخر ولو بعد أربعين سنة.

يقصد طمأنتي، قال لك أربعون سنة.

٢٠٠٣ ليلتها كنت أقلب في القنوات بزهق، أنهيت السهرة بفيلم على «إم بي سي ٢»، فأنا مغرم بمشاهدة أفلام الحركة وأتعاطف مع أي هارب ضد أي ضابط.

نمت فاحتلمت بأني أمارس الجنس مع ممثلة مغمورة من فيلم أبيض وأسود شاهدته ليلا، فبالرغم من حبي للأفلام الأمريكية فإن ممثلات الأفلام العربي تثرنني أكثر، هذه قضية تستحق الدراسة، لم أدرسها وتابعت نومي لأستكمل الحلم، فاستيقظت على فوهة سلاح آلي مصوبة إلى وجهي.

جذبوني فلقيت نفسي واقفا في منتصف الغرفة وأضواء الشقة كلها مضاءة.

سحبني أمين شرطة من يدي للصالة، لمحت أمي تبكي والضابط يطمئنها، وضعوا عصابة على عيني ونحن نهبط الدرج، وفور نزولنا للشارع سمعت جلبة شباك يفتح فهتف الضابط:

ـ أي مومس حتفتح الشباك حنطلع نفتحها هي شخصيا.. نزل السلاح يا عفت.

واضح أن عفت يشهر السلاح في وجه جارة لنا، وواضح أن علاقتنا بجارتنا انتهت للأبد.

سمعت الشباك يغلق بقوة، ركبت سيارة الشرطة مرددا آية: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.. أجراها الله على لساني، فشعرت بطمأنينة كأني أقرؤها لأول مرة.

وصلنا مقر أمن الدولة بلاظوغلي، أجلسوني وحيدا. أشعر بأن الضابط الذي سيحقق معي الآن يراقبني، لا أعلم أين هو، لكني أشعر بنظراته متسلطة نحوي، أحاول ادعاء البراءة، فإن لم أكن أرى الضابط فإنه يراني.

٢٠٠٣ البقاء ها هنا طويل..

نقلوني للاستقبال، حولي أصوات صفع وركل وأزيز كهرباء. تؤلمني الرجاءات المنسحقة أكثر مما تؤلمني صرخات الوجع، الألم مفهوم مداه لكن الإذلال لا مدى له.

جاري يعلم القواعد، يصرخ لضربات تخطئه، فلو شعروا بتعاليه على الصراخ لواصلوا بعنف أكثر، لا يتحدى ويرضي غرورهم كي لا يتحول الأمر لصراع شخصي.

أمروه بخلع بنطاله ليبقى بملابسه الداخلية، توترت وتوجست من إهانة تقترب.

ـ اجمد.. أنت متوصي عليك.. كلها ساعتين ويمشوك.

قال لي أمين الشرطة، فانتبهت للحقيقة البسيطة التي طمسها توتري، أنا لم يمسني أحد.

٢٠٠٣ أدخلوني إلى الضابط وليد الدجوي، وقفت أمامه لا أملك سوى نفسي ويملك نفوس رجال، سمعت تقليب أوراق فاستنبطت أنه يقرأ ملفي.

ـ أهلا يا وائل.

شال عن عيني العصابة وأجلسني على طرف مكتبه.

ـ حبيبي.. ممكن أفهم أنت ليه عملت في نفسك كده؟

تصورته يسألني فهممت بالإنكار إلا أنه واصل:

ـ عمك قاضي كبير ورجل محترم.. وابن عمك هشام باشا من مؤسسة لها احترامها وهو بذات نفسه لسه قافل يوصيني عليك.

حمدت الله في سري على نعمة عائلة والدي، وكل ما بعد ذلك قلته في سري، فلساعة ونصف الساعة تحدث وحده.

حاول إبهاري، استعرض أمامي أسماء معظم قيادات طلبة الإخوان بالكلية ثم قال لي:

ـ لكن أنت غلبان.. جاي معاهم في الرجلين.. اطمن.. ميزتي إني بفهم اللي مبيتقلش قبل اللي بيتقال.. ولو بعرف أعمل حاجة فهي أني باقرا الناس صح.

أراني صور محمود شعلان ومحمد رفيق وآخرين لا تعلمونهم الضابط يعلمهم. يعتقد الدجوي أن رفيق هو مسئول الكلية على عكس الواقع، فلديه أنصاف معلومات لا أكثر.

قال إنه يريد أن يريني شيئا، ثم أخرج صورة، لوهلة اعتقدتها صورتي وأنا أهتف في مظاهرة، لكني فوجئت بصورة قديمة بائسة منتزعة من ملفي بالكلية.

سألني ألم تعلم بأن الأمن يرى؟ استفاض في كلام عن محاولات

تقسيم مصر كما قسموا السودان، وحين انتهى من الكلام كنت انتهيت من الملل.

ـ فهمت يا بني.. أفهم.. أنا عايز أسيبك وأروح أنام.

ـ أحسن يا فندم.. أهو تعبد ربنا شوية.

قلتها هامسا لنفسي، أجزم أن صوتي لم يتجاوزني، لكنه ابتسم ابتسامة واسعة كأنما سمع أو كأنها دعابة راقت له.

ثم انقلبت هيئته لجدية التعامل مع نظيرك لأول مرة وقال:

ـ عارف حبيبي.. أصحابك الإخوان حيوصلوا للحكم لأن مفيش غيرهم.. القصة مسألة وقت.. عارف ساعتها حيتعمل معانا إيه من اللي أنت ماشي معاهم دلوقت؟

سكت بينما استطرد الضابط:

ـ طبعا أنت متخيل أني حقول لك حيدبحونا مثلا.. أبدا.. ولا أي حاجة من دي.. من كام شهر الأمريكان راحوا يقضوا على ديكتاتورية صدام الشريرة، وبعد ما حاربوا استعانوا بمين؟ بنا احنا.. ظباط أمن الدولة في نظام الديكتاتور.. احنا اللي عارفين كل حاجة عن البلد.

قدرت أن الحكمة ألا أتحداه فسكت ليواصل:

ـ بالمناسبة.. أنت طبعا حتفرح أول يوم في حكم الإخوان وتقول حرية، وتاني يوم حتعترض.. عارف ليه؟ عشان أنت وسخ، فاكر أنك حتصلح الكون.

كنت أريد إنهاء هذا الهذي بأي شكل، قلت لنفسي إن أصوب رد فعل أن أغلق أذني وأهز رأسي كأني أوافقه الرأي، فعلت فأكمل:

ـ وأما تعترض عارف إيه اللي حيحصل؟ في الآخر حيعتقلوك، وأنا حكون سجانك.

كررها كأنما أعجبته الجملة، ثم سألني:

ـ عارف ليه حيعتقلوك وأنا حكون سجانك؟

ـ ليه يا فندم؟

ـ لأننا شعب حقير ميمشيش غير بالكرباج.. مستحيل البلد دي يكون فيها ديمقراطية.. احنا مش السويد.. ده شعب مينفعش معاه غيري.. العيب مش فيك ولا فيّ، لكن العيب في الشعب القذر.

أنهى نظريته ثم ابتلع ريقه أمامي ولم يمت مسموما، ليس مؤذيا كما كنت أتوقع.

ـ عرفت العيب في إيه؟

ـ في الشعب القذر يا فندم.

نفخ كأنما أثقلت عليه بالحوار الذي لم أشارك فيه تقريبا وقال:

ـ إياك العيال في الجامعة يلعبوا في دماغك تاني.

ـ حاضر يا فندم.

ـ روحوه.

أمسكني أمين الشرطة فاستوقفني الدجوي قائلا باهتمام بدا حقيقيا:

ـ حبيبي.. خللي بالك من نفسك يا وائل.

ونهض واحتضنني.

٢٠٠٩ بعدها انتقلت للسكن جيرته.

في الشقة الجديدة الله فوقنا وكذلك يونس الدجوي، أقمت بالدور السابع وضابط أمن الدولة في الرابع عشر.

لا، لم يصدف أن سكنت بجواره بعد الزواج، أنا ارتحلت للسكن إلى جواره.

رأيته يستقل سيارته أمام برج سكني بالمعادي أبحث فيه عن شقة

إيجار لأتزوج فيها، سألت عامل أمن البرج الذي يريني الشقة فقال إنه من السكان، فاعتزمت استئجار الشقة قبل أن أصعد لأراها، إيجارها يزيد قليلا عن أخرى بعمارة ملاصقة، لكني اخترتها.

كنت رسخت قدمي بالعمل بالصحافة، أعمل بجريدة مستقلة شهيرة وأهاجم ممارسات الداخلية بجرأة.

وأريد أن أراه الآن.

لم أعرف تحديدا ما شدني إليه، لم أتعرض له ولو بابتسامة لزجة، رغم أنني كنت أملك ثقة لا متناهية بحماية نجاح مهني ونقابة صحفيين قوية وشبكة علاقات نافذة.

طوال سنوات الجيرة بدا مسالما ويتجنب الاحتكاك بالجيران. يقال إن سبب ذلك رغبته في تجنب أن يرهقوه بطلبات الوساطة للجهات الحكومية.

أرقبه في صمت دون رد فعل منه حتى اعتقدت أنه لا يذكرني، لكن حين صادفته في المصعد قال لي:

ـ شفتك في التلفزيون من أسبوع.. ما شاء الله صحفي وطني لك رؤية.. سلامي لعمك وابن عمك حبيبي.

الله يراك، وكذلك يفعل يونس الدجوي.

٢٠١١ ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم، لكن جمعة الغضب اكتسحتهم ليميز الله الضابط من الطيب، وحين انقضت الجموع على سيارات الأمن المركزي لم يمتلك الدجوي شجاعة، لكنه امتلك ساقين.

بعد اختفاء الشرطة إثر مظاهرات يناير وقف الدجوي معنا بزي مدني وسلاح عسكري في لجنة شعبية لنحمي الشارع. نتجمع حول الخشب ونشعله بينما تأتينا أخبار فتح السجون، ليلا ونهارا يشرف

الدجوي على اللجنة الشعبية، فأتساءل متى يقصد عمله؟ وأين ذهبت الشرطة؟

ـ جريوا لأنهم مرضيوش يضربوكم بالنار.. الداخلية فيها فوق الـ ٣٠ ألف ظابط وكلنا كنا في الشارع.. لو كل ظابط مننا ضرب طلقة واحدة كنا هنموت لكم ٣٠ ألف.. أنتم مات لكم ٨٤٠ نفر وبس.

بدا صلبا، لكنه كسر يوم اقتحام المتظاهرين لمقر عمله بأمن الدولة في مارس ٢٠١١، أخبرني زميلي القديم بالجامعة إسماعيل صلاح متفاخرا أنه مد إصبعه وغرف من مؤخرته، لكن محمد رفيق أكد لي أن إسماعيل يبالغ، وكل ما حدث أنه نفذ لمكتب الدجوي الخالي والتقط مجموعة صور للذكرى لا أكثر.

٢٠١١ ثم نقل الدجوي إلى شرطة السياحة..

خفت بريقه بعدما أصبح يرتدي زي الشرطة الرسمي وليس زيا مدنيا كما كان يفعل خلال عمله بأمن الدولة، وبعدها بأسابيع اختفى لفترة، قيل إن وزارة الداخلية أرسلته رئيسًا لبعثة الحج، وعقب عودته رأيته أكثر من مرة ينزل ليؤذن للصلاة في المسجد المتاخم لعمارتنا ويمكث في المسجد لساعات، ترك لحيته بشكل لا يتلاءم مع كونه ما زال في الخدمة، وبمرور الأشهر زاد وزنه بما لا يليق بضابط.

جالسته كثيرا بالمسجد عقب الصلاة، بدا محطما، وحكى أن أباه كان ضابطا بمكافحة المخدرات ثم مات بجرعة مخدر زائدة وهو يتعاطى مع مهربين، قال إن ما فعله والده أساء لسمعته لكن يونس صنع اسمه في وزارة الداخلية بنفسه. ثم تحسر الدجوي على أن الحال انتهى به كباشٍ يحرس أهرامات بقيت سبعة آلاف عام دون أن يحرسها أحد.

حدثني باعتبار أن ورائي المظاهرات والشباب فسألني:
ـ وانتم ناويين تعملوا إيه؟
ـ نهار أسود.. أنت فاكر أني مهم؟
ـ أنت مهم فعلا حبيبي...
ـ وربنا ما ورايا حد.. أساسا أنا بتشتم على تويتر.. بيقولوا عليا إصلاحي.
ـ تويتر ده مجلس القيادة الجديد.. زي الظباط الأحرار سنة اتنين وخمسين.. وانت بتتشتم لأنك مؤثر.
ـ أنا تافه.
ـ لا أبدا.. مشكلتك أنك صدقت في اللي إحنا كنا مصدقينه عنكم.
التقيته بينما يلعب مع كلبه البوليسي المتنمر أمام مدخل البرج، تحدثنا قليلا، وحين سمعنا الأذان سرح لبرهة، ثم حكى لي عما كان يفعله في التسعينيات، حين اعتاد أن يترقب مع قواته أذان الفجر ثم يقتحم منزل الجهادي مع صخب أذان المساجد الكثيرة ويصفيه، بينما جلبة الميكروفونات تغطي على دوي الرصاص، ثم ينصرف هو وقواته سريعا قبل انتهاء الأذان.
ـ الحمد لله ربنا تاب علينا.
يقول الدجوي..
وبمرور الوقت توطدت علاقتنا وزرته في منزله أكثر من مرة. شكله بالجلباب المنزلي مثير للرثاء، لكني لم أرث له، أصبح لديه هوس بجمع صور من أرداهم وتأملها ليلا، خمنت أنه نتش الصور من ملفاتهم الأمنية، أخرج لي صورة شاب في العشرينيات وقال:
ـ تفتكر في ظرف تاني كان ممكن أنا وهو نبقى صحاب.
فهمت أنه واحد ممن قتلهم، تأمل الصورة قليلا وأضاف:

ـ والله شكله كان بني آدم لطيف جدًّا.

٢٠١٢ الضباط نيام فإذا خرج الناس للشوارع انتبهوا..

بدا الدجوي مهتما بتطوير جهاز الأمن وإصلاحه، حدثني عن ضرورة استبدال الزي الشرطي لتغيير الصورة الذهنية لقوات الأمن، وكذلك تكلم معي عن استدعاء خبراء من بلدان ديمقراطية، وتواجد رقابة قضائية بأماكن الاحتجاز.

ـ أهم حاجة الرقابة.. الواحد أيام ما كانت إيده متسابه افترى الصراحة.

ثم يشكو لي:

ـ أي مخبر غبي أفيد من أي ظابط فينا إذا كنا بنعرف المعلومات عن طريق ضرب وسلخ المتهم.. لازم نتدرب على البحث الجنائي الصح.

أو يقول لي:

ـ يا رب أنتم تعملوا حاجة حلوة للبلد.. إحنا خلاص خدنا فرصتنا..قول لأصحابك بتوع يناير إننا كويسين.. المنظومة هي اللي كانت كده.

يتصور أنني نافذ، أوضح له أن المجلس العسكري من يحكم، فيجيبني:

ـ بكره تحكموا.. لكن إياكم الإخوان يلدغوكم.

لذا تفهمت غضبه الهادر عندما علم أن غالبية أصدقائي انتخبوا مرسي ضد شفيق حين لم يبق خيار سواهما في إعادة انتخابات الرئاسة، وعندما وصل الإخوان للرئاسة لم تعجبه ممارستهم وسألني:

ـ هي الناس دي ما بتتعلمش من اللي حصل لمبارك واللي حواليه؟

ـ هو مبارك واللي حواليه حصل لهم إيه؟

أطرق الدجوي مفكرا.

٢٠١٣ ولا تدري لعل الضابط يحدث بعد ذلك أمرا..

من قتل يَقتل مرة أخرى ولو بعد حين، الدجوي عاد لعمله بعد بيان الجيش في ٣ يوليو، استدعوه للأمن الوطني حينما أصبح القتل على نفقة الدولة، ارتفع شعار تحيا مصر ويسقط الجميع، ولأننا من الجميع ألقى الدجوى القبض على أغلبنا.

تصاعدت سمعته كشخص الرصاص إجابته النموذجية للرد على كل الأسئلة، شاع عنه أنه إذا خاصم قتل، وقيل إنه دبر تصفيات جسدية واسعة، وسمعت أنه قتل اخوانيا بينما يصرخ بجنون «الوطن باق وكلنا زائلون»، لكنني لا أثق بكل ما يقال.

رأيته مرة وحيدة بعد عودته للعمل، فبادرني قائلا:

ـ مش قادر أتخيل.. إحنا إزاي وسطنا كمية الناس اللي بتكره البلد دي؟ لما أنتم كده أمال مين نزل في ٣٠/ ٦؟ ليه زهقتونا ونزلتم ومات زمايلنا من الجيش والشرطة فداكم؟ ما كنا في حالنا والإخوان اللي انتخبتوهم بالديمقراطية بتاعتكم فاشخين البلد والحمد لله.

سألته عما يردد عنه، فقال كذلك الضابط يفعل ما يشاء، وأنذرني أن قد اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، رددت عليه الهجمة بأن الحساب ربما سيكون للكل، فقال صراحة إنه لا يُسأل عما يفعل وهم يسئلون، ذكرته بـ«يناير» وخطر تكرارها فقال:

ـ حتعملوا مظاهرات تانية كبيرة؟ يعني مرتباتنا حتزيد؟ لو شايفين نزولكم الشارع من جديد في صالح مصر إحنا رقبتنا فدا مصر.. واهو نقعد لنا سنتين تلاتة في الساحل الشمالي إجازة من الشارع.

قال إنهم من سيكتبون التاريخ لأن المنتصر هو من يفعل فأخبرته أن ليس بينكم من يكتب. وحين اتهمته وزملاءه بسفك دماء ابن خالتي محمود شعلان دون محاكمة ولا قانون قال:

ـ حبيبي.. القانون ده وضعي وضد الدين.. الدين بيقول «اقتلوهم حيث ثقفتموهم».. ده كلام ربنا عن الخوارج أمثال قريبك.

قالها بغل صاف كان آخر ما سمعته منه.. كنت طلقت منال ووجودي بأبراج المعادي بات محدودا بزيارة ابني، غاب عني لعامين، ثم قرأت أن خدمته انتهت وأحيل للتقاعد بعد إصابته في تفجير بتر خلاله يده اليسرى.

٢٠١٦ في غرفة الكنترول حيث أعمل معدا تلفزيونيا أسمع صوتا مميزا.

ـ حبيبي.. مشروعنا معتمد تمامًا على شباب معانا في الجامعة.

لا، ليس صوت منال، لست مختلًا لأسمع حس منال في كل صوت نسائي. يعتقد أصدقائي أنني أصبحت مهووسا بذكراها منذ طلاقنا، لكنني أؤكد أنني لست كذلك.

إنه صوت يونس الدجوي لكنه أنثوي، إن كان هناك شيء كهذا، انتبهت لصوت فتاة تعرف على الشاشة بأنها منة الله يونس الدجوي، فعرفت أن هناك شيئا كهذا.

كانت في مداخلة هاتفية لبرنامجنا عن مشروع «حنلونها» الذي تشارك فيه لتلوين شوارع القاهرة الرمادية، فابتسمت لذكرى قديمة تشوشت حتى نسيت أنها كريهة، قبل أن يسألها المذيع:

ـ بابا بيشتغل إيه؟

ضحكت الفتاة بطفولية، بدت مرتبكة للحظة ثم خفضت صوتها وهي تقول بما شعرت أنه خجل:

ـ حبيبي.. بابا خبير إستراتيجي وأمني.

جميلة

٢٠١٦ كلما تذكرت كلية الآداب أفكر في حديقة ساعة الجامعة والمبنى الجديد الضخم بأدواره الخمسة وأفكر في جميلة.

أتذكرها وكل ما أريده ألا تتذكرني، فلم أكن أريد إيذاءها ولكني فعلت.

أنا أمنيتها، لذا فكل ما تحلم به لم تجده.

٢٠٠٣ وصلتني رسالتها عندما كنت أفكر في الخلافة الإسلامية.

فحينما كنت أدخل المدرج وأبتسم ثم ألقي عبارات أقرب للصوفية عن حب الله، لحظتها تلقيت رسالة نصية على هاتفي من رقم مجهول.

«أنا عارفة بحبك لي، وكل همي أقول لك حاجة واحدة.. أنا كمان بحبك».

تحيرت، فلم أكن أحب صاحبة الرسالة، عرفت ذلك بسهولة لأني لم أكن أحب أي فتاة أصلا.

يقابلني اهتمام أنثوي لافت منذ بدأ نشاطي مع ابن خالتي محمود شعلان وصديقي الماحي، فكلية الآداب غالبيتها طالبات، اعتدت التلميحات العاطفية واحترفت وأدها بالتجاهل. اقتنعت بأن ما يحملونه نحوي ليس حبا، وإنما مجرد اهتمام بذكر نادر الوجود بالكلية يبدو مبتسما ومتدينا.

تجاهلت رسالتها، فوصلتني الرسالة الثانية تحمل موعدا تقول صاحبته إنها تنتظره منذ عام للقاء أمام كافتيريا حورس بالكلية.

عام! أضاعت عاما تحب شابا لا يعلم بوجودها، لن أسمح بإهدار عمرها في لا شيء، سأنهي القصة.

٢٠٠٣ أخطط للقاء.

أوقن بأن تأثير إدراكها أنني لا أعرفها سيكون قاسيا، لن أجرحها ولن أكرر السفالة التي ارتكبتها معي هدى والي.

لن تعرف أنني لم أعرف أبدا بوجودها.

صعدت للطابق الأول بالمبنى الرئيسي، مكان مثالي يتيح التعرف عليها من أعلى قبل أن تراني، الخطة أن أتصل بها فأبصرها حين أسمع رنين هاتفها وتستجيب للمكالمة. خطه رائعة، ها هي ذي الآن ترد بالفعل، أتعلم؟ هذا غريب، فلا أحد بالأسفل.

ترد وتقول إنها صادفت زميلات لها أمام الكافتيريا لذا تنتظرني فوق، انتابتني رعدة، ففوق هذه تعني أنها بجواري، قبل أن أبحث حولي عن وجه مألوف جاءني سريعا النداء من خلفي ناعما:

- وائل...

التفت لمصدر الصوت، وجه جديد لا أعرفه، حاولت التحكم في كل عضله في وجهي كي لا يظهر أي استغراب على ملامحي.

بدت محبطة، فهل انتبهت؟ لا أعلم، لكن ربكتي زادت الموقف حرجا، بدأت كلامها بتعريف نفسها كأنما تخشى ألا أعرفها.

- أنا جميلة.. كنت سألتك عن النقاب واعترضت على كلام حضرتك إن النقاب مش فرض، واستشهدت بكلام للشيخ محمد حسان.

تذكرت الموقف مشوشا، هناك فتاة ناقشتني لا أدري من هي، ما أذكره أنها فتاة محجبة بيضاء وانتهت القصة.

ـ أنا عارفة.

نظرت إليها بدهشة فتابعت:

ـ عارفة إن دخولك المدرج باستمرار كان هدفه إنك تشوفني.

استوعبت ما تقول، فعادتي إلقاء نظرة على المدرجات يوميا، ومن خلال وجوه الطلبة بالصفوف الأولى التي أصبحت أميزها أعرف أي دفعة تلك، فإن لم أكن تحدثت إليهم هذا الأسبوع أفعل.

تصورت الفتاة من دخولي المتكرر للمدرج أني أتطلع إليها أو أبحث عنها.

ـ وأنا كمان بحبك.

قالت جميلة.. حاولت أن أملأ نظرة عيني الفارغة بأي رد فعل فلم أجد، تعثرت أمام نظرات الحب في عينيها، ثم رددت هرائا مرتبكا عن أنها رائعة لكنني لا أفكر في الارتباط. فقاطعتني كأنما تقدم الحل:

ـ أنا ولا عايزة منك حاجة.. أنا بس عايزة نتجوز ونكون مع بعض على طول.

سكت وفكرت للحظة متى ينتهي كل هذا، وأمام لمعة عينيها بدموع وشيكة خطر لي لثوانٍ أن أقول لها إنني سأتزوجها.

ـ أنت سيد شباب أهل الجنة.

ـ أنا؟

ـ حنان لبست الحجاب، وصافي وميادة بدءوا يصلوا، ومي بطلت تسرق من محفظة والدها.. أنت عظيم يا وائل.

لم تحبني، أحبت داعية متدينا دمه خفيف، هذا ليس أنا، أنا فقط أمارس نشاطا راق لي مع أصدقاء لا أكثر.

بائس أن سعادتها رهن كلمات لن أقولها. تسألني ما المانع في الارتباط بها، فأقول لنفسي وما الداعي؟ لن أتركها كالمعلقة فالله

لن يغفر لي إن خنت ثقتها للتسلية أو للتجربة، وأنا لا أحمل لها أي مشاعر، الصواب أن أحسم.

قلت جملا كثيرة أغلبها مبتدأ بلا خبر لكنها كافية لتستنبط منها أن قصور أحلامها أصبحت خرابة، كلام فارغ لا أعي تفاصيله لكني أذكر وجهها وهو ينقلب من الهيام للصدمة.

نظرت لي بذهول كأنما تستوعب. بينما تراجعت أنا خطوة للوراء بما يوحي بنهاية الحديث، فدنت هي خطوة:

ـ أنا البنت.. مينفعش أتقدم وأنت ترجع.. لا يمكن تكون بالجمود ده.

قالت وشفتاها ترتعشان فارتعشت، لم أجد ردا يسعف على تجاوز الحرج فقلت دون تفكير:

ـ الطيبون للطيبات.. وإن شاء الله سيهبك الوهاب بني آدم أحسن.

ـ كفاية كفاية اسكت خالص.. أنا خلاص فهمت.

أدركت سماجة ما قلته، أما هي فضربت كفيها بعضهما ببعض وقالت بحب:

ـ أنت غبي ومش فاهم حاجة.. ضيعت حاجة حلوة قوي.

استدارت ببطء، وابتعدت.

٢٠٠٣ بعد دقائق وجدتها أمامي.

كنت تجمدت في مكاني، وقفت طويلا أفكر في اللاشيء. قذفت ورقة مطوية بيدي، وهي تقول: «رجائي من ربنا ألاقيك بعد الموت إن كنت معرفتش ألاقيك قبله».. وتركتني.

«بسم الله الرحمن الرحيم.. لا أعرف ماذا أقول، وإذا قلت ماذا أفعل بعد قولي، فكأني على مشارف جرح أكاد

أستقبله بكل ابتساماتي، فرغم طعنات الألم من أغلى إنسان، الإنسان الذي كنت أتخيل دائما أنه سيأتي يوما وسأتحدث معه بأجمل كلام، ذلك اليوم أتى بالفعل، ولكنه أتى بما لا تشتهي نفسي.

لو تعلم كم أحببت هذا اليوم في تلك السنة الماضية، كم تخيلته وتمنيت أن يأتي، فالحب ليس بيدي، فالله سبحانه وتعالى يزرعه، فأحمد الله الذي زرع في قلبي محبة ولم يزرع كرها. والآن كل ما أتمناه هو أن أشعر بوجودك وإن لم أرك ثانية، يكفيني أني تحدثت إليك ويكفيني أنك استمعت وأني شعرت بأني بجوارك ولو لحظات، أتمنى لك السعادة في ظل طاعة الله».

كانت ترمقني وأنا أقرأ رسالتها، وفور أن رفعت رأسي إليها استدارت واختفت وسط زحام الطلبة.

٢٠١٦ شيء غال ضاع مني.

لم أحبها، لكني أحببت حبها، أذكر نفسي دائما بأني لم أضيع عمرها في أمل كاذب، فلم أشعر بالذنب؟

حسمي مع جميلة أفضل من ضياع بهجتك بعد أن تقترب منها، كما فعلت منال باختفائها من حياتي.

دوي تحطم قلب جميلة يطاردني، خطر لي مؤخرا البحث عنها عبر فيسبوك وتويتر، فعلت ولم أجدها.

كارولين الأعصر

٢٠٠٠ تصور أن حركته محسوبة، لكن رد فعلها لم يكن محسوبا.

أمام البوابة الرئيسية للجامعة أرى زميلتي تعبر الطريق باتجاه حديقة الأورمان، سائق ميكروباص (جيزة ـ دقي) حاول إثارة انتباهها بحركة مفاجئة، زاد سرعته ليستمتع بمشاهدة حركة جسمها واهتزاز صدرها أثناء هرولتها للرصيف المقابل.

ابتسم المارة وهي تجري بفزع، لكن الرعب جعلها تفترض أنه فعلا سيدهسها، ركضت بشكل مبالغ، فصدمتها السيارة المجاورة، طارت في الهواء لتهوي على بعد أمتار.

وحينها تبدلت الملامح وانقلبت ابتسامات العابرين لغضب. اجتمع المارة حول سائق الميكروباص يسبونه، وتطوع أحدهم وكسر له المرايا الجانبية. في حين تبرع السائق الذي دهسها بتوصيلها، وبصحبته انتقلت معها للمستشفى.

حسنها خدشته كدمات ورضوض وجرح تحت العين. وحين اطمأننت عليها قمت محرجا تحسبا أن تفسر بقائي بلزوجة ذكورية، استأذنت في الانصراف لكنها التمست بقائي إلى جوارها، فالتصقت بمقعدي بأمر رقتها.

كارولين طويلة، وعادة ما ترتدي قميصا عاري الكتفين، كنت أعرفها كزميلة في الكلية لأن ملابسها «ملفتة». اتصلت كارولين بأهلها لتطمئنهم، ثم طلبت مني توصيلها كي لا تضطر والدتها العجوز للحضور.

بدت لطيفة، اكتشفت أنها بدورها تعرفني كزميل بالقسم وإن لم نكن تبادلنا حديثا من قبل، بعدها أصبحت تطلب مني يوميا إيصالها من الجامعة لمنزلها باعتباره في سكة بيتي.

صارت عادة، وكلما أوصلتها مرة تفهمت مطلبها أكثر، فكارولين تريد حارسا، فمن أحببت الاستماع لأنوثتها لم أستمع سوى لصوت رعبها..الرعب من المشي ببطء، والرعب من الانتظار بالشارع لأن ذلك بالنسبة لأغلب المارة دعوة للتحرش، والرعب من الابتسام لذكر كي لا تكون أنثى وقحة، والرعب من منح رقمها لغريب كي لا تكون رخيصة، والرعب من نظرات الاحتقار المقصودة في عين سائق التاكسي.

تخاف أن تمتد يد لجسمها في المواصلات، تخاف بائع تذاكر المترو من وراء الزجاج عندما يضغط طرف أناملها، تفزع إن مال شاب على أذنيها في الزحام لأنها تعرف طبيعة التعليق.

تخاف من كل سيارة تبطئ بجوارها، تهاب ضربة، خبطة، لذلك هي مستعدة في أي لحظة لانقضاضه عليها، تسير في الطريق جسدها متشنج ويدها تقبض بقوة على حقيبتها، حيث المطواة الصغيرة التي تخاف أيضًا أن تستخدمها.

حرستها، الأمر لم يتطلب مجهودا مني فلديها مهارات استثنائية، فهي تنتبه لإيقاع خطوات الشخص القادم خلفها وبنظرة جانبية تستطيع كارولين أن تقيم مدى خطورته، ومن حركة جسده تعرف إن كان التعامل معه يستدعي عبورا سريعا للرصيف المقابل أم الاكتفاء بادعاء الثقة واللامبالاة.

كارولين تعرف المخاطر، لكنها تعرف أيضًا ما تريد.

- يا رب أنت وحدك العالم.. نص مشاكلي تتحل لو لبست حاجات صدرها مفتوح أكتر حاجة بسيطة.

لم أسترح لأن تفعل، فالمرة الوحيدة التي ارتدت شيئا كهذا كانت تجربة أليمة لي، شعرت من نخز النظرات بأنني أسير جوار كائن خرافي يرتدي حلة فضية وخوذة وهبطنا معا حالا من سفينة الفضاء، أربكني وخز نظرات النساء ترشق جسمها كأنها ساحرة ملعونة تكشف سر ألاعيبهن.

خلال دراستنا الجامعية ارتحلت كارولين لبيت آخر لأن شارعهم به مدرسة إعدادية بنين ومرور زميلتي الجامعية أمامها في أوقات خروج الطلبة من اليوم الدراسي هو بالضبط ما يمكن وصفه بـ«تجربة كابوسية». وفي البيت الجديد احتفظت بزهرية رخام مناسبة لحجم قبضة يدها بجوار الباب وقرب عداد الكهرباء والغاز، لتدافع عن نفسها حال تحرش المحصل بها.

ـ انهارده واحد بص على صدري وفتح عينيه للآخر وزعق بصوت عالٍ أستغفر الله العظيم.. وواحد تاني فصصني من فوق لتحت وفي الآخر قعد يصرخ حرام عليكم يا كفرة الناس صايمة.

حدثتها عن هوس الهيمنة على المجال العام عند بعض المتدينين، فقالت:

ـ ده الهيجان الإسلامي الوسطي الجميل.

ضايقني التعبير، وطالبتها بعدم التعميم، فقالت:

ـ عندي مشكلة في عدم التعميم.. وارد يكون مش كل الناس، لكن على الأقل كل اللي بشوفهم في الشارع.

وضحكت كارولين، ثم استدلت لإثبات وجهة نظرها عن دقة التعميم بأنها تفترض أن جميع الشباب سائقي الدراجات النارية متحرشين، والتجربة أثبتت أن اعتقادها لم يخب ولو مرة.

٢٠٠٣ جمعتنا لقاءات في مكتبة مبارك بالجيزة، وهناك عرفتها على زميلي بالكلية محمد رفيق، أبدت مودة للتعرف بشاب إخواني، وقالت له إنها لا تصدق الدعاية السلبية التي تقال عنهم في التلفاز، أما هو فبادرها:

ـ لكن أنا عندي مشكلة كبيرة مع المسيحيين.

أحبطت كارولين، وتوقعت حوارا سقيما معتادا فقالت:

ـ تحريف الإنجيل والكلام ده؟

ـ لا.. لكن لأنهم مجتمع طائفي جدًّا.. تعرفي إن المسيحيين مفيش فيهم ولا واحد مسلم.. منتهى الإقصاء للآخر بأمانة.

لم تستوعب الدعابة للحظة، ثم ضحكت للمباغتة، فتابع مازحا أنه أيضًا لا يصدق بأنهم يقبلون بعض ليلة الكريسماس، وأن أمها تتبادل كئوس الخمر مع الرجال، أو أن لديهم مزرعة خنازير فوق سطح منزلهم.

ابتسمت كارولين، راق لها روحه المرحة وانبهرت بحضوره. عندما توطدت صداقتهما صارحته بأمنيتها أن تتوحد القوى السياسية للإطاحة بكابوس اسمه حسني مبارك.

على الجانب الآخر بدت له مدهشة وهي تقول:

ـ كان نفسي أكون قديسة وفشلت؛ لأن شعري خشن وعيني مش خضرا.

كانت السمراء ذات الشعر المجعد تهزأ من صور القديسات وملامحهن الغربية، سألها رفيق إن كانت ملحدة، فقالت ضاحكة:

ـ ملحدة؟ لا طبعا.. ده ظلم لولادي.. من حق ابني أما يتضايق يصرخ ويقول يا دين أمي.

ضحك رفيق على دعابتها، فزجرته:

ـ اسكت يا بني.. أحسن ما أصحابك يقيموا عليك الحد.

ـ حلو.. وأما نموت نخش النار مع بعض.

تبسمت، رغم تلميحه لما يعتقد أنه مصيرها، وكعادتها حدثته عن مشكلتها الأزلية:

ـ قدامنا ٥٠٠ سنة على ما الرجالة يفهموا إن البنت لبسها لنفسها مش لهم.. وإن الفستان القصير لبس عادي للبنات في كل الدنيا، من غير ما نلاقي شباب منهارة وبطون تشفط وعيون تنط لقدام وتعليقات قذرة.

ابتسم وهز رأسه فبدا متفهما، لكنه لم يعقب.

٢٠١١ ثم وجدتها تهتف..

كنت أسير في مقدمة مظاهرة هائلة حين انضمت لنا مسيرة أخرى أضخم قادمة من الاتجاه المعاكس، حشود كبيرة تهرع إلينا فنذوب في بعضنا.

بعد اختفاء طويل لكارولين من حياتي عقب التخرج صادفتها ضمن القادمين، احتضنتني بحب أخوي، أمسكت يدي وهي تسير أمامي وتسحبني لتريني الحشود:

ـ بص على ناسنا.. انهارده أتخلقت بلد جديدة.. أنا ماشية والناس حاميني.. قدامك مصر الحقيقية.. بكره لنا.. بكره بتاعنا.. وحياة الأمان اللي خطفوه مني.. وحياة كل خطوة رعبتني ورعشت قلبي.. شباب جديد حينضف كل حاجة قذرة في البلد دي.

ميدان التحرير مملكتها، تمشي منتصبة، ولأول مرة تشعر أنها ليست طريدة، تعرفني على أصدقائها المتناثرين في الخيام كأنما تستعرض جيشها، تشرح ما أرى من لافتات ومنصات كأنها

مرشدتي، وحين افترقنا رأيتها تجري في الميدان بسعادة باتجاه خيمتها.

بعدها، بدت خائفة من أن تضيع الأحداث الطائفية ما حصدناه بتنحي مبارك، فأقنعها رفيق بانتخاب عبد المنعم أبو الفتوح للرئاسة باعتباره مرشحا توافقيا، لتفويت الفرصة على الانقسام بين معسكر مدني وآخر إسلامي.

انضمت كارولين لحملة عضو مكتب الإرشاد الأسبق، لكن رفيق نفسه انسحب من حملة أبو الفتوح وانضم لحملة مرسي، وبدورها انسحبت حين ضم أبو الفتوح لحملته حزب النور السلفي.

وفي جولة الإعادة حاول رفيق إقناعها بانتخاب مرسي باعتباره محسوبا على يناير، لكنها قالت له إنها غير مطمئنة وقاطعت الانتخابات. ويوم إعلان فوز مرسي نزلت الشارع لتشاهد احتفالات أنصاره، فدنا منها شاب بلحية خفيفة، خرج لها من وسط الجموع وضرب بكفه على سطح سيارتها.

- بكرة نلبسكم الطرحة يا لبؤة.. ومرسي يقعدكم في البيت.

لم تدر هل لمح الصليب أم أنه قال ما قاله لمجرد إن فستانها قصير. كتبت الموقف على الفيسبوك بحياد وكأنما حدث لامرأة أخرى.

ثم أصبح اسمها في العائلة «المسيحية العبيطة التي لم ترشح شفيق»، يحملونها مسئولية كل ما يفعل مرسي، كأنما هي من أتت به للرئاسة لمجرد أنها قاطعت.

اشتبك أغلب شباب عائلتها مع الإخوان في الاتحادية، وحين عادوا إليها يحملون العصي في أياديهم، أدركت أن عليها تحويل أوراقها إلى قسم الإخوانفوبيا.

ـ أنا خوفي زاد عن الأول يا وائل.. مبارك كان حقير لكن ولا واحد إسلامي كان يقدر يتفرعن علينا أيامه.. كانوا بيخافوا منه.

قيل لها إن الحكام الجدد جعلوا أهلها أذلة وكذلك يفعلون، لكنها تمسكت بالأمل ولجأت إلى مكتب رفيق بالرئاسة، استقبلها بترحاب لكنه فيما بعد لم يرد على اتصالاتها أبدا.

آلمها ذلك، وربما كان سيسوءها أكثر لو عرفت أنه قال لي بعد نزولها من عنده:

ـ عندنا مؤامرات علينا وعلى البلد كلها من الدولة العميقة والكنيسة والحزب الوطني.. والهانم اللي كل أمانيها إنها تشرب كاسين في بار وتعري رجلها للناس، جاية تشتكي من خطاب طائفي.

٢٠١٣ كانت مقتنعة بأن الجيش لن يتحرك ضد مرسي، صدقت كارولين ما كتب في جريدة الحرية والعدالة أن تحذير الجيش قبل ٣٠ يونيو تهديد للمعارضة، فولولت على فيسبوك أننا سنرتد لدولة دينية يحكمها تنظيم متخلف وأن خطأنا في يناير سيتحمله أجيال قادمة.

بعد تحرك الجيش حرصت كارولين يوميا على نشر فيديوهات من رابعة بها تحريض ضد المسيحيين، أو استهزاء بمن قتلوا خلال عهد مرسي.

ثم قست قلوبكم بعد ذلك فهي كخصومكم أو أشد قسوة.. أصبح أمنها سجنهم، ويوم فض رابعة امتلكت سلاما مدهشا ومرعبا، وقالت:

ـ عرضنا في يناير نعيش مع بعض كلنا.. رفضوه. عرضهم أنهم يحكموننا، وأننا كلاب تواضرس أعداء المشروع الإسلامي. عرض الدولة إنها تقتلهم لنا.. وأنا قبلت عرض الدولة.

بعد فض رابعة، جاءت ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله.

احترقت كنائس أخوة الرب في دلجا حيث عائلتها، والكنائس التي لم تحرق سرقت، فنهبوا كابلات الكهرباء، المواسير، النجف، وخلعوا البلاط، ورخام الأعمدة.

بقي فقط الهباب والخراب. فلم تعد كارولين تلج كنيستها بالقاهرة إلا بعد ما تتأكد من وجود ضابط أمامها ليحميها.

عندما استشعرت كارولين أن الحبل يتدلى قرب رقبتها قررت أن تسبق وتشنقهم فتقول:

ـ لازم قرود التنظيم ترجع لأقفاصها.. جناحهم العسكري الجهاديين، طيب واحنا درعنا جيشنا.. مش ذنبنا إننا أقوى.

ظهرت الأوبريتات الوطنية في شاشة التلفاز وظهرت البغضاء على ملامح وجهها، تمشي راضية في طريق وقوده الناس والحجارة. وحين استوقفت سيارتها خلال مرورها بإحدى مظاهرات أنصار مرسي وأحاطوا بها واعتلوا سطحها ضربًا وتكسيرًا لأنها مسيحية، لم تنقم عليهم بل قالت ببرود:

ـ حقهم.. ولو قدروا يقتلوني كان يبقى حقهم يقتلوني.. أنا كمان لو كنت أقدر أقتلهم كنت قتلتهم.

٢٠١٥ كل شيء كان سيئا، تحركنا فصار كل شيء أسوأ.. فهل نتحرك ثانية؟

إجابتها لا، والأسوأ مما هو قائم رغبتها في بقاء ما هو قائم. قالت إن كل من يقتل الآن زهقت روحه من أجل إصلاح إثم مشاركتها

في يناير، وحين نصحتني أن أرضى بالسلطة القائمة وبرؤية النصف الممتلئ من الكوب، أخبرتها أنه ممتلئ بالدم.

اللافت أنها سألتني مرارا حول أخبار محمد رفيق وإن كان قد قبض عليه، قالت إنه أفعى ناعمة، وأمثاله أخطر من محمود شعلان الذي قتل.

لم يقبض على رفيق، وأأخبرك أمرا؟ غاظها هذا كثيرا.

٢٠١٦ أخر مرة رأيت جمالها يعرج.

قالت إنها تعرضت لحادث سير عندما نبهها أحد المارة لسيارة ستدهسها، لكنها تصورت أنه يعاكسها، ظلت تنظر له بتحفز حتى واصلت السيارة وصدمتها من الخلف.

فيما بعد ميزت كارولين أنه كان ينبهها.

أحمد فكري

٢٠٠٢ في لجنة الامتحان كلنا مرتبكين، الأسئلة مبهمة وأغلبنا لا يعرف الإجابة. يدخل أستاذ المادة ويسأل بشكل اعتيادي.

ـ عندكم أي أسئلة عن الامتحان؟

ـ أنا حضرتك.

ـ خير يا بني.

ـ إيه الزفت ده يا دكتور؟

٢٠٠٢ أحمد فكري يملك جرأة عجيبة.

بشكل ما نجا بعد سؤاله، الأستاذ ابتسم ثم زجره مازحا معه بأنه طالب فاشل.

لأن رفيق السوء خير من الوحدة تعرفت عليه، ففي حياة كل منا أحمد فكري ينقل من عنده «أفلام السكس». طلبت منه نصيحة عاطفية، فقال دون أن يسمع المشكلة:

ـ نام معها واجري.

لقاؤنا الأول كان خلال مباراة في أرض الملاعب بجوار المدينة الجامعية. فكري اشتهر بمهاراته الكروية، لكن صديقي أحمد ماجي غضب عندما خادعه خلال دقائق المباراة الأولى وناداه على أساس أنه لاعب معهم بالفريق، مرر له ماجي فأحرز فكري هدفا وهو يضحك هازئا من انعدام تركيز ماجي في تشكيلات الفرق التي اخترناها قبل دقائق.

احتسب الهدف وسط لمز جماعي من ماحي الذي لم ير الأمر مزحة مقبولة، واعتبر فكري ضحية أن الأخلاق والدين لا يدخلان ضمن المجموع في المدرسة.

٢٠٠٢ العلاقات السطحية صحية لكنني تعرفت عليه، فالحوار مع فكري دائما مربك؛ إذ إن كل مبني للمجهول مذكر ينسبه للعضو الذكري، بينما كل مبني للمجهول مؤنث ينسبه للبظر.

ملابسه نظيفة مكوية تليق بطالب جامعي رغم رخصها. أمه لقيت ربها بعد ما ابتلعت كل الطباشير الملون الذي يصرف بصفته دواء في صيدلية التأمين الصحي. حكى لي أنه في خلال الدراسة الإعدادية كان يبيع علب البسكويت والمصاصة لزملائه، بدأ تجارته عندما حصل على شهادة تقدير و١٠٠ جنيه مكافأة لأنه من الأوائل في ابتدائي، فاشترى علب الحلويات وتاجر فيها.

في الإجازة يعمل فكري بمحل ملابس، وفي الدراسة يكتب المحاضرات للطلبة وينسخها ويبيعها. فكري يسخر منا وينعتنا بأننا مجرد «تلاميذ»، معتبرا التفرغ للتعلم دليل انعدام رجولة. وفي مرة قال للماحي زميله بالقسم إنه قريبا سينسى الإخوان ولن يذكر سوى الأخوات عندما ترفضه واحدة منهن لأنه غير جاهز ماديا.

-واحد بيدخن وغرضه يثبت أنه رجل، وأنت تمشي في مظاهرات وتتكلم في المدرجات وفاكر نفسك بتثبت كده أنك رجل.. أما أنا فبشتغل وبتصرف كرجل.

٢٠٠٣ ثم قبض عليه..

لا ليس للأمر أي علاقة بالسياسة، فقط نظارته السميكة لم تسعفه

لتحديد شكل السيارة التي مرت بعد الغروب أمام باب الجامعة، فأشار إليها قائلا «إمبابة يا أسطى»، وهنا أطل ضابط من السيارة التي كانت عربة شرطة.

ـ آه إمبابة.. اركب يا روح أمك.

خرج بعد ثلاثة أيام قضاها في أمن الدولة. يضحكنا عندما يجمعنا ويتهكم من فعلته ثم يستهزئ بالضابط نفسه، لكنه عندما سخر من مظاهرات دعم الانتفاضة الثانية، لأن فلسطين أولها فلس وآخرها طين، احتد ماحي وقال إن فكري يشبه البشر تمامًا لكنه منحط.

يعتقد ماحي أن فكري سافل خفيف الظل لكنه ليس شريرا يُخشى منه، وتأكدت وجهة نظره عندما انضم فكري لأسرة الفراعنة حيث طلبه الحزب الوطني وترشح على قوائمهم لانتخابات اتحاد الطلبة، لكنهم اكتشفوا وجود فتاة واحدة في الاتحاد فاستبعدوه وولدين لزيادة عدد البنات لأربعة، للحفاظ على المظهر العام.

يقترض فكري مني مبالغ محدودة، ورغم قوله في كل مرة أن «أنس نقودك يا صاحبي»، لكني كنت أثق به فقد كان ملتزما تمامًا بموعد ردها، والمرة الوحيدة التي تأخر قليلا عن الرد بدا مهموما بشكل لا يليق بادعائه دوما أنه شخص بلا خلق.

ماحي عرض على فكري معاونته في إدخال المذكرات الدراسية من أسوار الجامعة مقابل كتابة أحاديث وآيات قرآنية عن الحجاب على هوامش المذكرات. وافق فكري وتوسعت تجارته بفضل قدرة الإخوان، وفي أثناء توزيعنا المذكرات الدراسية قبض الحرس الجامعي عليه مع ماحي، فالتفت لماحي قائلا بغضب:

ـ عجبك كده؟ اتمسكنا بسبب السياسة.. يلعن دينك يا أخي.

سمعه الضابط فقال للعساكر:
ـ سيبوا ده.. امسكوا ده.

٢٠٠٣ قصة سبه للدين الذي أنجاه من القبض عليه راجت كنكتة ذاع صيتها في الجامعة، لكن نجاته مرة لم يمنع الضربة الكاسحة في المرة التالية، حينما أغلق الأمن المكتبة التي يتعامل معها في بين السرايات خلال هوجة إغلاق المكتبات غير المرخصة التي تطبع ملازم للإخوان.

الضربات الأمنية تلاحقت. أحيل للتحقيق مع عشرات الطلبة ممن لا ينتمون للإخوان لكنهم قريبون من دوائرهم مثلي، صدر ضدنا جميعا قرار بالحرمان من دخول مادتين، تظلمنا فاستدعاني قائد الحرس الجامعي إلى مكتبه لنقاش «ودي».

ـ أنا عارف أنك مش إخوان.. وعارف أنك خلاص بطلت بيع ملازم معهم بعد ما عرفت عدم قانونية الموضوع.. اعتبر قرار الحرمان من دخول المادة اتلغى لك خلاص.

شكرته بحذر فأضاف:

ـ عارف يا وائل؟ فيه طلبة كتير ملتزمة ولا يمكن تسكت على الغلط، أنت كمان لو شفت أي غلط قول على طول، أي غلط، حتى لو الغلط مني أنا شخصيا.. ده دورك ودور كل طالب.. الكلية ملكك أنت.. هي مش كلية والدي.

كان يتكلم بصوت واطئ كأخلاقه، لمحت أن البشر يتحولون لعصافير فرفضت بحسم.

ما علاقة فكري بهذا؟ العلاقة بسيطة ففكري تم استدعاؤه كذلك لكني حرمت من دخول المادتين بالفعل، في حين خففت عقوبته إلى الفصل أسبوعين.

قال ماحي إن من يتق الأمن يجعل له مخرجا، أما فكري فأقسم إنه لم يؤذ طالبا أبدا، قلت للماحي إني أصدقه فالصدف محتملة، فقال وكذلك الحقارة.

انتشرت الأقاويل حول فكري حتى أحاط به اللمز بين الطلبة، وزاد التغامز حوله عندما أعيد فتح المكتبة التي يتعامل معها، لكنها سرعان ما أقفلت ثانية. اعتبرت إغلاق المكتبة ثانية دليل براءته، بينما اعتبرها الماحي دليل تخلي الأمن عن رجاله بعد انتهاء دورهم القذر.

وحين بلغنا السنة النهائية قال لي فكري «ذاكر تهاجر»، لكن تفوقه في اللغات لم يمنحه الهجرة وإنما أهله فقط للعمل بالسياحة بعد إنهائه دراسته.

وانقطعت علاقتنا فور تخرجنا.

٢٠١٦ أشرت للتاكسي بالتوقف مناديا «مدينة الإنتاج الإعلامي»، عبرتني السيارة ففهمت أن وجهتي لم ترق للسائق، لكنه توقف كأنما اتخذ قرارا مغايرا وعاد بعربته للخلف نحوي ببطء.

ـ أهلا يا وائل باشا.

قالها السائق فور ركوبي، تعرفت فورا على صوت فكري، ابتهجنا، ضممته بحميمية محتضنا معه سنوات عمري التي مضت.

في الطريق أنبأني أنه عمل بالسياحة ومن أرباحها افتتح كشكا بالمهندسين، لكن الكشك سرقت محتوياته يوم ٢٨ يناير ٢٠١١ خلال الانفلات الأمني بعد اختفاء الشرطة، المحافظة وعدته بتعويض لم يأت مطلقا، فضاعت مدخرات العمر.

دعم عمر سليمان رئيس المخابرات للرئاسة، وبعد استبعاده

انتخب أحمد شفيق، ثم نزل لتفويض السيسي بحماس أملا في استقرار يعيد السياح، لكن تفجير الطائرة الروسية بمطار شرم الشيخ جعله يتحسر على أيام مظاهرات يناير التي يكرهها، فاضطر إلى العودة للقاهرة والعمل كسائق تاكسي.

ـ بلد بتتسرق من سبعة ألاف سنة.. على حظي ضمير أهلكم صحي حالا.

ضحكت، فقال إن الحكومة تركوه والبلطجية استلموه، فسيارته بدورها سرقت بسطو مسلح على الدائري، قبل أن يستردها بفدية.

ـ يا باشا نفسي الحكومة ترجع للشارع.. احنا دلوقت نخاف نتثبت على الطريق.. خسرنا المشوار الحلو ودلوقت أخاف أروح أكتوبر ولا التجمع.. مجرد لف بالساعات في وسط البلد وفي الآخر أجمع حبة جنيهات.

شكى الأحوال وقد غلبه الدين وقهره الرجال، ثم قال خلاصة حكمته:

ـ البلد دي ربنا حيفضل نازع منها البركة طول ما بيغلوا السجاير.

ترحم على أيام مبارك، وقال إن كل ما كان أفضل من كل ما هو كائن، جادلته أن مبعث ذلك اختفاء الأمن، فدعا على الشعب وعلى الأمن على السواء.

ضحكت وتحدثت عن مصائر أصدقاء الجامعة القدامى لأتجنب الجدال في السياسة، اللافت أنه من بين كل معارفنا لم يسألني سوى عن «اللبؤة التي كانت ترتدي ملابس قصيرة»، لم أع من يقصد، فقال إنه يقصد البنت «العظمة الزرقاء»، فميزت أن الكلام عن زميلتنا كارولين الأعصر، ثم سألني عن أحوالي، وما أن أخبرته أني صرت صحفيا حتى بادرني:

ـ أنت طبعا مبسوط من الشغل الكتير بعد يناير فبتحبها.. تلاقيك بتطلع على التلفزيون وتتكلم وتقول وكده؟

ـ آه بطلع في التلفزيون يا فكري.

ـ يا باشا أنت نجحت، لكن البلد فشلت.

قال إن حياته ملخصها أن اسعى يا عبد ولن يسعى معك أحد، ونصحني بأن استعينوا على قضاء حوائجكم بالحشيش، معتبرا أن المطلب الشعبي الوحيد المقبول هو الحرية لـ«دولاب مخدرات الحاجة نعمات»، ثم ضرب على مقود السيارة ودندن مازحا:

ـ وخربتوها.. وخربتوها..

ابتسمت، كنا وصلنا لنهاية الرحلة التي قادها بسيارته، احترت للحظة هل أدفع الحساب كما العداد بالضبط أم أكرمه بنقود إضافية، أم إن كل ذلك إهانة والأليق أن أشكره وفقط. حسم هو الأمر حين انطلق دون أن يسال عن حساب، بعد أن قال ضاحكا بلهجة يفترض أنها مزاح:

ـ ربنا يوفقك وينجحك يا وائل باشا أنت وكل الباشوات.. ربنا يوفقك ويحرق أبونا إحنا يا شيخ.

أسماء منصور

١٩٩١ في طفولتنا تحرص أسماء على التهام طبقها كاملا كي لا يجري الأكل وراءها يوم القيامة، لذلك فالبعض يراها سخيفة، وكنت واحدا من هؤلاء البعض.

المشكلة أن أسماء ما زالت تحرص على تناول طبقها كاملا.

أختي الكبيرة تشي بي، تشكيني لأمي، تحكي الفيلم مشهدا مشهدا حتى أقاطعها: «حلو جدًا.. وانتهى على إيه في الآخر؟»، فترد: «ما أنا جايه لك في الكلام».. وتواصل.

فلنعترف بالحقيقة.. هي مملة.

١٩٩٦ بين اليقظة والنوم ألمح خيالا يداهمني في العتمة، أفتح عيني فأجد شبحا فوق رأسي يراقبني في الظلام.

أنتفض، ثم أستوعب أنها تتسلل لغرفتي لتطمئن أني أتنفس، فلديها هاجس أنني وأخي الأكبر حسين سنموت في أثناء النوم؛ ولذا فحين ينقبض قلبها تأتي لتطمئن علينا.

أسماء مقتنعة بأن التكييف جهاز يصيبنا بنزلة برد حتى لو درجة الحرارة تتخطى الأربعين، وأن عدم ردي على اتصالها معناه أنني أصابني مكروه، ولو أغلقت المحمول فأنا غالبا قتلت. وفي الملاهي تتقافز أمامي غضبا عندما أقطع تذكرة لعبة تعتقد أنها خطرة. تشكي رعونتي لأمي فأنهرها، تطرق وهي تهز قدميها بعصبية متمتمة آيات قرآنية لتحفظني.

ارتدت الحجاب رغم ممانعة أمي التي رأت تأجيل هذه الخطوة

لحين زواجها. ورغم صغر سني شجعت أسماء على التمسك بقرارها، ساندتها طوال شهر لم تستطع خلاله الخروج من المنزل، لأن والدتنا ترفض نزول «طفلة» لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها الشارع بالحجاب.

انتصرت أسماء ولبسته. وفي مراهقتها أحبت الإعلامي جورج قرداحي، ولم تسترح سوى عندما أخبرتها زميلتها في المدرسة أن اسمه الحقيقي جورج محمد قرداحي، وأن اسم جورج منتشر في لبنان وغير مرتبط بالمسيحيين.

وخلال المرحلة الثانوية جاءتني بنظرية تعتقد أنها ستنسف الديانة المسيحية، وهي أن المسيح نفسه في «إنجيلهم» يعبد الله ويستغيث به، فكيف يكون المسيح الله وهو نفسه يعبده؟ قالت إنها ستنشر فكرتها ليهدي الله المسيحيين، وبالفعل سجلتها بصوتها على شريط كاسيت لكنها لم تعرف كيف تنشره، فنسيت الفكرة.

بدت أسماء متعلقة بابن خالتنا محمود شعلان وتحبه، وتنتظره أن يتقدم لخطبتها، لكنه لم يفعل لا هو ولا غيره، ولأن من ينتظر لا يحيا سألتني:

ـ عايزة أسألك عن حاجة نفسي تحصل ومش عارفة أعمل إيه؟

ـ العريس؟

ـ مش زعلانه إن الجواز اتاخر.. أمنيتي كلها أنهم يتقدموا لي وأنا اللي أرفض عشان اطمن.. لكن كده قلق.. ولا واحد تقدم أصلا.

٢٠٠٤ التحقت أسماء مع سمية بنت خالي أسامة بجمعية جيل المستقبل التي أسسها جمال مبارك لتعليم الشباب الإنجليزية وإعدادهم لسوق العمل فور تخرجهم، زميلهما شريف أحب سمية، وخلال

تمشيهم فوق كوبري الجامعة شريف أقنع أسماء بالتوسط لدى سمية، وفعلا أسماء حاولت إقناعها، فالولد عريس لا عيب فيه، لكن سمية رفضت بحسم.

صدمة شريف لم تدم طويلا، بعد شهرين بالضبط عرض على أسماء الزواج، لكنها تشككت في حقيقة مشاعره تجاهها خاصة وأنها قد رأت لهفته على سمية، بينما زواجه منها يبدو عقلانيا لمجرد كونها عروسا مناسبة.

ـ شريف أنت بتحبني؟

ـ عمري ما حبيت إنسانة قدك يا سمية.

أخطأ في اسمها، اعتذاره والورد الذي أهداه لها لم يكن كافيا لمصالحتها، حكت لي فرفعت حاجبي مندهشا من دقة التصويبة، نصحتها بالرفض، لكنها بعد أسبوعين أخبرتني بأنها قبلت عرض الزواج وأغلقت الحوار بالتأكيد على أن هذا قرارها النهائي.

ـ انت بتحبيه طيب؟

ـ لا.. لكن هو بيزن.

وتزوجا..

٢٠٠٥ ألحت أسماء على كتابة عدد «٤ أرنوب ودبدوب» في قائمة العفش، وهو ما أغضب شريف، ما اضطرها للتراجع على مضض. لكن الخلاف الأكبر دب بينهما حول حاجيات الثلاجة من جبن ومعلبات وهل واجب شراؤها على العريس أم على العروسة، أسماء صممت أن الأصول أنها مطلوبة من العريس، بينما حاجة الفريزر من لحوم ودجاج مطلوبة من العروسة، وشريف عاند بأنه لم يعد لديه مال لشراء جبن وكلام فارغ وربنا سيسهلها فيما بعد.

ـ الموضوع أكبر من مجرد أنا أشتري ولا هو.. إزاي ائتمن نفسي على واحد بخيل مش عايز يأكلني.

اشتريتها أنا. لم ترض بما اعتبرته «انبطاح» أمام شريف، لكن الزيجة تمت.

صارت أهدأ بعد الزواج، ثمانية أشهر مرت بهدوء، فاعتقدت أنها سعيدة.. ثم طلبت الطلاق.

٢٠٠٦ عرفت أسماء في بيت زوجها أن حياتها في بيتنا كانت جميلة. وبختها أمي وذكرتها بأنها فور أن التحقت بعمل بعد التخرج تركته، والآن في بداية زواجها تريد الطلاق.

لكنها ألحت، وحين اتجهنا نحو إجراءات الطلاق أحجمت أسماء فجأة، لكنها بالرغم من التراجع ظلت تتكلم عن انفصالها عن زوجها كأنه خطوة ستحدث مستقبلا لا مفر.

ولم تتوقف عن طلب الطلاق إلا حينما بدءوا يسألونها:

ـ إيه الأخبار؟ مفيش حاجة في السكة؟

الكل يسأل، العائلة والأصدقاء وصاحبة السوبر ماركت المجاور، أسماء تحملت هذا، كما تحملت الربت على كتفها والدعاء لها بجبر الخاطر، لكنها لم تتحمل حين جذبتها خالتي عفاف من يدها لغرفة النوم لتقرأ لها قرآنا، بينما أسماء تستنجدني بعينيها، فشكرت خالتي وانتزعت أسماء من يدها وهي تبكي.

أمطروها تطفلا فأنبتت تمردا، وأصبحت أجرأ في الرد.

ـ ها.. مفيش حاجة في السكة؟

ـ الشحنة في الجمارك وفيه مشكلة في ورق التخليص.

أو ترد على سؤال: مش حتشدوا حيلكم بقى؟ قائلة:

ـ اسكتي.. مش حاولنا نشد حيلنا اتقطع.

ضايقني المتطفلون، وضايقني أكثر تعمد منال زوجتي إخفاء خبر حملها عن أسماء لأطول فترة ممكنة خوفا من الحسد.

وفي «سبوع» ابني، وبينما منال تحمل طفلنا الرضيع وتلف به على الحضور مرت أمام أسماء كأن لم تنتبه لها، في حين أنها ناولت الطفل لمن يجلسون قبل أسماء ومن يجلسون بعدها ليباركوه كما يجري العرف.

انتزعت الرضيع من منال وسلمته لأختي، مطلقا دعابة عن ضرورة استخدام منال لنظارة.

بعدها بأيام قدمت إلينا أسماء، وقبل أن تدخل لترى الولد طالبتني منال بالانتظار لحظات لحين تضع مصحفا فوق رأسه، أحرجت أسماء وقبلت الولد ثم خرجت سريعا وهي تردد:

ـ ما شاء الله.. ما شاء الله ربنا يحفظه.

لاحقتها منال اتقاء لسخطي وهي تقول:

ـ ربنا يجبر بخاطرك يا أسماء يا حبيبتي.. أنا بدعي لك وربنا.

ـ صفي قلبك وأنت بتدعي يمكن ربنا يتقبل منك.

قالتها وكأنها تمزح. كان هذا أقصى رد فعل لها ضد منال، فقد حرصت أسماء دوما على عدم ذكرها بسوء أبدا إكراما لخاطري، لكن منال واظبت على الشكوى لأسماء من الأطفال والتفنن في سرد مشاكلهم لمنع الحسد. وحين كسر ابننا يده وهو يلعب طلبت مني نشر صورة الولد على فيسبوك، لأن هناك ناس ربنا لم ينعم عليهم ولذلك فـ«تركيزهم» معنا.

ـ لا.

هكذا رددت على منال بإيجاز، فنشرت هي الصورة.

عموما تجربة أسماء كانت أليمة، لكن النهاية جاءت مفاجئة، فقد سافرت للحج ودعت الله بيقين هناك، وبعدها بأشهر حملت.

٢٠١١ ينام كثيرا من لا يجد شيئا يفعله وهو مستيقظ، وأختي تغفو إحدى عشرة ساعة يوميا، أسخف شيء أن تصحو مبكرا ولا تجد شيئا لتفعله طوال اليوم، لكن أسماء لم تر هذا سخيفا.

شكت البطالة فاقترحت عليها أكثر من عمل فلا ترد سوى بكلمة «صعب».. صعب يوافقوا على توظيفها أو صعب تنجح في العمل أو صعب تتوافق معهم.

أخبارها هي: «لا جديد»، وكلما اقترحت عليها وظيفة قالت:

- بلا شغل بلا زفت.. كفاية مرمطة المواصلات.. ده حتى ربنا بيقول لنا «وقرن في بيوتكن».

ولم تشارك أسماء في مظاهرات يناير ٢٠١١، لكنها نصحتني:

- مفيش حاجة اسمها ترجعوا قبل ما مبارك يمشي.. اللي بدأتوه تخلصوه.. هيلفوا على البيوت يصطادوكم واحد واحد لو رجعتوا.

بعدها انتخبت عمرو موسى في الجولة الأولى لانتخابات ٢٠١٢ لأنه «يبدو كالأمراء»، ثم انتخبت مرسي في الإعادة عندا في المسيحيين الذين سينتخبون شفيق.

شاركت أسماء في مظاهرات ٣٠ يونيو المعارضة للإخوان، ثم في مظاهرات تفويض الجيش لمكافحة الإرهاب المحتمل، وبالرغم من تعاطفها مع قتلى رابعة، فإنها عادت وانتخبت السيسي للرئاسة ليحمي البلد من التقسيم.

فرحت أسماء بنجاح السيسي ونزلت مع جمع من الجيران للاحتفال بالتحرير، وحينها اتصلت بي أمي: «الحق أختك يا وائل».

لحقت بها في المستشفى بعدما تعرضت لتحرش جماعي قذر في التحرير من مجموعة مراهقين، خلعوا عنها ملابسها بالكامل وضربت بمطواة في فخذها ليستمتعوا بتأوهها.

تجمعت العائلة لدعمها في محنة ساحقة، وما أن استعادت أسماء القليل من وعيها حتى سألت هل اتصل محمود شعلان؟

لاحظت أسماء أن حب طفولتها هو الوحيد الذي لم يزرها، استفزها ذلك فاتصلت هي به.

ـ أعوذ بالله من الشماتة، لكن أنت عارفة يا أسماء أنك تستحقي الناس اللي كنت وسطيهم.. وربنا هو العدل.

وجمت أسماء، جحظت عيناها وتحشرج صوتها، حتى اختطفت سمية منها المحمول ونكلت به بأقذع الشتائم.

وبعد مقتل محمود التحفت أسماء بالسواد وزارت أمه عفاف. شكرت لها الأم ما تفعل في تلميح إلى ما فعل، فقاطعتها أسماء:

- وهو حد يرضى إن عرض بناته يتهتك؟ أكيد طبعا محمود ولا كان قصده يا خالتي.

جميعا نعلم أنه قصد، لكنها توزع على روحه أرزا باللبن في ذكرى وفاته سنويا، وتنظم أفراد العائلة لتقاسم أجزاء القرآن لختمه شهريا له، حسين أخي أثنى لها عفوها، فتساءلت أسماء أي عفو؟ وحين ألمح لها لما قاله شعلان استنكرت بشدة، مؤكدة إن هذا لم يحدث منه مطلقا، مستغربة الافتراء على خلق الله سواء وهم أحياء أو أموات.

شريف خير

٢٠٠٥ شريف خير لديه نظرية، عرفتها منه في أول لقاءاتنا، بدت نظريته عملية جدًّا وناجحة.

فشريف لا يملك سيارة، وخلال رحلته اليومية من عمله في ٦ أكتوبر إلى بيته بمدينة نصر يقف في الظهيرة وسط العشرات والعشرات منتظرا ميكروباص سعته ١٤ راكبا، يومها كنت معه وشمس أغسطس تتجبر على أقفيتنا، بدا يقظا يعرف أين يقف وكيف يجري ويسبقهم، يدرك شريف متى يضع جسده أمام السيدة التي تحاول تخطيه من الخلف إن كانت المقاعد قليلة، ومتى يتركها تعبر من أمامه بتهذيب حال وجود أكثر من مقعد شاغر. ركبنا سريعا، أثنيت على خبرته فقال لي نظريته:

- الموضوع بسيط يا صاحبي.. العدد كبير.. العدد كبير جدًّا فحاول تكون من أول ١٤ بني آدم.

٢٠٠٥ همه على قدر ما يهمه.. فكان بلا هم.

شريف كان لاعبا في الأهلي، وخلال مرحلة الناشئين أصيب بالرباط الصليبي مرتين متتاليتين لتنتهي مسيرته الرياضية مبكرا، ويقذف به فجأة للعالم بلا تعليم جيد ولا إجادة لغة أجنبية ولا أي مهارات.

حين تعرفت عليه أسماء أختي وسمية أسامة بنت خالي في جمعية جيل المستقبل كان عاطلا منذ تخرجه قبل عامين، قال إنه يبحث عن

عمل يليق به، فسألته سمية ما العمل الذي يليق بخريج كلية خدمة اجتماعية؟

حين عرض على أسماء الزواج تشككت أختي في أنه يستحقها، طلبت رأينا مؤكدة أنه يعجبها لأنه طيب وغير مؤذٍ، فتبرعت سمية بالقول إن الصرصور أيضًا غير مؤذٍ، لكن هذا ليس سببا كافيا لنحبه.

قبلته أسماء عريسا. وعد بالعمل، وفورا تحول إلى آلة تعمل كأخصائي اجتماعي بمدرسة نهارا، ومحاسب مبيعات في سوبر ماركت ليلا، وبدعم عائلته أثث الشقة بسرعة، لكن الخطبة كادت تفسخ عندما انتقدت أسماء عدم وجود قاعدة للحمام في دورة مياه شقة أسرته حين زارتهم. اعتبرها متعالية، لكنه استكمل الزيجة لأنه كان اشترى الأثاث بالفعل.

٢٠٠٥ كنت أسمع همسا عن مفاجأة تعدها أسماء خلال زفافها، وعند الكوافير تبينت الخبر، أسماء خلعت حجابها.

-الله يخرب بيتك.. وربنا ما أقبل بك بالشكل ده.. الفستان شفاف جدًا.. شوفي طرحة داري نفسك.

قال شريف فور رؤية عروسه. زجرته أسماء بصوت خفيض يصبح حادا حين تتوتر، فصرخ فيها:

-شيفون إيه وزفت إيه؟ ما هو عريان قدامي ولا كأنك الرقاصة.

ضربت الأرض بقدميها بشكل طفولي، ثم انهارت بهستيريا تشكو لله بصوت عالٍ سوء حظها، فتلفت شريف حوله حرجا.

-المكياج زيادة جدًا.. قومي اغسلي وشك.

كحل وسط قامت بتغييرات شكلية مربكة بشكل لم يعد معه

واضحا هل هي محجبة أم لا؟ وهل تضع مساحيق تجميل أم لا؟ الشيء الوحيد الواضح كان تكشيرتها طوال الزفاف نكاية فيه.

أصيب شريف بصداع من ضوضاء الفرح، وتحت بيته طلب دواء، وقبل أن يصعد مع عروسه اندفع أخوه وسط الحضور.

ـ الأقراص اللي أنت كنت قلت إنك محتاجها.

امتقع وجهه، حاول الشرح أنها ليست منشطات، لكن الطلقة كانت انطلقت.

ضحك الحضور وبدا الموقف فكاهيا، في البدء ارتبكت أسماء لربكته لكني لمحت نصف شبح ابتسامة على وجهها، اختلجت ملامحها للحظة فلم أعلم يقينا هل ابتسمت أسماء تشفيا أم لا.

٢٠٠٦ كي لا يفوته قطار الزواج ارتبط بأسماء في زيجة عقلانية، فدهسه قطار غضبها، يتفوه فيكفهر وجهها، ينهرها فتتجهم ملامحها، يوبخها فتقطب جبينها، يحايلها فلا تخفف عبوسها، فأصبح يتجنب سخطها هربا من نكدها.

زوجته متفرغة لبيتها وزوجها؛ لذا فهو من أشد المتحمسين لعمل المرأة، وحين حصلت منال زوجتي على إجازة وضع نصحني أن أشجعها للعودة لعملها، وقال لي أجعل زوجتك تعمل كي لا تكون أنت عملها.

قال إنه يأخذها على قد عقلها. اتفقا على أن يترك لها شئون البيت الصغيرة ليركز في وظيفته النهارية وعمله الخاص ليلا، على أن يتدخل فقط في الشئون الجوهرية الكبيرة بصفته رجل البيت. ومن لحظتها لم يصادف حياتهم أي حدث كبير، كل الأمور صغيرة وكلها تهتم بها أسماء.

ـ عليَّ كلمة حاضر ترج البيت رج.

يقولها ساخرا من نفسه، ونحن جالسون على المقهى قبل أن يعتذر ليتركنا كي لا يتأخر عليها.

ـ أنا لو مش عايز أقوم أروح دلوقت مش حروح.

ثم ينهض بالفعل وهو يضيف:

ـ طبعا ما أنا الرجل.. لكن الأسلم إني أروح لها بدري.

٢٠١١ شريف كل طموحه في الحياة شراء شقة تمليك وضمان تعليم جيد لطفله، يريد أن يتناسى ما يحدث في العالم، فلماذا لم ينسه العالم؟

لم يشارك في المظاهرات المعارضة لمبارك، لكن سيارته الحديثة احترقت أمام قسم السيدة زينب يوم ٢٨ يناير. لم يلق اللوم على أي طرف مكتفيا بوصف من أحرقوها بأنهم «أولاد الزانية»، دون أن يهتم بمن هم أساسا.

كانت السيارة في قلبه فرأى فقره بين عينيه، ورغم مصيبته استبشر خيرا عندما شاع تقرير الجارديان عن ٧٠ مليارا اختلسها مبارك وسيستردها الشعب.

ـ احنا سبعين مليون.. يعني كل واحد له عشرة آلاف جنيه حتتقدم له خدمات.. سنتين تلاتة بعد ما تكنسوا الفساد وحيحصل للبلد قفزة عظيمة.

لم ينغمس في أي فعالية، لكنه كان مقتنعا بأن واجب المتظاهرين الآن نهب بيوت رجال أعمال مبارك وتوزيع ممتلكاتهم على الفقراء، ولم يخفت حماسه إلا وهو يشاهد ما وصف حينها في الإعلام

بأنه «جمعة قندهار»، تأمل على التلفاز ملامح المتظاهرين الريفية وجلالبيهم الواسعة ولحاهم الكثة ونساءهم القرويات.

ـ جمعة اللي جايين من بلدهم عايمين على بلاص.. هي يناير بتاعتكم قلبت على أبو صير غربية كده ليه؟

قالها باشمئزاز. ورغم تعاليه لكنه انتخب الإخوان في مجلس الشعب، ثم دعم ترشح حازم أبو إسماعيل للرئاسة، وحدثني عن الخير الذي سيعم مصر فور تطبيق الشريعة، أطيح بحازم فأيد أبو الفتوح، لكن أداء أبو الفتوح السيئ خلال مناظرته عمرو موسى جعله ينتخب حمدين صباحي، وفي الإعادة انتخب مرسي ووعدني بأن مشروع النهضة للإخوان سيحول مصر لقطعة من أوربا كما فعل أردوغان بتركيا.

بعد سنة، ويوم مؤتمر سوريا الذي نظمه مرسي بحضور الإسلاميين وبينما القاعة تهتز بأنشودة لبيك إسلام البطولة، سألني بتشكك:

ـ إزاي الناس اللي بتحكمنا كلهم حافظين أغنية أنا أول مرة أسمعها في حياتي؟

٢٠١٣ ٣٠ يونيو كانت أول مظاهرة يشارك فيها، وعقب تمكن الجيش أسعده موت السياسة لنتخلص من كل هذه الاختيارات المربكة.

بذل المدى لكن لم يفلح ذلك ليكف عنه الأذى، فخلال زيارة إلى أقاربه بالمنيا تصادف أنها تزامنت مع فض رابعة، أوقف مجموعة من أقارب قتلى اعتصام رابعة الأوتوبيس الذي يستقله، أجبروا الجميع على النزول، وفصلوا المسلمين عن المسيحيين ثم قتلوا أسرتين مسيحيتين باعتبارهم انقلابيين ودماء المسلمين في رقبتهم.

امتلأ قميصه بدماء أناس لا يعرفهم قتلهم أناس لا يعرفهم لسبب لا يعرفه، عاد لبيته واجما، وحين استجمع نفسه سألته عن رد فعله وقت الحادث:

ـ وأعمل إيه يعني؟ هو كان في إيدي حاجة أعملها؟ سيبنا الجثث على جنب وركبنا وكملنا طريقنا.

٢٠١٤ أراد أن يكون تافها لكن البلد لم تساعده، بعد ما تعرض له لم يعد يسأل إلى أين تتجه مصر؟ بدا المصير واضحا.

بعد فجيعة المنيا التزم بالصلاة في المسجد، وحرص على تعلم تجويد القرآن.

زاد وزنه الضعف، ولفتت أسماء انتباهي إلى أنه لم يعد ينزل لأصدقائه المحدودين بالمقهى، وكثيرا ما تراه يتشاجر بصوت عالٍ مع نفسه. زار طبيبا نفسيا مرة، فقال له إن التشخيص المبدئي «اضطراب ما بعد الصدمة»، لكن شريف لم يتحمس لتكرار الزيارة.

ينتحب عندما يسمع آية قرآنية، ويبكي عندما تصرخ زوجته، ويدمع عندما يشاهد فيلما، لكن أغلب بكائه في المسجد.

أسماء سعدت بسمنته وترهله المفرط بعد الحادثة، تريه صورة لسمية بفستان عاري الأكتاف، يدعو لسمية بالهداية فتنشرح أسماء بالطمأنينة.

٢٠١٦ بالأمس التقيته، كان عائدا هو وزوجته من عند الطبيب استجابة لمطالبة الجميع له بإنجاب طفل ثان كي لا يشب ولدهما الوحيد أنانيا وانطوائيا، قعد جوار زوجته بجلبابه المنزلي القديم الذي ضاق عليه وبهت لونه الأخضر.

جلسنا نتسامر قليلا، وبالطبع لم ينس أن يحدثني عن الـ ١٤ محظوظا الذين يركبون وحدهم الميكروباص في الزحام، حيث القاعدة إن لم تدهس من بجوارك لتسبقه سيدهسك هو.

أعاد ترديد نظريته المفضلة، لكنه اختتمها هذه المرة بأن قال: إن هذا قاس جدًّا، قاس وغير محتمل.

وبكى..

إسماعيل صلاح

٢٠٠٠ كان إلى جواري، لذا لم يكن هناك ما يدعو للخوف.

في جامعة القاهرة، الدخان الأبيض للغاز المسيل للدموع يغرق المدخل الرئيسي، والطلبة الاشتراكيون يردون بالحجارة بعدما فرق الأمن مظاهرتهم المؤيدة للانتفاضة، لمنع اقترابهم من سفارة إسرائيل.

وسط هستريا صراخ الطالبات تنطلق قنبلة جديدة، نجري هربا من الغاز بينما يقف إسماعيل صلاح وحده مستندا بيده اليمنى إلى جذع شجرة بهدوء، أعود لأطمئن عليه.

- هم يجروا.. إحنا لا.

يقول إسماعيل، ودون أن يكلف نفسه عناء الركض سار بخطوات واسعة باتجاه قنبلة الغاز، أمسكها رغم سخونتها وألقاها بكل قوته نحو الشرطة، سقطت قرب ضابط الأمن المركزي فتشرذم جنوده، الضابط انهال من سلاحه بسلسلة قنابل أخرى انتقاما من الطلبة، أما إسماعيل فلم يرَ محصلة عمله، لأنه فور إلقائها لم يكلف نفسه عناء أن ينظر لها بل عاد يسير بهدوء باتجاه الطلبة كأنما لم يفعل شيئا.

٢٠٠٠ ليلة الامتحان أبلغني بالأسئلة المتوقعة وطلب مني إيصالها لكل من أعرف.. نفذت، وفي اليوم التالي اكتشفت أنها لم تكن أسئلة متوقعة، بل الامتحان نفسه.

اختبارات نهاية العام تُسرب لدائرة مميزة تضم أبناء الأساتذة، مع

التشديد عليهم بعدم خروجها عن دائرتهم لضمان استمرار التسريبات وفعاليتها، ولأنه ابن رئيس قسم التاريخ بالكلية وصلته ورقة الاختبار فوزعها ليهدم لهم المنظومة، كرروا فعلتهم فعاود، ما اضطرهم إلى التوقف مؤقتا لمنع الفضائح المخزية.

إسماعيل يسمي التلفزيون «مِفْسديون» ويجادل ماحي وشعلان يوميا حول طول السروال ووجوب اللحية والنقاب، ورغم مهارة ماحي الكلامية فإن إسماعيل يتفوق عليه في موضوعات يعلم كل شيء عنها.

الوحيد الذي لم يحب إسماعيل مناقشته هو رفيق، إذ يربك إسماعيل بتبديل الموضوع. فنظرية رفيق أن كل موضوع ليس له باب في كتب الفقه هو بالضرورة موضوع لا يعلم عنه إسماعيل شيئا.

إسماعيل لم ينتم للإخوان، لكنه بدا متحمسا للخلافة، فيقول لي:

ـ أي دولة قوية هي دولة اتحادية.. الصين مليار وربع.. الهند مليار.. الولايات المتحدة.. روسيا الاتحادية.. المملكة المتحدة.. الاتحاد الأوربي.. العالم كله دول اتحادية، واحنا حنقيم الخلافة وحنكون دولة أكبر منهم كلهم.

نشط مع الإخوان فقط حين قبض على صديقه محمود شعلان، تحدى الأمن عبر المشاركة، وصارحني أنه خاف بعد القبض على شعلان، لاحظت أن هذه أول مرة يذكر كلمة خوف، وفي اليوم التالي رأيته يسير في الصف الأول للمسيرة بل ويتحمس ويختطف الميكروفون من ماحي ليهتف هو.

ما يهابه هو نفسه ما يفعله.. فلنعترف أنه مبهر.

٢٠٠٩ بعد الجامعة ربطتنا صداقة من طرف واحد، فهو من يتصل

ويسأل ويحدد مواعيد لقائنا، كنت أستقبله بترحاب وأسعد به، لكني أنساه فور أن يستدير مبتعدا.

ويوم زفافه.. عروسه خرجت من عند مصففة الشعر ترتدي ما قيل إنه فستان عاري وتضع مساحيق تجميل، لكنها تخفي كل ذلك بنقاب أبيض مخصص لعقد القرآن.

احتفلت العروس مع النساء في منزلها، ثم ربضت في السيارة لتشاهد العرس أسفل منزل الزوجية، الحضور الذكور أدوا حركات راقصة مقبولة «إسلاميا» عبر الإمساك بأيدي بعضهم البعض وتشكيل حلقات حول العريس، بالإضافة لحركات أقرب للدبكة الشامية، لكن والدة إسماعيل اخترقت الحظر لترقص رغما عن ابنها وإخوانه، لأنها لا تتخيل أن يمر الزفاف دون أن تحتفل على طريقتها.

أتذكر زيجته بدقة لأنه ميزني جدًّا حينها، إذ اتصل بي قبلها ليخبرني بزفافه.

- أنت أول بني آدم قلت له.

- حبيبي وربنا.

- عارف قلت لك أول واحد ليه؟

تساءلت بفضول فصداقتنا ليست لهذه الدرجة، على الأقل من طرفي.

- أنت الوحيد اللي طول الخمس سنين اللي فاتوا مخنقتنيش بسؤال: مش حتفرحنا بك يا بطل؟ تقريبا أنت الوحيد اللي مش سمج وحشري في اللي أعرفهم.. أنت عظيم والله يا صاحبي.

كان يحبني.. كان.

٢٠١١ انشطرت بذلة مبارك العسكرية فور تنحيه إلى ثماني عشرة

بذلة عسكرية، وبعدها بأسابيع قبض على إسماعيل بتهمة الاشتراك في إحراق منزل قبطي ببلدتهم حاول تحويل منزله لكنيسة.

أفرج عنه بعد أشهر، انضم للحملة الرئاسية لحازم صلاح أبو إسماعيل وحين استبعد من الترشح دعم مرسي، ورغم أنه قارئ نهم لكتب التراث ويعتقد أن بيته بالجنة سيكون على شكل مكتبة، لكن منتجه الأدبي بدا لي ساذجا. فخلال حكم مرسي كتب على صفحته على فيسبوك:

كنا بنهتف ضد الظلمة جوة بلدنا ليل ونهار..

دلوقت بنقولها قوية احموا الأمن من الفجار..

حرقوا الجندي بالمولوتوف اللي بيحمي أمن الدار..

والدنيا بتشهد وتشوف تعرف مين هوه الغدار..

وكما لم يرق لي ما يكتب، لم يرق له هجومي على الرئيس مرسي. طلبني للنقاش فاجتمعنا في مسجد القبلة فيه مائلة كحالنا، حدثته عن حلم تحويل الوطن لجنة فلم يحدثني سوى عن دخول الجنة. سألته عن توقعاته فأنذرني من النزول في ٣٠ يونيو ضد الرئيس المسلم، وإلا فالحكم الإسلامي الكامل قادم وستطبق أحكام الشريعة كلها علينا، ثم ألمح لشيء ما عندما قال إن البعض يكرهون قيود الدين فيدعون مقت الرئيس المسلم لأنه يذكرهم بحقارتهم.

ـ أمثالك ممن يفتنون الناس في دينهم.. حيكون عندهم فرصة التوبة يوم ما تتمكن السلطة الإسلامية.

ـ عند أمك الغالية إن شاء الله.

ـ أنت بالذات سيادة الصحفي عارف الحق فين والباطل فين، واخترت بمحض إرادتك أنك تدلس على المسلمين.. مصيرك حد الردة للأسف.. ده شرع ربنا.

ـ أمك حلوة.

ابتسم. قلت له إن منا من يريد الدنيا ومنكم من يريد الدنيا، فلا أحد في قصر الرئاسة يريد الآخرة، فقال إنني كنت طيبا وكذلك كان يبدو مسيلمة الكذاب قبل أن يظهر ما كان يبطن، سألته هل تكفرني؟ فسألني لو كان الإيمان باللسان فلم المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ قال إن الله سينتقم من الظالمين فأيدته بقوة وطالبته هو بالاحتياط إذن، حذرته من أنهم يقضمون ما لن يهضموه فحذرني من خطر عدائي لدين الله فأفكار ابن آدم خطاه إلى أجله، ذكرني بغزوة بدر فذكرته بخطبة الوداع، لمح قصدي فقال إن ربا قد كفاهم بالأمس ما كان سيكفيهم غدا ما يكون.

افترقنا وقد بدت البغضاء من أفواهنا، دققت في الأمر فلم يحزنني احتدادنا. كنت ما زلت أعاني عرج الاتكاء على صداقتي مع ماحي، قلت لنفسي إن وجهها مثل قفاها وصداقات السنين خربت فعلا وانقضى الأمر، اقتنعت يومها بأننا كنا نقاتل فرعون والآن نقاتل من يتصور أنه نبي هذا الزمان.

وفي ليل ٣٠ يونيو ٢٠١٣ بات واضحا أن من كانوا يتهيئون لاحتساء شربات انتصارهم هناك ملايين في الميادين تعد لهم القهوة السادة، فأرسلت لإسماعيل:

ـ مش قلنا لكم.. قلنا لكم.. قلنا لكم.. حتندموا.. حتندموا.

كانت الرسالة النصية هي نفسها كلمات أغنية للمطرب بهاء سلطان. ظهر لي عبر برنامج واتس آب علامة زرقاء دليل أنه رأى الرسالة.. ولم يرد.

٢٠١٣ ثم دعاني للتظاهر لتأييد عودة مرسي.

سخرت، فقال إنني الأحق بأن يسخر منه، فاللعبة مصممة أن في الفوز يفوزوا وحدهم وفي الهزيمة نهزم معًا.

ذكاؤه مرعب، تمامًا كالسلاح الذي كدسه في خيام اعتصام النهضة، لكن حين أحاطت بهم حشود الأمن قارن بسرعة بين تجهيزاته وتجهيزاتهم ثم انسحب برجاله، فدك الميدان وفض خلال أقل من ساعتين.

في اليوم التالي اتصلت بإسماعيل حين ذهبت لماحي لانتشاله من حصار ميدان رمسيس، قال إسماعيل إنه سيكمل مع الإخوان ما بدءوه، أخبرته أن ماحي نفسه معي، فسكت طويلا قبل أن يطلب مني أن ألتقيه بشارع الجلاء.

حين شاهد سيارتنا تتوقف إلى جواره لم يستقلها، بل اتكأ على السيارة وأطل من شباكها متطلعا إلى ماحي قليلا ثم صافحني دون أن يحدثه. طالبته أن يركب سريعا، فطمأنني ألا تقلق، وضرب بثقة على جيبه حيث يحمل مسدسا، نظر ماحي إلى دخان القنابل المسيلة خلفنا وصفوف الجنود أمامنا، ثم عاد ورمق إسماعيل بذهول كأنما ينظر إلى مجنون، ويبدو أنه لم يجد ما يقوله له فكرر:

- اركب.

ركب، وبات في منزلي لأيام، لاحظت خلالها أنهما لم يتبادلا كلمة مطلقا. سألت إسماعيل فأجابني:

- جهزنا نفسنا إننا نرد على رصاص أولاد الكافرة.. ماحي هاج وفضحنا، قال لك بنورطهم.. نورطهم في إيه البعيد وهم بيقتلوا أصلا؟! شوية ولقينا نفسنا بنترش بالرصاص.

ثم تعالى صوته بالغضب:

- أسوأ حاجة إني لما سمعت إن الأوامر صدرت للإخوان

بالانسحاب كذبت الكلام، لغاية أما اتصلت أنت بي يا وائل. انسحبوا وطظ في الكلاب اللي معاهم.. جهاد لغاية الساعة خمسة المغرب بروح أمهم.

ـ قلنا في الميكروفون للناس ترجع.

قالها ماحي ببرود يبطن ضيقا باستكمال الحديث، فقال إسماعيل إن ماحي وإخوانه إسفنجة تمتص المعارضة والشباب، فالتنظيم يتميز بالقوة على احتمال الاستبداد وليس القوة لمواجهة الاستبداد.

ـ السلمية دين الإخوان والإسلام ديننا.. كتب عليهم الذلة والمسكنة من جيش ردة موالي لليهود يقتل المسلمين.

ـ والجنود؟

قالها ماحي ليحرجه فرد إسماعيل بصلابة:

ـ الله عندما أهلك فرعون أخذه وجنوده اللي بتسموهم الغلابة.. حتشفق على العباد أكتر من اللي خلقهم؟

ماحي لم يرد، فقط نظر له باحتقار.

٢٠١٤ منذ أجل الإخوان مسيرة عنوانها «ضد الخوف» لمخاوف أمنية لم يعد إسماعيل يشارك في مظاهرتهم، وسخر من إن ماحي وشعلان يؤمنان أن الساعة لن تقوم إلا بعد ظهور المهدي المنتظر وعودة مرسي.

قرر مدير مدرسة «٣٠ يونيو» أو الجيل المسلم سابقا، تحويل إسماعيل وثلاثة معلمين للتحقيق بعد اتهامهم بالانتماء للإخوان، لرفضهم ترديد هتاف تحيا مصر ويحيا جيش مصر بالطابور المدرسي.

آخر مرة رأيته كنا في عزاء شعلان. ألقى كلمة في المعزين وقال إن كل قذر دعم مظاهرات ٣٠ يونيو دوره قادم وسيلحق بشعلان،

لكن الفارق أن قتلانا في الجنة، ففكرت أن أحياءنا يعيشون في النار وأحياءهم يعيشون في النار وكلانا يتحدث عن قتلى في الجنة.

بعد الجنازة وقفنا سويا وتحدثنا بالتحفز اللائق، لمح إسماعيل صورة للسيسي في محل عصير قصب خلفنا، فلمعت عيناه بانبهار بمن وصفه الشخص الوحيد الذي عرف كيف يتعامل مع سفلة الشعب المصري، متحسرا على الرئيس المسلم الضعيف، أراجوز الحريات.

أخوه كان قد حكم عليه بالإعدام بعد اتهامه بالانتماء لتنظيم يستهدف الضباط، واسيته بكلام عمومي، فغمز «إنسانيتي البلاستيكية»، وطمأنني أن من يسجد لله لن يركع لضابط، ووعدني أن أولئك الذين يبنون السجون سيدركون عما قريب أنهم يبنونها لهم.

اعتبرتها نهاية الحوار فاختتمت بأنني ضد عقوبة الإعدام في البلدان الديكتاتورية، فرد بإباء:

ـ لكن أنا مع الإعدام.. مع إعدام آخر قائد عسكري منهم بأمعاء آخر علماني منكم.. لسه الحكم على أخويا متنفذش.. وصدقني إحنا لسه مش عارفين مين اللي حيعدم مين.

قالها بثقة، وبعدها بأشهر أعدم أخوه.

٢٠١٦ عناده باق ويتمدد، قال إنهم يهدمون الدين بالنقصان ولن يهدمه هو بالخذلان، لذا سافر تركيا ومنها لسوريا.

من خسر بالنقاط في مصر بحث عن توجيه الضربة القاضية في سوريا. عرفت من زوجته أنه انضم إلى كتيبة المصريين التي اشتهرت ببسالتها وانتزعت أجزاء من مدن سورية من أيدي جنود بشار، قبل أن تباد حين فجرها بمفخخة جنود راياتهم سود كرايات

الطاعون ينتمون لتنظيم الدولة الإسلامية، لرفض الكتيبة مبايعة خليفة تنظيم الدولة.

قيل إن إسماعيل فقد عينيه خلال التفجير، وأخبرني محمد رفيق أنه يعالج في تركيا الآن بعد ما عمي تمامًا، في حين أكد لي زميل صحفي مهتم بالشأن السوري أن إسماعيل بايع الدولة الإسلامية وأنه هو من فجر رفاقه في كتيبة المصريين لرفضهم الولاء للخليفة، وقال إن إسماعيل الآن يقاتل في صفوف الدولة الإسلامية ضد الأكراد.

لا أعرف الحقيقة فقد انقطعت عنى أخباره، كما أن حسابه على مواقع التواصل الاجتماعي أغلق، ولم يبق لي منه سوى صورة فوتوغرافية قديمة لنا ونحن نضحك أمام قبة جامعة القاهرة وهو يحتضنني بحب.

قارئ

٢٠١٥ «يا أستاذنا.. حبيبي أنت والله».

ركض نحوي بعرجه، صافحته بأدب، قال إنني كاتبه المفضل فتبسمت بامتنان وشكرته.

عرفني بنفسه وقال إنني لي فضل عليه فكتابتي كشفت له زيف الدعاية المتواطئة على الدم، وإنه شارك معنا في مظاهرات محمد محمود الثالثة بعدما وعى بسبب مقالاتي، ذكر مقالا محددا شرح فحواه، اختلطت الذكرى فلم أدر أي واحد يقصد.

قال إنه رآني في الميدان يومها وتمنى أن يصافحني، ولكنه لم يمهل، رصاصهم الحي كان أسرع من جريه ليبقى حيا، فاستقرت طلقة في ساقه. فصل من وظيفته، وحياته انهارت، لكنه وحبيبته التي اضطر لتأجيل خطبتها مصران على أن يجدا عملا يقبله.

طلب التصوير معي ففعلنا، وبينما يضبط هاتفه ليلتقط الصورة مبتسما حاولت تذكر ما مظاهرات محمد محمود الثالثة؟ التبس عليّ الأمر واستغلق، مبهم هو، لا أعرف سبب المظاهرة التي يتحدث عنها ولا أذكرها أساسا.

صبحي وزة

١٩٩٥ تحركت المرسيدس السوداء على مهلها داخل شوارع السيدة زينب الضيقة وحولها شباب يحملون طبلة يقرعون عليها بحماس، لا أرى من داخل العربة سوى يد تلوح من خلف زجاج نصف مفتوح بينما بجوارنا مباحث السيدة زينب وعربات الأمن المركزي، تصل المرسيدس شارعنا فتتعالى هتافات «بنحبك يا دكتور» و«صبحي وزة قال لنا.. الدكتور واحد مننا».

صبحي وزة هو صاحب المقهى غير المرخص المقابل لبيتنا، يعمل مع الحزب الوطني ويستعين بمجموعات ضخمة من العمال وطلبة المدارس الثانوية ليهللوا خلال مسيرات الدعاية الانتخابية مقابل أجر مادي.

- صبحي وزة قال لنا الحاج والي مننا.

سمعت هذا الهتاف من غرفتي بعد انتهاء المسيرة الأولى بساعتين، خرجت إلى الشرفة مذهولا، فالصياح بصوت صبحي وزة، بينما الحاج والي هو منافس «الدكتور» الذي كان يدعمه صبحي منذ دقائق، وإن كان كلا المرشحين ينتميان للحزب الوطني الحاكم.

أشاهد صبحي يسير مع الحاج والي في مقدمة المسيرة يعرفه على أصحاب المحال التجارية، وهو يردد نفس الهتاف الذي كان يهتفه لمنافسه مع تغيير الاسم.

اعتقدت أنه يغامر بلعب مكشوف على الحبلين، لكني اكتشفت سذاجتي عندما انتهت الانتخابات وأصبح صبحي رسميا رجل الحزب في الحي.

١٩٩٩ رغم مرور سنوات على عودة صبحي من العراق لكن صورة صدام حسين بزيه العسكري ما زالت تتصدر واجهة مقهاه، وهذا كان سببا كافيا لأرتاب منه.

أول حوار حقيقي بيني وبين جاري حين كنت عائدا من المدرسة، يومها بدأته بكلام قبل سلام فاستصغرني. أما أول معرفتي به كشخص أسطوري بشارعنا فحين سمعت من حجرتي صخبا بالشارع. أطللت من الشرفة فرأيت سيارة نصف نقل ينزل منها حوالي خمسة عشر رجلا من أتباع مرشح منافس هجموا على المقهى يقطعون اللافتات ويجمعون ورق الدعاية وكشوف الناخبين ثم يحرقونها بسرعة في منتصف الشارع.

لم يكن صبحي متواجدا ساعتها، وغالبا المهاجمون انتهزوا هذه الفرصة، وبعد دقائق اتصل أبناؤه به فجاء ومعه محترفون يتعاملون مع الحزب الوطني في هذه المواقف، احتشدوا تباعا في أعداد هائلة بالسلاح الأبيض أمام المقهى ثم تحركوا بمجموعة ميكروباصات، وبعد ٤٥ دقيقة عادوا يحملون في أياديهم ملابس داخلية قطنية بيضاء يلوحون بها بفخر، ففهمنا أنها تخص المهاجمين، علقوها على أفرع الشجر بشارعنا، في مشهد انطبع في ذاكرتي حتى الآن.

قال صبحي إن ذراع ابن ادم قلبه، ووصف من كانوا يقعدون عنده على المقهى حين هوجم بأن أجسامهم مخيفه وقلوبهم ضعيفة.

وعندما تعارك حسن صبحي مع أيمن حنفي صديقي بالمدرسة، تكرر المشهد وتبدل المهاجمون. اندفع أصدقاء أيمن بالسيوف للمقهى، وفي لحظات أصبح المكان خاليا بينما يقف صبحي وحيدا يحاصره أصحاب أيمن. رمى أحد الشباب بمقعد فشج رأس صبحي، فاستل صبحي مطواته، بدا بائسا بمطواة وسط سيوف الشباب، برقت

عيناه بلوثة وضرب بيديه باستهانة مرتين بقوة على إصابته الدامية دون أن يبدو على ملامحه ألم، ثم صرخ بصوت مخيف سمعه كل من في الشارع:

ـ واحد عمل كده تحية لنفسه أول الخناقة.. حيعمل إيه فيكم آخرها؟

بدا لي مضطربا عقليا. العجيب أنهم التفتوا بعضهم لبعض ثم تقهقر أحدهم خطوة للوراء ففعلوا مثله لا إراديا. الأرجح أنها المرة الأولى التي يرون فيها دماء حقيقية خلال عراك، فالشجارات المدرسية تنتهي فور رفع المطواة دون استخدامها عادة.

لم يتزحزح أيمن. نظر بثبات في عين صبحي قبل أن يقول لرفاقه:

ـ يلا يا رجاله.. علمنا عليه وعملنا اللي كان شوقنا فيه.

رجع للخلف ووجهه لصبحي بتحدٍ، فعل أصدقاؤه مثله وعندما ابتعدوا بالقدر الكافي استداروا وركضوا، أيمن واصل التراجع ووجهه لخصمه لحمايتهم خلال انسحابهم.

أحد الجيران لقف صبحي منديلا لوقف نزيفه، ألقاه صبحي على الأرض باستهانة دون أن يلمس به جرحه العاري وهو يتابع أيمن يختفي من أمامه.

١٩٩٩ ما حدث بعد هذا كان مروعا.

أوقع بأيمن.. مشهد صديقي وهو مقيد دون بنطال بدا مذلا، وما لن يمحى من ذاكرتي هو ملامح صبحي وهو يمسك بأذن أيمن ويقول له:

ـ محتاج ودنك دي؟

ـ آه.. محتاجها.

قالها أيمن باستهزاء، لكن استهزاءه تحول إلى صدمة عندما اقتطع صبحي بحركة سريعة جزءا من شحمة أذنه ودسها بدمائها له في يده.

ـ طيب.. خليها لك طالما أنت محتاجها.

جحظت عينا أيمن بألم وذهول، بكى وهو يدرك أنه يتعامل مع مختل.

ـ محتاج ودنك التانية دي؟

أيمن أدرك عاقبة الكلام فأطبق شفتيه بقهر. كرر صبحي السؤال بصوته الغليظ وهو يمسك بأذن أيمن الثانية، ويموج نصل السكين أمام الحضور بحركة راقصة.

ـ مش محتاجها.. مش محتاجها.

قالها ليعالج خطأه، لكن صبحي قطع الأذن الثانية وألقاها بعيدا ناحية الرصيف الآخر.

ـ خليك فاكر أنت اللي قلت إنك مش محتاجها.

ضحك بشكل مضطرب كأنه نفذ شيئا رآه في فيلم مرة أو رآه في خياله مرات.

صبحي مرعب، خياله مريض، لذلك تفهمت فرار ابنه حسن من بيته وتفضيله البقاء في الشارع عن التعامل مع غضبه.

٢٠١١ عرفت بعد عودتي من موقعة الجمل حين حاول أنصار مبارك فض اعتصامنا بالقوة أنه شارك في القتال ضدنا، أراه فأقرأ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾، لكنه يستوقفني عندما يلمحني عائدا من ميدان التحرير ويخاطبني أن أنتبه لنفسي في المظاهرات داعيا لوالدي ومثنيا على أخلاقي، وحين تنحى مبارك شكا لي خنوثة الرئيس ورضوخه لضغوط «العيال»، وكأنما لست واحدا منهم.

وحين اعتزل الحاج والي وقيادات الحزب الوطني العمل السياسي

اضطر صبحي للتقاعد، ومع العجز واختفاء الغطاء الحزبي أغلقت له البلدية المقهى غير المرخص، فاستحدث محلها «نصبة شاي» بائسة.

تحت بيته رسم شبابنا بخط عريض جرافيتي «لا للحكومة». ضايقه ما كتبوه وشعر بأنهم يكيدونه، فمسحها وكتب «لا للشعب» في نفس مكانها لإغاظتهم.

ولطالما ردد صبحي أن يناير هوجة عيال قليلة الأدب، وتأكد من انهيار الأخلاق حينما عاكس فتاة ترتدي فوق الركبة كانت تقصد سيارتها، فقال بصوت عال ضاحكا:

ـ أستغفر الله العظيم.. حتتشوي في نار جهنم على فكرة.

شاع حينها الدعوة لأن ترد البنات على أي تحرش لفظي، لذلك فلم أتعجب عندما ردت عليه.

ـ اللهم قوي إيمانك يا بن القحبة.

قالتها ووقفت بتحدٍ لثوان مستندة بذراعها لباب عربتها المفتوح فلم ينطق، دخلت سيارتها وقادتها بانطلاقة سريعة سينمائية. انفجر جلوس المقهى في الضحك من ردها على من كان قبل سنوات الأخطر في حي السيدة زينب كله. بهت صبحي للحظات، ثم التفت لهم قائلا بانفعال:

ـ هي واحدة نازلة تهيج خلق الله، المفروض تستحي أنها تغلط فيهم يعني؟

ثم برر بأنه كان يربيها لأنه مثل والدها كي لا تنزل الشارع ثانية بهذا الشكل، وحين تواصل التغامز لعدم رده عليها قال:

ـ والله خفت أشتم أبوها ليطلع أنا.. بنت الزانية.

٢٠١٢ عاد صبحي..

من دفناه أكتشفنا أنه بذور.. هذه المرة أصبح بائعا للملابس في عربة جوالة تقف بشارع طلعت حرب، وقيل لتفسير استيلائه على منطقه حيوية إن أعماله بالاتفاق مع الأمن لإيقاف المظاهرات، بحجة أنها معركة بين الأهالي والبائعين.

تيسر حاله ثانية، وبعد بيان الجيش في ٣ يوليو باتت أحلامه هي نفسها كوابيسي، واقترح لي حلا لأكتبه في الجريدة لإخلاء رابعة «بدون نقطة دم واحدة»، عبر رش المياه في أرضيات رابعة ثم كهربتها، توقع أن أتحمس لنشر «الحل» باعتبار أنني مثله ضد الإخوان، وحين قلت له إن ذلك سيتسبب في المزيد من «الشهداء» تضايق من الاسم وتحداني أن نفتح قبورهم ونشوف، فإن لم يتحللوا فهذا يعني أن الأرض لم تأكل جثثهم فهم شهداء على الحق وعلينا لحظتها مساندة عودة مرسي، أما إن تحللوا فالإخوان على باطل، واختتم كلامه بأن أقسم إنه متأكد أنهم ليسوا شهداء وجثثهم تحللت.

قال إننا أحسن من سوريا والعراق، ومصرع ألف أفضل من أن نحمل السلاح ضد الإخوان ونذبحهم في الشوارع أو يذبحوننا، ثم دعاني العجوز لانتخاب السيسي لنرسم المستقبل، سخرت منه فأخبرني الجاهل أنني لا أعلم.

من أعدى أعدائه نفسه التي بين جنبيه لم يكن يتكلم طوال ثلاثة أعوام سوى عن الفوضى وانعدام الأمن، ورقص للسيسي للصباح في ميدان طلعت حرب يوم انتخابه فرحا بعودة الأمن للبلد، بعدها بأسبوع واحد فعلا عاد الأمن وطردوه في إطار خطة تطوير وسط البلد.

انتكست تجارته بسرعة، وحين تصادفنا مرة بدا أنه في حالة رثة

بسبب المرض و الغلاء، وطلب مني بمرارة أن أكتب عن فقراء البلد المنسيين.

صبحي توفاه الله عام ٢٠١٦، وما زلت أجد تحت منزله بشارعنا عبارة: «لا للشعب» بخط كبير وتحتها طباشور أبيض ضخم يخفي ملامح عبارة: «لا للحكومة» التي كتبت في عام ٢٠١١.

أشرف صبحي

٢٠٠١ بجوار ضريح السيدة زينب استوقفني سائق الميكروباص.

ـ واحد جامعة يا كابتن؟

لم أكن منتبها، فنظرت له لحظة حتى استوعبت، ثم هززت رأسي نفيا وتابعت السير، فواصل:

ـ يا كابتن واحد ونطلع.

ـ مش رايح الجامعة.

قلتها وأنا ما زلت نصف شارد، فأمسكني من يدي قائلا بعصبية:

ـ يا كابتن واحد ونطلع.. كفاية عطلة.. هو أنا حتحايل عليك؟

ـ والله ما رايح الزفت الجامعة.. وحياة أمي وأمك ما رايح.

أخذ بغضبتي المفاجئة، بدت له غير مفهومة، كان افتراضه أن شابا في السابعة عشرة من عمره نزل للشارع في التاسعة صباحا هو بالضرورة في طريقه للجامعة، لكنه يتعالى على الكرسي الـ«القلاب» غير المريح.

أثاره صراخي، مد يده على صدري بشكل مستفز فأمسكته من ياقة قميصه. تجمع زملاؤه وكاد الأمر أن يتطور إلى اشتباك بالأيدي محسوم سلفا لصالحهم، ثم انتزعت من بينهم.

ـ ده جاري يا أولاد الزانية.

قالها أشرف جارنا سائق ميكروباص على خط السيدة الجامعة، لم يكن بيننا سوى سلام وهز الرءوس بالتحية، لكنه تدخل لإنقاذي من شجار غير محسوب ولجت فيه بدون مناسبة.

كان هذا بداية تعارفنا.

خلال فترة الثانوي كنت أراسل فتى إسكتلنديا لأستكشف ثقافة مغايرة، استمتعت بالتحدث معه، ثم عرفت فيما بعد أن ثقافة الإسكتلندي تبدو متماهية معي لو قورنت بصديقي الجديد. فأشرف العنصر الأهم في سلة معارفي، بدا مدهشا وهو يقول:

ـ غلطوا.. يبقى نشتمهم بأمهم.. لكن لا يمكن توصل لسب الدين.. مش أخلاقنا يا أستاذ.

أشرف له قصص مع أمين شرطة يريد منه إتاوة يومية، عانده ولم يعطه جنيها، راهن على علاقة أبيه صبحي وزة بقيادات الحزب الوطني، فنفعته مرة وخذلته مرات.

قال له أمين الشرطة إنه طالما هناك أسفلت فسنلتقي على الطريق يا صاحبي، وفعلا التقيا مرة فسحب رخصته، والتقيا ثانية فتم كلبشة الميكروباص، والتقيا مرة ثالثة فسدد غرامات خيالية، خلص الأمر بأن منعه صاحب الميكروباص من القيادة بعد ما تراكمت عليه الأقساط بسبب الخسائر.

٢٠١١ كل من له مظلمة خرج.

يوم جمعة الغضب ٢٨ يناير، تقدم أشرف الصفوف في شارع السد بالسيدة زينب، يلقي الحجارة على الداخلية التي تهاجم المتظاهرين. بدا غير مكترث بقنابل الغاز التي تحيط بنا قبل أن يضطر للتراجع مختنقًا، وبعد نصف ساعة أراه يحمل زجاجات مياه غازية وكيروسين، ويقف في مواجهة المصفحة التي كانت تدوس على المتظاهرين وتخترق صفوفهم لتجبرنا على التراجع.

ـ أم كلثوم قالت إيه يا باشا؟

قالها وألقى المولوتوف، تشتعل المدرعة بالنيران فتتقدم ونتخطاها، بينما أسمعه يكمل:

ـ للصبر حدود.

وفي الليل رأيته بميدان باب اللوق يرتدي بذلة ضابط كاملة فوق ملابسه، أما قبعة الرأس العسكرية فتتدلى من رأسه بشكل مضحك، وفي يده سلاح آلي، ففهمت انه كان من ضمن من اقتحموا قسم السيدة.

اتصل بي يوم ٢٩ يناير الصبح، دعوته للاعتصام في ميدان التحرير حتى رحيل مبارك فسألني:

ـ أنت قاعد بتعمل إيه هناك يا أستاذ وائل؟ تعال شارع محمد محمود.. هنا فيه موت وجو حلو.

كان يشتبك في الخطوط الأمامية لاقتحام الداخلية، ناديته، وحين قدم أشرت له أن يجلس إلى جواري فقعد على الرصيف منهكًا، ناولته منديلا مبللا بالخل فهز رأسه شاكرًا ومسح وجهه، ثم نظر للمعتصمين الذين بدءوا يدورون في الميدان بالهتافات وتساءل:

ـ همّ العيال دول بيشتموا مبارك ليه؟

نظرت له بغباء، فلم أستوعب سؤاله، واستفسرت عن الداعي لاشتراكه في كل هذا.

ـ نازل أخبط في الداخلية.. لكن ماله مبارك؟

حاولت إقناعه بجدوى إنهاء النظام نفسه وليس مجرد إنهاء آلة القمع الشرطية، لم يبد مباليا بكلامي، وبعد أيام انقطع عن النزول للاعتصام في التحرير وقال إن سفن أمريكا في البحر تتجهز لتنقض على مصر فور رحيل مبارك، كما أن إسرائيل ستهاجم سيناء.

لكنه خرج من يناير بخسارة، فأشرف الذي اضطر للعمل على

عربة سجق تهشمت العربة خلال أحداث جمعة الغضب. أشرف انهم صديقي الأسمر أيمن حنفي جارنا بأنه من فعل، ولذلك فحين بلغه نبأ وفاة أيمن في نهاية اليوم لم يترحم عليه، ولكني أعتقد أن الظن في أيمن مبالغة لا تصدق.

٢٠١١ ربط أشرف بين يناير وبين وقف الحال، فيقول عن مبارك:

ـ إحنا اتيتمنا من بعده والمصحف.

اشتراكه في كل الاشتباكات ضد الأمن لم يمتد إلى الإعجاب بكل من يتظاهر ضد السلطة، فعقب مذبحة ماسبيرو ومقتل العشرات من المتظاهرين الأقباط المنتقدين للسلطة العسكرية قال:

ـ المسيحيين لازم يتخسف بهم الأرض.. الجيش واجب يربيهم وإلا مصيرنا أنهم يتنطوا علينا ليوم الدين.

انتخب شفيق.. رأيه أن حكم «الشيوخ» لا يعني بركات السماء بل يعني انتصارهم عليه، استأنف تصدره الصفوف الأولى للاشتباكات بعد حكم مرسي، وحين سلمه صديقي ماحي يوم الاتحادية للإخوان رأيت على وجهه يومها آثار شرور الوطن كله، نفخوه حرفيا، تكفلت بأسرته بعد احتجازه بالمستشفى، تنكدت لأني دفعته إليهم وتصورت أن علاقتنا انتهت، لكنه بعدها التقاني بترحاب. اعتذرت له فقال:

ـ آسف على إيه؟ عيب عليك.. أنت تلميذ ويضحك عليك ميتزعلش منك.

ثم فسر عداءه للإخوان قائلا:

ـ قبل كده كان اللي بيفتري الحكومة ودول اسمهم الحكومة.. لكن الناس دي تتجبر علينا بأي صفة يا باشا؟

فرح بالخلاص من محمد مرسي، ساهم في التفويض ثم نزل

يطالب السيسي بالترشح للرئاسة في التحرير يوم ٢٥ يناير ٢٠١٤، لكن عداءه للإخوان لم ينسه كرهه للمسيحيين، زرته في مرة فتأخر علينا بحجة شراء مشروبات غازية للضيوف، فهمت منه بعدها أنه يقاطع سوبر ماركت «زاد» المجاور لبيتهم لأن صاحبه إخواني، وكذلك يقاطع صاحب الكشك على ناصية شارعه لأنه مسيحي، مما اضطره للشراء من محل بعيد نسبيا.

حين حضر عزاء ابن خالتي محمود شعلان الذي قتلته الشرطة، بدا مشوشا بين كرهه لطرفي الصراع، ولكنه بعد عدة أشهر حسم موقفه وقال لي:

ـ مفيش طالعة جديدة على الأقسام؟

يعتقد أني أعرف مواعيد المظاهرات من الإنترنت، لذا تحسر عندما أخبرته أننا لم نتفق على فيسبوك على شيء مؤخرا.

٢٠١٦ انقطع عني فترة طويلة بعد انتقاله للسكن بفيصل مع زوجته الثانية، ثم التقيته خلال عيادتي لوالده في مستشفى قصر العيني في آخر أيامه. قبل وفاته مباشرة، بدا صبحي وزة غريبا في احتضاره، جاء الحين وحارت العين فتأملت ما كان يفعله بالرجال وما بات عليه عاجزا مشلولا مغيبا.

خرجت مع أشرف لشراء دواء للأب، تبادلنا الأخبار فحكى لي عن زيجته الجديدة وحكيت له عن طلاقي، لمح تأثري وأنا أحكي انفصالي عن منال فانتقل بألمعية وحصافة للحديث حول الشأن العام.

سألته هل ندمت على تأييدك السيسي؟ فاندهش مما أقول وأقسم إنه لم يؤيد الرجل في حياته مطلقا، وحين مررنا جوار قسم شرطة قصر النيل بدأ يغني فجأة:

ـ مش ناسيين التحرير يا أولاد...

أعادني لذكريات عالم حافل بالغاز المسيل للدموع فلاقيتني أكمل:

ـ كانت بالنسبة لكم نكسة...

ـ ظباط على مين؟

تقافزت في مكاني كما يفعل الأولتراس وأنا أهتف:

ـ عايزين ظباط من الصين...

أكمل الهتاف البذيء، فضحكنا. نظرت له، بدا جليا أنه تغير، كرشه مدلدل أمامه ورأسه أصلع وجسده ترهل، لكني فرحت ونحن نهتف سويا كالأيام الخوالي.

حسن صبحي

١٩٩٩ هل تعرف الولد الجلف الذي يضع يده بين ضلفتي باب عربة المترو ويضحك لأن المترو متعطل بواسطته؟

هو حسن صبحي.

يمشي بشبشب يصدر جلبة في الأرض دلالة على عدم اكتراثه بالعالم، صوته عال ويلقي دعابات مستهزئة غير مرغوب فيها، وحين تحاوره يلعب في بطنه بيديه أو يهرش شعره وهو يتكلم، ثم يقول بثقة:

ـ لا لا يا صاحبي.. أنت بتقول أي كلام.

رأيي أنه حمار. ربطته علاقة مع جارتنا من تلك النوعية التي يتحدث عنها الناس في شارعنا ويختتمون كلامهم بعبارة والعياذ بالله. فلأن الحلال أصعب لم ينتظر وأصبح دائم التردد على شقة الجارة التي تكبرنا في السن، حملته على ذراعيها في طفولته وحمل قدميها على كتفه في شبابه، ومن رفعته عطفا وهو صغير رفعها شغفا وهو كبير.

بطنه الضامر كان حمله الثقيل، توفر له كل شيء ليكون إنسانا فاشلا ولم يخيب ظن أحد. هو الابن الأصغر لصبحي وزة القهوجي، وأذكر أنه قبل فتاة إفريقية دون إرادتها في الشارع، ولما اعترضت وصرخت أمسك شعرها بقوة وصفعها، بكت وقالت له «اشتكيتك لربنا»، فشخر وسألها إلى أي واحد من الثلاثة الذين تعبدهم بالضبط توجه شكوتها.

استنادا لسطوة والده في الشارع تجبر، فلا تكاد فتاة غريبة تمر

بشارعنا إلا وجلدها بتعليقات جنسية. وفي مرة عاكس فتاة ترتدي عباءة سوداء، فسألته محتجة:

ـ طيب والنبي أنت شايف حاجة تتعاكس؟

ـ ما دي الحكاية.. أنا لسة مش شايف.. نحب نشوف يا حلوة.

الشابة كانت أخت أيمن حنفي الكبرى والتي لم تعد تظهر في الحي كثيرا بعد زواجها. اشتكت لأخيها فتضارب مع حسن الذي أنكر تعرضه لها، ثم برهن على كلامه بأن أضاف أنهم بوابون وما تحت إبطه أنظف من وجههم، فلم ينظر لمثلها؟

العبارة مقززة، وما حصل بعدها مأسوي.

لم أعد أتحمل رؤية وجهه في شارعنا بعد ما حدث لأيمن، لذلك استرحت حين هرب من المنزل، قيل إن دافع رحيله ضرب والده المستمر له، لكن لم تمض سوى أشهر حتى حصل له حادث مأساوي في الكمبوند الذي عمل به نقاشا، كلاب حراسة فيلا مجاورة نهشت قدمه اليسرى بوحشية، سئل صاحب الكلاب لماذا لم يربطها فقال لماذا يخنق حريتها؟

رجع للمنزل مشوها بعد الفاجعة، وما أن استرد عافيته قليلا حتى عاود أبوه ضربه، فهرب ثانية.

٢٠٠٨ أراهم في إشارات المرور.

أطفال يهيمون في طرقات القاهرة يتوسلون من أجل نقود مقابل وردة أو علبة مناديل، وجوه تتوسل من نافذة سيارتك ثم يختفون.

لكنهم لا يختفون، بل يذهبون إليه.

أطفال شوارع من الجنسين، ينامون سويا بغرض الحماية، ومكاسب كل يوم لقائد المجموعة الأعنف بينهم.

وحسن القائد، هو أكبرهم سنا، ويوميا يثبت قدرته على القيام بأشياء لا يستطيعون فعلها، أصبح بعد استقلاله عن عائلته أجرأ وأمهر في النط من الكباري والسرقة والشجارات. كلمته لا ترد، ويوفر لهم الحماية من الغرباء، ويمتلك حقوقا جنسية تجاه الأفراد من الأولاد والبنات ويترك علامات بمطواته على أجسادهم.

«العيال السيس» يتجمعون في أرض فضاء خالية بين عمارتين بشارع الناصرية قرب ميدان السيدة زينب، عرفت تفاصيلهم حين سجلت عنهم تحقيقا صحفيا، حسن ساعدني في عملي وجعل مجموعته يوافقون على إجراء حوار معي، أخذ المبلغ المالي الضئيل الذي عرضته عليه لكنه للأمانة أعانني قبل أن أعرض عليه أي شيء. سألته لماذا يقبل كل ما يتعرض له من مضايقات أمنية ولا يعود لمنزله، فأجاب:

- البوليس بيتضرب لكن أبويا مبيضربش.

٢٠١١ نحن في ليل ٢٨ يناير، وإذا كنا سنسرق فهذا هو الوقت المناسب.

وأنا عائد من ميدان التحرير رأيت داخل محل «خير زمان» نساء بجلاليب سود وشباب يتراقص الفقر على ملابسهم ويغلفهم دخان من مصدر حريق غير مفهوم، والكل يحمل ما طالت يداه من زيت وسكر وألبان.

- هو فيه إيه؟

- يا أستاذ.. إحنا بنسرق خير زمان.

قالها حسن وهو يخاطبني بلقب أستاذ الذي اعتاد أن يناديني به، وهو يشير بعصا عليها دم للمحل، ثم أمر أحد فتيانه بإيصالي لمنزلي وأن يحميني من «الهوجة».

بعدها لم أعد أرى حسن، اختفى من الأرض الخراب بشارع الناصرية، ثم عرفت من أخيه الأكبر أشرف أن حسن ومجموعته لهم دور فيما عرف بـ«حركة زحلقني»، وهم «هتيفة» صوتهم عال في المسيرات، يبثون الحماس في المتظاهرين، اشتهروا بأنهم أول من يشعل الاشتباك وأول من ينسحب منه، وتتردد أقاويل عن علاقة مالهم بالأمن.

وفي عام ٢٠١٢ سمعت من أخيه أيضًا أن حسن يتصدر الاشتباكات ضد الإخوان، وحين عاود هو ومجموعته الظهور بشكل متقطع في الناصرية زرته ثانية لأكتب عنهم. هذه المرة لمحت في يده محمولا غالي الثمن وأنا أستمع له يردد هراءً مرتبا، يبرئ كل الأطراف من أي مسئولية عنهم باستثناء الرئيس حينها محمد مرسي، شممت التلقين فلم أحرر شيئا. لا أذكر أغلب ما قيل وإنما ما رسخ في ذهني شجاره مع شابة ترتدي ملابس رثة في أوائل العشرينيات.

-أنا أصلا طلقتك ٣ مرات.

-أنا على ذمتك غصبا عنك.

تركها تصيح وتشاغل عنها بالحديث لآخرين. وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها، عرفت بعدها أن «زحلقني» تحولت إلى ميدان التحرير يرفعون صور السيسي بعد كل صلاة جمعة، لكن حسن لم يكن بينهم فقد انقطعت علاقته بالسياسة وبأشياء أخرى.

قيل إن شباب «حازمون»، وهم فصيل إسلامي مؤيد لمحمد مرسي، يعتصم بميدان النهضة، اشتروه وانضم لهم ضد أهالي بين السرايات المعارضين لمرسي. وفي رواية أخرى سمعت إن ربنا هداه على يد «حازمون» لما رآه منهم من خير لم يره في حياته.

أصيب بطلق ناري في عضوه الذكري أطلقه عليه شباب بين السرايات خلال اشتباكات النهضة التي أعقبت مظاهرات ٣٠ يونيو بيومين، تمكن أخوه أشرف من إدراج اسمه في جمعية خيرية لتقوم بمداواته. وأخر ما سمعته عنه أن علاجه توقف بعد إغلاق الجمعية لارتباط مجلس إدارتها بتنظيم الإخوان.

ياسمين أبو العز

٢٠١٦ تحكي، نتحلق حولها، نضحك من قصصها، رفعت وجهها إلينا فوجدتني مبتسما، حينها علمت ياسمين أنها كسبت مشجعا جديدا.

بهرتني، لمحت يديها، وفرحت أنها لا ترتدي دبلة في إصبعها. نصدت العمل في اليوم التالي منتشيا قبل أن أتلهى في كتابة مقالي الجديد.

ويوم أن رأيتها ثانية تبسمت لها فبشت لي، سعدت أنها تذكرتني، إذن أنا لست مجرد صديق لصديقتها التقته مرة وانتهى الأمر، اجتاحتني أحاسيس جميلة ذكرتني بما شعرت به نحوها في أول مرة، فكرت كم هو مهم أن أبدا أخيرا بالشعور بامرأة أخرى وأخرج من أسر منال طليقتي، وحين انتهى لقاؤنا قلت لها إننا سنتواصل في لقاء قريب فرحبت بلطف مشجع.

ذهبت للعمل وانشغلت، لم تجمعنا مصادفة بعد ذلك فاختفت لشهرين من حياتي، رأيتها مرة ثالثة مع أصدقائي ففرحت، لكني لم أجد شيئا مخصوصا أقوله لها، تصافحنا بود على وعد بلقاء آخر أطول.. ونسيتها.

عزيز البدري

٢٠٠٨ نجح في نقل الحلقات السوداء إلى الجانب الآخر قبل أن يتمكن صديقه من نقل الحلقات البيضاء، أراه مبتهجا لأنه انتصر في لعب الطاولة، والحقيقة أنه تافه.

يثرثر عزيز البدري كثيرا في السياسة رغم أن عمره تخطى الستين، لذلك لم أسترح له مطلقا.

هو رئيس تحرير الجريدة الأسبوعية التي عملت بها محررا صحفيا فور تخرجي، وفي أول لقاء لي مع منال قبل زواجنا قالت:

ـ تعرف إن عزيز عمي؟

أرد بالإيجاب، فتضيف:

ـ طيب تعرف أنه وسخ؟

لهذا أحببتها.

٢٠٠٩ بعد زواجنا أصبحنا نقضي أسبوعا في شاليه «عمي عزيز» بالساحل الشمالي، لم آمن له رغم زواجي من ابنة أخيه، أيدتني بضحكتها الحلوة قائلة:

ـ مفيش صاحب عمل يتصاحب.

يقدم عزيز برنامجا في فضائية مستقلة موالية لمبارك، ومنذ الحلقة الأولى للبرنامج أطل شيئان من الشاشة: وجهه وحقارته.

يستضيف في برنامجه صحفيا يساريا نصف مشهور يتكلم عن عدم فرضية الحجاب، ليهاجمه عزيز ويقول لجمهوره الواسع من المحجبات إنهن الصواب والضيف خطأ، أو يستضيف متحولة جنسيا

ويمسح بكرامتها الأرض. وما زلت أذكر مشهده العبثي وهو يقول لها وعيناه في عينيها ليطارد ردود أفعالها:

ـ قبل ما تكوني بنت كنت ناجي.. مالك يا ناجي؟ أنت نسيت أنك ناجي؟

يدس العسل في السم، يختلق عراكا بين الضيوف ثم ينهي الحلقة بحديث مطول عن الأخلاق والحياء.

الكذب ليس له قدمان ولكن له لسان عزيز، لذلك فكلما أطل من الشاشة أيقنت أن الإجهاض ليس حراما، فهناك بشر التخلص منهم ضروري وهم ما زالوا تجمعا دمويا، وعزيز واحد من هؤلاء.

وبينما نسير سويا في مهمة عمل، أشار للمباني العشوائية في شارع فيصل وقال:

ـ لو مبارك ضرب مصر بالضربة الجوية، وراح حكم إسرائيل ٣٠ سنة كان زمانا زي الفل والله.

هذا بالضبط عكس ما يردده بالتلفاز عن حكمة الرئيس.

٢٠١٠ يعرف الحق ويفعل الباطل.

من عاش على شيء اغتنى بسببه.. جنى مالا وفيرا بسبب الإعلام، ومع مباراة مصر والجزائر في تصفيات كاس العالم تحول برنامجه نصف الناجح إلى البرنامج الجماهيري الأول. يبدأ الحلقة بوصلة هجوم على الجزائريين وينهيها بالاستخفاف من هتافهم الأشهر «وان تو ثري.. فيفا لاجري» قائلا: «وان تو ثري.. فيفا لانجري».

حرض مشاهديه على قتل كل جزائري يعيش في مصر. فالإعلامي المقرب لجمال مبارك يعي أنه يصنع شرعية رئيس من خلال خلق انتصار، ولو في معركة كروية.

ـ شرعية حسني مبارك أنه حضر حرب أكتوبر، وشرعية جمال مبارك أنه حضر مباراة الجزائر.

نجاحه تحول لنفوذ، وشاع أنه سيترشح على قائمة الحزب الوطني في الانتخابات البرلمانية، فسخر زميلنا بالجريدة محمد مهدي من النجومية الوليدة وقال إن عزيز شخص وطني ومن حبه لبلده تشرب بدنه ألوان علم مصر، فدماغه بيضاء وقلبه أسود ومؤخرته حمراء.

٢٠١٠ نجح في الوصول لمقعد بمجلس الشعب بعد عملية تزوير شابها انتخابات. بدا أنه يقترب من تحقيق أمانيه، لكن في الشهر التالي للانتخابات ميدان التحرير حول أحلامه لمجرد أضغاث أحلام.

كنت نبهته أن اتق شر من أسأت إليه، فلم يستمع. ومن ميدان التحرير حيث يعتصم عشرات الآلاف اتصل به زميلنا بالجريدة مهدي من رقم غريب، لم يرد عزيز فبعث له مهدي رسالة «رد يا كلب».

فوجئنا به يتصل، أشار لنا مهدي بالصمت وضغط زر مكبر الصوت بالمحمول لنسمع.

ـ نعم يا أفندم.

رد عزيز.. لم يسأل أي «أفندم»، بدا منسحقًا كليا، فبدل مهدي صوته باحترافية وعاجله بوصلة سباب، ثم أبلغ عزيز بصيغة الأمر أن ينتظره في المطار خلال ٣٠ دقيقة.

ـ كل حاجة راحت يا نجس بسببكم وبسبب طمعكم.

ـ يا فندم عندك حق.. لكن أنا خوفي إني أنزل من البيت فيقتلوني.. أبوس رجلك ابعت لي حد ياخدني.

ذهلنا.. كتلة العجرفة منهارة إزاء «أفندم» مجهول، ولا تتوقف عن البكاء الهستيري دون أن تجرؤ حتى أن تسأل من يخاطبها.

واصل مهدي قبضه على الجهاز العصبي لعزيز، ولم تنته المكالمة إلا عندما اختطف زميلنا مجدي الفيل الهاتف وأنهى الاتصال فجأة.

ـ كفاية يا مهدي.. كفاية.

ساد صمت كئيب، تصورنا المكالمة ستكون تراشقا بالألفاظ وليس انكسارا مهينا.

كانت لحظة انتصارنا، فلماذا انقبضنا؟

٢٠١٢ كل من عليها فشل..

اعترف عزيز في لقاء تلفزيوني أنه شتم أهلنا بالجزائر بتوجيه من أمن الدولة مدعيا أنه فعل مجبرا وبالترهيب، ولكني كنت أعلم أنه ما خير بين أمرين إلا واختار أحقرهما، وأنه سيبصم راضيا ولو بمؤخرته إن كان هذا سيصعده أسرع.

تهمش كثيرا لفترة، وبعد بيان الجيش في ٣ يوليو ٢٠١٣ قال إن كنتم تحبون الدولة فاتبعون تحبيكم الدولة. نصحني أن يا بني اركب معي باعتباري واجهة صحفية جيدة، فمعارضتي لمبارك وللمجلس العسكري ولمرسي تمنحني مصداقية حين أقول إن ما وقع ليس تحركا عسكريا.

رفضت فأحنقه ذلك، فنجاحه عندهم رهن بعدد من يسوقهم لحظيرة الدولة، هددني أن يا صديقي ستفضي إلى ما قدمت، والعجيب أنه هو من فعل.

هتف بحماس تحيا مصر فقيل له ما معناه «عند أمك»، وألزموه بالتبرع لصندوق «تحيا مصر»، فعل وصبر على ما يكره، لكنه لم ينل ما يأمل.

بلغه أن الرئاسة تصفه بالفاسد، لذلك فحين طلب منه التبرع

ثانية امتنع. قيل له إن كل شخص يؤخذ من كلامه ويرد إلا الأجهزة الأمنية، لكنه رفض.

قال لي إن لكل داء دواء يستطب به إلا عناده أعيا من يداويه، ووعدني بأنه لن يدفع قرشا وسيرد ويلاعبهم بجريدته. كنت لحظتها صرت واحدا من أهم كتاب الرأي وضمن قلة اشتهرت بمناوأتها لسلطة ٣ يوليو العسكرية في الصحف المستقلة، فطلب استكتابي بجريدته، رفضت ترك الجريدة اليومية التي أعمل فيها، وشككت أن أحدا سيقتنع باستيقاظ ضميره المفاجئ.

ـ أنت معارضة؟ طيب بذمتك أنت مصدق نفسك؟

ـ لا طبعا.. لكن الناس بتصدقني.

وبالفعل نشرت جريدته موضوعات تنتقد الدولة البوليسية، وصاغ سلسلة مقالات بعنوان «نعم إنه حقا حكم عسكري»، اعتبر خلالها أن المناخ السياسي أخطر من أيام مبارك، فبزغت كلماته كصاعقة وسط عتمة إعلام أغلبه موجه.

وصلته تهديدات فاستهان بها مكتفيا بتخفيف حدة الهجوم، حاول إمساك العصا من المنتصف فوضعوا العصا كلها في مؤخرته، وخلال أيام أقفل مصنع الورق خاصته.

وجدوه لينا فعصر، فلما تيبس كسر، ومن جلس آمنا بين فخذي الدولة اغتصبته. واصلوا سحقه، فانهار عمله كبيت نسجته العنكبوت، التقيته فرأيت في وجهه تجاعيد وذكريات انكسار، قال بمرارة:

ـ إحنا اللي وصلنا البلد للعصابة دي.. كلنا كنا سفلة وأوساخ أيام مبارك.

ـ حضرتك ممكن تتكلم عن نفسك.

ـ نعم؟

ـ مش كلنا.. لكن أنت كنت كده.. جو كلنا فاسدون لا ينطبق على الكل.. ينطبق عليك.

لم يرد في لحظتها، ابتلع الإهانة وناقشني في موضوعات أخرى، ثم عاد وقال بصوت رخيم هادئ:

ـ وأنت تطلع إيه في ورق الكوتشينة؟ أنت يا بني مش من ضمن أي جملة فيها كلمة كلنا أصلا.

٢٠١٥ بعدها بأسابيع طلبني بشكل عاجل، تصورت أنه يريد الحديث عن إجراءات طلاقي ومنال، التي كانت ترفض لقائي للنقاش حول التفاصيل باعتباري خائنا هجرتها دون مبرر، لكن بعد دقائق من المقابلة تبينت أنه يرغب في الاستعانة بعلاقتي بصديق يعمل في يوتيوب لحذف فيديو سرب له، كان يرغب في إقناع إدارة يوتيوب بخطاب رسمي أن الفيديو ينتهك خصوصيته الشخصية.

فهمت أن قد سرب له مكالمة جنسية، قلت له بما أخبرني صديقي من أنه لا وسيلة لذلك، فبعد إذاعة التسريب مئات المواقع يمكن تحميل الفيديو عليها خلاف يوتيوب.

أطرق قليلا، ففكرت في عبثية أنه أفلت من كل جرائمه وسيعاقب من المجتمع على اتصال هاتفي لا يخص أحدا سواه.

كان بين حاجبيه عرق يدره الغضب، برز منه وهو يحدثني عن أن من صارع الدولة صرعته، وعن عسكريين باتوا يسيطرون على الأخضر واليابس.

بدا منفعلا فذكرتني تعبيرات وجهه بمنال حين تنفعل، واكتشفت الآن أن وجهه الشائخ يحمل جمال طلتها، تبسمت لأني أذكرها، وذهلت عن كل شيء وغبت في وجهه كأني أمام بديع وجهها.

منى وحيد

١٩٩٠ الطفلة في غرفة مظلمة، يدوي صوت أذان الفجر، تستجيب الصغيرة للنداء وتنهض لإيقاظ أمها.

ـ الرجل قال في الميكرفون الصلاة خير من النوم يا ماما.

ـ وجهة نظره يا حبيبتي.

وقفت الطفلة تفكر قليلا، ودخلت نامت.

٢٠٠٥ تربطني بمنى علاقة سطحية، ومنى تربطها بالجميع علاقة سطحية. في أول أيام عملي بجريدتنا الأسبوعية أراها تجلس أمامي وتدندن مع نفسها أغنية «أنا وأنت اتنين تالتنا.. الحلوة اللي اختارتنا»، ثم فجأة رفعت رأسها نحوي وسألتني:

ـ هو هشام عباس كان بيبشر بالجنس الجماعي؟

ابتسمت مرتبكا، وتحولت ربكتي لذهول عندما سألها زميلنا في مرة أخرى مازحا:

ـ مش آن الأوان نفرح لك بقى يا بنتي؟

ـ أنا بنام مع صاحبي ومبسوطة كده.

خرس، بينما تطلعت للسقف متأملا كأنني لم أسمع شيئا.

٢٠٠٦ منى هيئتها تشبه منال، فمنى جميلة، وبشكل ما فكل أنثى جميلة تشبه منال.

يصعب استيعاب ما وظيفة منى في العمل، يفترض أنها مصورة

صحفية لكن مهامها وزعت على بقية زملائها، لاحظت أنها تتصور أكثر مما تصور وأن عدد الصور التي تلتقطها لنفسها أضعاف ما تلتقطه للأحداث، التي قلما ما تنخرط في تغطيتها.

تتغيب كثيرا، وحين تحضر لا تشاركنا حين نشتري وجبة الغداء من المطاعم الغالية نسبيا، مكتفية بمشاركتنا حال قررنا تناول وجبة من مطعم رخيص للفول أو الكشري.

ظهر جليا عسر الحال، فحذرها زميلنا بالعمل مجدي الفيل من أنها ستموت بجرعة زائدة من الدلع، فمن لم تصبر على عملها صبرت على الإفلاس؛ فأسمعها تدعو الله وهي تسير في ممرات الجريدة.

- يارب خد مني المرقعة وسيبني وأنا حنطلق لوحدي.

منحتنا الجدل ومنعتنا العمل. رئيس التحرير عزيز لم يستبعدها رغم إهمالها، وعلى حين غرة حدثت زيادة في راتبها لا تتناسب مع جهدها، لم يسترح أحد في الجريدة للزيادة غير المستحقة، أما هي فقالت لي:

- مشكلة البلد تتحل لو كل مدير عمل واحد حلو مع صاحبته.. ساعتها جايز يعرفوا إن التعيين وزيادة المرتب بالكفاءة مش بالجمال.

الارتياب من الزيادة لم يغير أداءها المهمل، حتى قالت لي:

- بيرفضوا نشر صوري وشغلي الكلاب.

- أنت بعت شغل الأسبوع ده أصلا يا منى؟

- لا.. ما هم انتهزوا فرصة أني مبعتش صور واستغلوا ده عشان مينشروش لي حاجة.. حجج فارغة.

لم أستوعب للحظة، ولم أنتبه لأنها تسخر من نفسها، إلا حين أنهت عبارتها بضحكتها المميزة العالية.

٢٠٠٦ اسمها في العمل «منى مع نفسها» أو «منى Alien»، أي منى كائن فضائي بالإنجليزية، لا أذكر من أطلق عليها الاسم لكنه راق لي، كنت أخاطبها به فترد بشكل طبيعي وهي مبتسمة.

في مرة سألتها عن أحوالها فسكتت طويلا كأنما تستثقل الإجابة ثم قالت بنصف ابتسامة:

ـ ما نخسر بعض أسهل؟

فيما بعد فهمت أنها حققت رقما قياسيا في خسارة البشر، لقلة مزاجها للكلام، منطقها لماذا تحكي عن حياتها لشخصيات ما زالت تتعرف عليهم، بينما عدم معرفتهم أسهل؟

لذا بدا مدهشا اهتمامها بشخص ما، فيوم أن رأت زميلنا محمد مهدي في أول يوم عمل له أطلقت صفيرا وسألتني عنه:

ـ الحلو جديد؟

ـ آه يا منى.

ـ طيب حد والنبي يدي له رقم تليفوني ويعرض عليه صوري بالمايوه.

قالتها وضحكت. ورغم وسامته اللافتة لكني اندهشت من عنايتها المفاجئة بأي مخلوق بشري، ففسرت لي:

ـ محتاجة رجل في حياتي.. واحد يفتح لي البرطمانات.

راق لها اختلافه، تصف تدينه بأنه «مثير»، وتعتبر لحيته جمالا ذكوريا محببا، فرأيها فيمن ارتبطت بهم أو نامت معهم كان واضحا.

ـ المفروض إن كلهم مصورين أو فنانين.. وكلهم بيعرفوا يكتبوا.. وكلهم مع الحريات.. وكلهم موهوبين.. والحقيقة إن كلهم ولاد لبؤة.

لكن العلاقة بينهما توترت عندما سمعها مهدي تتساءل عن جدوى الدورة الشهرية، لاعنة كونها مخلوقا ينزف دوريا دون مبرر. شرح لها الفائدة الصحية والحكمة الربانية فقالت:

ـ ما انتم زي الفل من غير ما تنقطوا دم كل كام أسبوع.

ـ ربنا يستر عليكي من دماغك يا منى.

ـ مش حيستر.

لم تعجبه عبارتها وتوترت الأجواء، فشرحت له أن ما يعتبره من كلامها معاصي هو اختلاف وجهات نظر بينها وبين الله، انتفض من الكلام وسألها ليحسم الجدل:

ـ أنت مؤمنة يا منى؟

ـ هو موجود أنا متأكدة.. لكن مش سخيف زي ما الأديان ما بتصوره لنا.

٢٠٠٨ بعدها انحصرت علاقة مهدي ومنى في الزمالة الرسمية، نأى عنها بعد ما قالته.

ويوم عاشوراء اعتذرت منى وحيد عن تناول الغداء لأنها صائمة، فسخر مهدي من صيام «مولاتنا منى رضي الله عنها». لم ترد عليه وتحشرج صوتها كمدا، وبعدها بساعة انتصبت أمامه وقالت بتحد بعد ما استجمعت نفسها:

ـ أنت إنسان طيب يا مهدي.. لكن تربيتك مع الإسلاميين حولتك لحمار، وفهمتك إن ربنا ملككم.. ابعد الفكرة دي عن رأسك والنبي.

بعدها كفت عن اللهفة عليه أو حتى الانتباه إليه، سألتها عن العلة فأجابت:

ـ الطاقة اللي اطلعها في الاهتمام بإنسان مريض أشرب بها حجر معسل أحسن.

٢٠٠٩ كان فظا غليظ القلب فانفضت من حوله، وبعد إنهائها

علاقتها التي لم تبدأ بمهدي تقاربنا أكثر كأصدقاء، وحكت لي عن طفولتها مع أمها، رأيتها مرة ترتدي سترة بأكمام طويلة على غير عادتها فتطوعت بالشرح قائلة:

ـ استسلمت للبرد ولبست طويل مساهمة مني في الحفاظ على عفة الشباب المصري.

نظرت لها بلوم فدافعت عن نفسها قائلة:

ـ أنا شخصية محافظة والله.. لكن أحيانا بتباس بوس هادف في سياق الدراما.

قالتها وتركتني وولغت مكتب عزيز، بدا التلميح مريبا لتطور علاقتهما، فلم أع إن كانت جادة أم تمزح كعادتها.

٢٠١٠ فات مهدي بجوارنا خلال تناولنا وجبة الإفطار فقالت لي:

ـ إياك تكره أي إنسان.. الكره متعب وطاقة سلبية كفيلة إنها تحرقك.

استنبطت أنها تشير إليه بأسلوبها الموجز المعتاد، هززت رأسي مقتنعا فاستطردت:

ـ هزهقه في حياته لغاية ما يكره اليوم اللي اتولد فيه.. لكن أنت حافظ على نفسك صافيا من ناحيته وحب كل الناس.

بدت مخيفة، حذرتها من افتعال أزمة قد تضرها بالعمل، فطمأنتني:

ـ انسى.. ولا مخلوق يقدر يأذيني في الشغل.

ـ لك ضهر؟

ـ لا لي صدر.

حطت راحتها أسفل ثدييها وهزتهما هزة خفيفة، وبعدها بأيام أطيح بمهدي من رئاسة قسم الخارجي والترجمة، أزاحه عزيز بعد خلاف قيل إنه إداري.

٢٠١١ لم يبد هناك رابط واضح بين منى وحيد وبين تنحية مهدي، الأمر بدا خلافا معتادا في العمل، لكني حاولت غض النظر عما انخيل أنه بقع حمراء على رقبتها كلما رأيتها مع عزيز.

وبدون اتفاق تركت أنا ومجدي الفيل جريدتنا الأسبوعية وانتقلنا لجريدة أخرى يومية، لم يكن هناك شيء مؤكد، لكن هناك احتمالات لا يمكن التعايش معها في محيط عملك، أما هي فواصلت لا مبالاتها حتى أتت لحظة حماستها الوحيدة خلال مظاهرات يناير، ليلتها جمعتنا لنخطط من أين سننطلق وهي تحضر في حقيبتها البصل والكمامات وزجاجات البيبسي والخل، التي انتشر منشور لشاب تونسي على فيسبوك عن ضرورتها لمواجهة الغاز المسيل للدموع.

خلال جمعة الغضب منى دافعت عن العساكر باستماتة كي لا يجبروا على خلع ملابسهم كما فعل بالضباط، رأيتها تهتف بصرامة:

-العساكر لا.. العساكر لا.

صراخ الجموع لم يهزها، بدت كاسحة فخرج أمامها أفراد سيارة أمن مركزي كاملة عساكرها كانوا محاصرين بآلاف المتظاهرين دون أن يمسهم أحد.

ثم بدأت علاقتها مع عزيز تتوتر، حذرها من أن الإخوان سيستغلون مظاهرات الشباب ليحكم تنظيمهم البلد لقرون، فقالت له إنه يصدر لنا مشاكل جيلهم وقلقهم بعضهم من بعض.

وبينما تجلس إلى جواري في الميدان، يرسل لها عزيز مهددا أن ترحل هي وأصحابها من التحرير قبل أن يدك الجيش الميدان، أرتني رسالته قائلة:

ـ الوسخ.

كتبت له: «أسمح لي أختلف معك.. مهنتنا مهنة رأي وأي إنسان عاقل موقفه لازم...».

مسحت ما كتبته وعاودت الكتابة: «لا أتفق معك لعدة أسباب إنسانية ومهنية وأخلاقية...»

ثم مسحت لتكتب: «ملعون أبو أمك على أم رأيك يا وسخ».

وضغطت إرسال.

٢٠١٣ موقفها بدا عظيما، مشكلته الوحيدة أنها بقيت بعده عامين عاطلة في منزلها بلا عمل.

منى شاركت في كل الفعاليات ضد حكم مرسي والإخوان، واحتفلت يوم بيان الجيش في ٣ يوليو بالإطاحة بهم، لذلك فعندما قرأت لي مقالات ضد طلب السيسي تفويضا شعبيا لمواجهة الإرهاب، ارتابت مما اعتبرته دفاعا عن تنظيم يريد قتلنا، تناقشنا طويلا ثم سألتني بصراحة:

ـ أنت إخوان؟

ـ ما أنت عارفة أني ضدهم.

ـ ناس كتير قالوا إنهم معارضين للإخوان وفي الآخر كلهم طلعوا خلايا نايمة للتنظيم.

سألتها ألا يفترض أن الإخوان تنظيم ديني ولا يسبون بألفاظ خارجة؟ فلما أقرت كلامي قائلة إن هذا ما يفترض أن يكون، ذكرت عضو أمها باسمه الفاحش البذيء، واختتمت قولي ساخرا بأني فقط أريد طمأنتها.

ابتسمت بخجل، لكنها مشت مطمئنة أني لست إخوانيا.

٢٠١٤ أيدت منى اجتثاث اعتصام رابعة ووصفته بالمسلح، وفرحت لبضعة أيام أن الأمن لم يذر على الأرض من خيام اعتصام الإخوان ديارا.

بعد الفض السيسي نصر بالرعب فتقوقعت، تألمت وهي تستوعب ببطء انعكاس الأمر علينا، ثم أصبحت لا تكترث وهو ألم أشد.

حين أدركت منى أننا استبدلنا بغباء العقائديين عقيدة الغباء ضجرت من ملل التكرار، استطالت طريق التغيير فتوقفت عن المسير. ولأن الكون وبرودها ليس لهما نهاية باتت الأكثر سلامة نفسيا فينا، تعاملت مع الفشل ببساطة وبررت سكينتها بأن الله أروع من أن يتركنا نسعى للأبد للإصلاح.

ولأن السكوت علامة القمع أحجمت منى عن الحديث في الشأن العام، صارت تكره المتحمسين ويضايقها إصرارهم على ما لن يحدث، رزقها الله اللامبالاة مع المحنة فعادت المحنة عين العطاء، وعندما رأتني مصرا على مواصلة طريق تراه مسدودا وصفتني بأني مقيم شعائر بجزيرة مالطة. فرغت وقتها لمشاهدة أفلام الرومانسي كوميدي وقراءة الروايات الخفيفة، أمسكت عليها لسانها ووسعها بيتها معتقدة في ذلك الخلاص.

٢٠١٥ ما حدث بعد ذلك كان مفاجئا.

ورغم خلافها مع مهدي فإنها صدمت عندما اعتقل، يوم أبلغتها بالخبر أراحت ظهرها إلى كرسي المكتب وبدا عليها التفكير بعمق، جلست أمامي وحين رن جرس التليفون الأرضي رفعت السماعة ببطء ثم أغلقته في وجه المتصل دون أن ترد، تكرر الرنين فعاودت بآلية، وجمت منى طويلا، ثم فجأة قالت بانفعال:

ـ ما كل واحد مننا نزل أم التحرير يروح يسلم نفسه وخلاص، بدل وجع القلب على مراحل.

بعدها قبض عليها.

اعتقلت في ميدان طلعت حرب بمفردها في منتصف الليل، وهي تحمل لافتة كتب عليها: «وعدت مش حترفع الدعم وطلعت كداب يا ريس».

القبض على شخص بحذرها ولا مبالاتها صدمني، لا أعلم ما الذي دفعها للتظاهر، ربما تصورت استحالة القبض على فرد وحده بتهمة التجمهر، أو شعرت أنها لابد أن تفعل شيئا بعد القبض على مهدي.

ألقي بها في جوف علبة زرقاء قيل لها إن اسمها سيارة الترحيلات، وجهت لها النيابة تهم التظاهر وتكدير السلم العام، ثم خرجت من نفس السيارة بعد أربعة أشهر قضتها في الحبس الاحتياطي.

زرتها عقب الخروج فلم تتلفظ بحرف عن السجن، بدت لا مبالية وكأنما لم تتعرض لتجربة قاصمة.

عادت للعمل بالتصوير، وبعد عام من خروجها من الحبس اعتصمت وحدها في مقر وزاره الثقافة احتجاجا على تجاوزها في إحدى منح الوزارة، لكن هذه المرة لم تتعرض لضرر واستجاب الوزير لمطالبها.

أميرة أبو العينين

٢٠٠٥ أسمع أصواتا غير مفهومة، الغريب أنها تبدو كما لو كانت تأوهات جنسية، الغريب أنها أقرب ما تكون للتأوهات الجنسية، الغريب أنني أدرك الآن أنها فعلا تأوهات جنسية.

الصوت خفيض، لكن مثله هو صوت مميز.

كنا في العمل، أتلفت بانزعاج حيث عشرات أجهزة الكمبيوتر في صالة التحرير بالجريدة، وأتساءل أي جهاز من بينها هو مصدر الصوت.

٢٠٠٥ في طريق العودة من العمل تشير أميرة أبو العينين بإصبع السبابة نصف إشارة إلى كوبري كنا نمضي بجواره وأسمعها تقول: «ستة»، ثم نمر بكوبري آخر فتردد «سبعة».

أميرة سكرتيرة رئيس تحرير الجريدة، تصادف أن ركبت معي الميكروباص المتجه للجيزة. كنت زميلا حديثا بالجريدة ووجها جديدا؛ لذا ربما لم تنتبه لي جوارها، سألتها باسما:

- بتحبي تعدي الحاجات؟

أجفلت كأنما اكتشفت لتوها وجودي، بدت تهم بالإنكار فبادرتها:

- وأنا كمان.

ابتسمت باستحياء ثم ارتاحت في جلستها وحكت لي أنها تعد النواصي والتقاطعات والمطبات وحين تسير تعد بلاط الرصيف والسيارات المركونة.

بدت لطيفة ومضحكة، ابتسمت لما تقول فأضافت كأنما تتراجع:
ـ الواحد بيسلي نفسه.. وأنا أصلا عبيطة.. عارفة والله.

٢٠٠٥ أميرة خريجة معهد تعاون وتسكن شبرا، تغدق كثيرا من الكحل على عينيها، وترتدي دائما مجسم جسد «كارينا» ضيقا، ملابسها قطع وفيرة بعضها فوق بعض تلتصق بجسمها وتظهر امتلاءه من البطن والفخذين. أما هاتفها المحمول فعادة معلقا بباطن طرحة حجابها تتحدث فيه بينما يدها مشغولة بأوراق العمل.

تملك أميرة سلطات بحكم كونها سكرتيرة رئيس التحرير، فهي من تتلقى شكاوانا وتنقلها له، وهي أول من يعرف موعد صرف راتب لا يأتي أبدا في موعده.

ضايقني أن قوة شخصيتها لا تظهر سوى مع عمال الجريدة، توبخهم على الصغيرة والكبيرة بالإحراج وليس بالزعيق، تتعمد أن يكون في صوتها خشونة بشكل غير مفهوم. واعتدت مشهد الزملاء يتحلقون حول مكتبها ويسألونها عن موعد صرف رواتبهم.

ولكني لاحظت شيئا.

أميرة تضللهم.. أعلم يقينا من خلال زوجتي منال أن القبض يوم ١٠ في الشهر وأميرة تخبرهم أنه يوم ٥، يتعلق الزملاء بأمل وهمي باقتراب الموعد، وكل يوم تقول لهم: «غدا غدا».

رأيت نظرة الشماتة في عينيها جلية وهي تردني بعد ما وصلت لأول طابور قبض الراتب بشق الأنفس، وتخبرني بأن المحاسب اضطر للانصراف لظروف طارئة.

العدوانية مخبأة لكن التشفي ظاهر. ثم جاء صدامنا، رأيتها تحدد موعدا لفتاة تريد التدرب بالجريدة بعد أسبوع، استوقفت أميرة

وأخبرت الفتاة بحقيقة يعلمها الجميع أن الجريدة اكتفت بعد أول سنة من صدورها، وباب استقبال المتدربين مغلق.

- إلهي يسترك.. شهرين وكل مرة يتقال لي الأسبوع الجاي.. وكل مرة أجهز شغل جديد وأقول يا رب يعجب، لغاية ما طلع عين أهلي.

قالت الفتاة، فأميرة توهمهم، تعذبهم بتعليقهم بأمل مختلق، وتمنحهم نصف أمل بنصف وعد، الأمل الزائف وسخ وهي تمنحهم الوسخ.

لم أفوت الواقعة، أمسكت بها لأول مرة، انفعلت وزعقت وسط دهشة واسعة من غضبي غير الاعتيادي. اعتذرت أميرة بأسف كسير فصممت على التصعيد للإدارة، طلع رئيس التحرير من مكتبه وامتص اشتدادي بقبول الفتاة، التي عرفت لحظتها أن اسمها باكينام الصباغ كمتدربة في الجريدة.

بعدها أميرة أضحت تتجنبني، وأحسب أنها باتت تخشاني.

٢٠٠٦ لتوفير النفقات إدارة جريدتنا تقطع اتصالاتنا مع المصادر كل ٣ دقائق، نتصل بأميرة فترد ببرود كريه. صعدنا من صالة التحرير بالدور الأرضي لنشتكيها لرئيس التحرير حيث مكتبه في الدور الأول، وبينما نصعد الدرج علا صوت أحدنا.

- كفاية يا علاء.

انفجرت موجة ضحك لم أفهمها، وتوقف زميل ثان على آخر درجات السلم وأشار للجمع بالصمت ليقول:

- لا مش كده.. اسمها كفاية يا عيلاء.

قالها بميوعة مزعجة وسط الضحكات. استأنفنا الصعود حتى

شارفنا مكتب أميرة الذي يجاور غرفة رئيس التحرير لنطلب موعدا لمقابلته، بينما سألتهم:

ـ إيه قصة يا عيلاء دي؟

وئدت الابتسامة على شفاهم، وشعرت بوخز نظراتهم ترشق وجهي، تشاغل أغلبهم كأني لم أقل شيئا لتشتيت الانتباه عن السؤال. زميل توجه بخطابه لأميرة وآخران اندمجا في حديث في حين رمقت زميلة أخرى أوراقها بنظرة مشتتة واعتبرتني عدم.

كنت أنوي متابعة استفساري، لكني كففت وأدركت أني دست لغما.

٢٠٠٦ ـ أيوه هي.

ـ هي؟ أنا ولا فاهم حاجة؟

ـ هي البنت في الفيديو.

كل سر نشر على يوتيوب شاع. استخلصت من الزميل أن أميرة صاحبها سجل لها فيديو عبر سكايب أثناء مداعبتها لنفسها وهي تطلق تأوهات جنسية، وتؤدي له حركات راقصة وهي عارية.

كانت تخاطبه في الفيديو بـ«يا عيلاء»، وهو نطق شائع في الأوساط الشعبية لاسم علاء.

لا أعرف كيف انتشر الفيديو، ربما بعد سرقة حاسوب صديقها وربما حين إصلاحه وربما عن عمد منه، لا أعلم، لكن الواضح أن ما مارسته في أولى سنوات دراستها الجامعية ظل يلاحقها كظلها، ولأن طيش شبابهم هو نفسه عارها فكلهم رأوا الفيديو.

ـ أنت جبار.

قالها أحد زملائنا مثنيا على ما فعلته مع أميرة، يعتقد أنني تعمدت السخرية منها انتقاما من سخافتها المتكررة، قلت بعصبية إنني لم

إشاهد أي فيديوهات، فقالت منى وحيد بجرأتها المعهودة إنني لم أخسر كثيرا، وضحكت بشكل له مغزى.

بدا واضحا إن النقاش سينحدر لتفاصيل فنية في الفيديو، نهرتها فاستجابت، لكن قيل لي من آخر:

ـ عيب صحيح نقول على المومس إنها مومس.

تراشق الزملاء، لاح أنها فرصة لنقاش دفنه الحرج طويلا فارتفع القول وتضارب:

ـ لكن وائل مش من حقه يذلها كده.

ـ الواحد أما ربنا يسامحه يستره.. وهي ربنا فضح سترها على الملأ.. أكيد ربك له حكمة.

ـ اسمها زميلة.. عيب نتفرج ونناقش حاجة لها كده.

ـ عيب نتفرج؟ ما هي أصلها تفرق يعني، مليون مشاهدة للفيديو من مليون مشاهدة وواحد.

ـ وأصلا لو إرادة ربنا إنه يستر عليها الفيديو عمره ما كان وصل لأي مخلوق من الأول يا فالح.

أقسمت أني لم أكن أتخابث فلم يقتنع أغلبهم، وفي اليوم التالي والذي يليه تغيبت أميرة على غير عادتها، فسألت منى وحيد عنها ولماذا لا تنزل للعمل.

ـ لأنها بتكره الشغل وبتكرهكم.. وبتكرهك.

٢٠٠٦ فهمت تفسير ما اندهشت لسماعه في صالة التحرير، واضح أن محررا كان يعرف آخر على زميلتهما.

أميرة يضيق صدرها بما يقولون، قنعت بعجوز تقدم لخطبتها، فسمعت تهامسا يشكر للعريس لستره عليها.

تزوجت أميرة، وانقطعت عن العمل.

وفي عام ٢٠١٤ أبلغتني منى وحيد أن زميلتنا القديمة أميرة أبو العينين توفي زوجها. ذهبت لأداء واجب العزاء وهناك سمعت.

ـ ربنا بيغفر لنا ذنوب عظيمة على الصبر على الكوارث.. كل مصيبة لها حكمة من ربنا.

ـ ربك بيكفر لها عن ذنبها.

لم يحدد الحضور ما الذنب بالتحديد. صافحتها عقب العزاء فلم تبد اهتماما حتى شككت أنها تذكرتني، لكنني أدركت أنها تعرفت عليّ حين أضافتني بعدها على فيسبوك. صفحتها أغلبها منشورات تؤيد الرئيس السيسي «أسد مصر»، أو صور مناظر طبيعية وآيات قرانية، نادرا ما تكتب لذا استرعى انتباهي ما كتبته لزوجها الراحل.

«يا حسن أنا عارفة إنك مبسوط هناك.. أنت عند اللي أحسن مني.. قول لربنا يهون عليا وإياك تتنازل عن مجاورة الأنبياء.. أنا حاجي لك تاخد بإيدي على باب الجنة وتخش بينا فإياك تقبل أقل من كده.. إياك تنساني يا سيدي وتاج راسي.. إياك الحور تنسيك أميرة حبيبتك».

ابتسمت، بدت طيبة كيوم صادفتها في الميكروباص، فتمنيت لحظتها إخبارها أنني لم أشاهد أي فيديوهات لها.

آسف يا أميرة، أسف فعلا على كل حاجة، لكن والله لم أشاهد الفيديو يا أميرة، والله لم أره.

مجدي الفيل

٢٠٠٦ كنت أتصوره شخصا عاديا، أمر بجواره فأسمع ضحكا، أقف معه فألحظ تحذيرات، يدخل علينا فيمسك أصدقائي عن الكلام.

باستثناء منى وحيد لم ألمح أيا من الزملاء في جريدتنا يشاركه حوارا. عرض عليّ الذهاب لتشجيع منتخبنا أمام كوت ديفوار في نهائي كأس الأمم الإفريقية، دعوته أتت بعد أشهر قليلة من التحاقي بالعمل فاعتبرتها فرصة للتعارف، وفي طريقنا للإستاد توقف بسيارته أمام بائع متجول:

- بكام العلم يا ريس؟

- ٢٠ جنيها.

- ليه هو علم اليابان؟ ده علم مصر.

انطلق بالسيارة فورا دون تفاوض مع الرجل، فضحكت مما اعتبرتها دعابة.

بدا مجدي راقيا عندما استوقفني ونحن نعدو لنلحق بمقعد في الإستاد حين لمح شابا معاقا، لفت انتباهي لنساعد الشاب ليدخل معنا، فعلنا ما جعلنا نشاهد المباراة وقوفا. وفي اليوم التالي أثنيت على شخصية مجدي، فرد زميلنا بالجريدة محمد مهدي:

- هو لطيف جدًّا طبعا.. بشرط يكون بعيد عن ضهري.

٢٠٠٧ أسمع عنه أشياء وأتجاهلها، فلن أظلم شخصا لمجرد شائعة. مجدي الأبرع في عمله، يملك دقة محترف وشغف هاو، لكنه

في الجريدة كأنه غريب أو عابر سبيل، فتفوقك وحصولك على جائزة الموظف المثالي لأكثر من شهر على التوالي لا معنى لها لو كنت كمجدي.

في شهر رمضان دعاني محمد مهدي وزملائي في الجريدة الأسبوعية للإفطار، لاحظت تجاهل دعوة مجدي، نبهت مهدي فرحب، ولم ينس أن يلمح ساخرا:

- ينور طبعا.. طالما أنت بتحبه.. هو إيه اللي بينا غير الحب؟

يومها قمنا لصلاة المغرب خلال إعداد فتيات الجريدة لمائدة الإفطار، استفسر مجدي عن مكان الوضوء ليصلي معنا، فسأل مهدي:

- مين عايز يتوضا؟

- أنا.

ارتج مهدي قبل أن يجيبه:

- آه طبعا.. آخر باب يمين.

في العام التالي قمنا كلنا للصلاة خلال نفس الدعوة السنوية، لم يدعه أحد ليصلي معنا ولم يعرض نفسه للحرج هذه المرة، جلس وحده ينتظرنا.

٢٠٠٨ زرته في مسكنه مع منى وحيد خلال مرضه، لمحت بمنزله حذاء نسائيا أحمر بكعب عال، فطردت من ذهني فيما يستخدمه.

بعدها وجدت نفسي أتجنبه، أتوتر من وجوده، قال لي مرة:

- صباح الخير يا جميل.

انزعجت من دلالات كلمة «جميل».

- صباح الفل يا أستاذ مجدي.

- من ستين وإحنا زملا من غير ما نتكلم.. هو أنا مضايقك في حاجة؟

انتبهت إلى أن هذا ما يحصل بيننا، في حين واصل:

ـ بقرا لك موضوعاتك اللي بتهاجم مبارك.. أنت حتكون من أهم كتاب مقالات الرأي.. أسلوبك مختلف وسلس.. كان نفسي نبقى أصحاب.

هززت رأسي مرحبا بحرج فبدوت غير مرحب، فضحك بارتباك:

ـ أقصد أصحاب عادي.

ـ فاهم.. فاهم حبيبي.

لم يرق لي استخدامي كلمة حبيبي، فكررت بعد إعادة الصياغة:

ـ فاهم طبعا.

ندردش، يسألني عن أسباب زواجي المبكر فأتحفز ضده، فلماذا يريدني غير متزوج؟ الشعور بأني طريدة مزعج والإحساس بأنني مرغوب مقزز. أحاول التعامل بشكل طبيعي لكني لا أتوقف عن تحليل أي حركه والارتياب من كل مصافحة.

فكرت أني أبالغ في الاحتياط فقلت لمهدي:

ـ بيني وبينه حاجز نفسي.

ـ وأنا رأيي أنه شخص مقرف، وده الفارق بيني وبينك، أنا صريح وأنت كل همك أنك تكون لطيف.

مع الوقت ارتحت لفكرة أني لست مطالبا بالتعامل مع كل الناس. فالحياة ليست اختبارا نجتازه إن كنا أصدقاء للجميع، لا أؤذيه وإنما أنا فقط لا أفضل الاحتكاك به، فلا داعي للإحساس بالذنب.

ارتحت لما وصلت له وامتنعت عن التعامل معه.

٢٠١١ كل الأيام سواء لأن كل الأيام أيامهم، أما يوم جمعة الغضب فوحده المختلف، لأن ٢٨ يناير يومنا.

بيدنا جعلناه يومنا. بيد جذبتني قبل أن تهوي عصا العسكري فوق رأسي، ويد ألقت لنا الماء والخل والمياه الغازية من الشرفة كي لا نختنق بالغاز، ويد سندتني عندما تعثرت بعد إصابة قدمي بالخرطوش، ويد ربتت على كتفي وأنا أبكي قهرا بلا صوت مع أول نافورة دم من صدر أول قتيل، ويد رفعت للسماء في المشرحة تدعو الله «متسيبناش لهم يا رب.. متسيبناش المرة دي والنبي يا رب».

اليد الأخيرة يد مجدي.

يوم ٢٥ يناير شتم «عيال الفيسبوك»، فوجهة نظره أن مبارك جبل لا يهزه الريح، ويوم ٢٦ حكت له منى وحيد ما فعلناه في مظاهراتنا الأولى ضد مبارك، ويوم ٢٧ اصطحبناه في محاولتنا الفاشلة للتجمع في وسط البلد التي أحبطها الأمن على مدار اليوم. ويوم ٢٨ شارك في أول مظاهرة له، حينها لمعت عينه بوميض لم ينطفئ بعدها أبدا.

من كنت أنظر له لسنوات رأيته يومها، رأيت ابتسامته المطمئنة للشابة أمامنا التي تلتفت كل دقيقة لتطمئن على أن عددنا ما زال كبيرا، وسمعت منه «عظيم يا صاحبي» التي قالها بانبهار حين رآني أمسك قنبلة الغاز وأردها جهة الشرطة.

مع كل هتاف يدب بقدميه على الأرض ليغطّي الدبيب على خوفه، خوف لم ينقلب لطمأنينة إلا عندما أبصر خوفا آخر في عيون ضابط يخلع بدلته كي لا يتعرف عليه المواطنون في رحلة هروبه.

بعدها لم أسمع مجدي يتلفظ باسم مصر سوى بعبارة «بلدنا».

وفي ليلة مليونية ضخمة بالتحرير نظمها الإسلاميون في شهر يوليو، حملت شعار تطبيق شرع الله واشتهرت إعلاميا بـ«جمعة قندهار»، قال لي مهدي:

- حيصعب عليا واحنا بنرميه من فوق مرتفع.

فهمت أنه يقصد عقوبة الإلقاء من عل لمجدي. ابتسمت مما اعتبرته مزحة، فأوضح:

- بتكلم جد على فكرة.. قريب حيتنفذ فيه.

٢٠١٢ أتساءل هل مجدي يفعل أم يفعل به؟ مهدي أفتى بأن «أمثاله» يقومون بالدورين، أما منى ففطنت لما وراء السؤال وطمأنتني أن له رفيقا محددا، لذلك فالأمور لا تتطور أبدا لعرض نفسه على زملائه أو التحرش بهم.

بدا «الاكتشاف» مقنعا، فشعرت بعدها بأمان في التعامل معه، ثم فكرت أنه طالما لم يعلن أمامي صراحة، فلا معنى لافتراض شيء والتعامل على هذا الأساس، وذكرت نفسي أن إحسان الظن أفضل شرعا أيضًا. فكرت أن كون بشرته بيضاء وخدوده ممتلئة، فهذا لا يعني شيئا بالضرورة ولا يليق أن يكون مستوى تفكيري بهذه التفاهة، ارتحت، لكن بعد أيام أتت منى تبارك له ارتباطه، فابتسمت ببلاهة وأنا أسأله:

- أنت خطبت؟

بادرت منى بالإجابة عنه:

- اتخطب.

- آها.. ألف مبروك.

قلتها واختفيت من أمامه، بعدها قلت لمهدي:

- خبر أسود.. قلت له ألف مبروك.. ألف زفت مبروك على إيه؟ أنا من السيدة زينب وبقول لواحد مثلي ألف مبروك.. ما داهية لا أكون قلبت ليبرالي؟

- أنت بقيت ليبرالي من يوم ما بدأت تقول على العيال الخرم إنهم مثليين يا واثل.

قلت بقناعة هشة إنه طالما يغلق بابه على نفسه فأمره لا يعني أحدا سواه، فأضاف مهدي ساخرا:

ـ واللي يقتل كمان ملناش دعوة بيه طالما في بيته وقافل عليه بابه.. واللي يزني كمان طبعا.

٢٠١٣ شممنا حرية لم نرها، فتساءل مجدي متى تبددت أحلامنا؟

انتشر الجنون حتى أمسى القابض على عقله كالقابض على الجمر. تظاهر مجدي في التحرير ضد عودة مرسي، وساهم في اشتباكات دامية ضدهم حينما قرر الإخوان دون مسوغ الزحف من رابعة ودخول التحرير وطرد من فيه.

شاركت الشرطة ضد الإخوان وانضمت المدرعات إلى جواره للتصدي للمهاجمين. تأمل مجدي لثوان المدرعة جانبه ثم ترك حجارته ورحل. قال إنه لن يدافع عن أفكاره في حماية مصفحة.

وحين حكى لنا رمقته منى وحيد بارتياب وقالت بصراحة:

ـ لولا إني متأكدة انك متنفعش تكون إخوان.. كنت قلت عليك نائب المرشد مثلا.

أما أنا فعبرت للزملاء عن احترامي لمواقفه قائلا:

ـ رجل جدًّا مجدي.

نظر لي مهدي بدهشة وانفجر ضاحكا، ارتبكت وقلت ما لم يسمعوه وسط صخب قهقهاتهم:

ـ أقصد رجل في مواقفه يعني يا حمير.

٢٠١٣ أمل مجدي في محمد البرادعي انهار، فمن ينتظره ليتصدرنا هاجر إلى النمسا، رحل من أصبح يصفه بـ«قائده الأقرع» وبقيت الحسرة لتقوده.

عارض السلطة وحده فحذرته أنه سيسجن في الحبس الانفرادي وحده. قلقت عليه، ولأن والده ليس لواء جيش ولا قاضيا نصحته بالسفر.

تأكدت شكوكي، فبعد القبض على العشرات بتهمة المثلية في قضية عرفت بـ«حمام البحر»، أعيد فتح قضية محمد محمود، وهي المظاهرات التي قتل خلالها ٥٦ متظاهرا في عام ٢٠١١ خلال احتجاجات ضد السلطة العسكرية، وأدرج اسمه ضمن المتهمين بقتل زملائه المتظاهرين.

توجست من أن يتعفن بدنه في السجن لسنوات، فسألت جاري الضابط يونس الدجوي هل لديه معلومات عن مصير مجدي؟

ـ حنغتصبه.. وأظن إن ده شيء يسعده.

انفجرت فيه ووصفته هو وزملاءه بأنهم مرضى نفسيون، قلت إن مجدي مجرد شاب عديم التأثير وليس مشهورا من الأساس، فأخبرني الدجوي أننا نعاقب لأنهم يستطيعون أن يفعلوا بنا ذلك وليس للأمر أي علاقة بما ارتكبناه، ثم قال بحكمة لا تليق بمن كنت أعتبره تافها:

ـ عالمكم ممكن يحصل في الحقيقة ما دام لسه موجود في خيالكم.. ينتهي احتمال وجوده بأننا ننهيكم.

عدت بالخبر لمجدي. نبهته أنه إذا ذكر المحبوسون فعد نفسك واحدا منهم. قلت أخرج منها إني لك من الناصحين. خرج منها خائفا يترقب، لكنه ـ ولله الحمد ـ نجا من التوقيف في المطار.

٢٠١٥ ترك القاهرة المتربة الرمادية لمدينة بها ألوان. ارتحل لفيينا، لكنه كتب لي بعد سفره بأسبوعين:

ـ الناس هنا كلهم شبه بعض.. شعر أصفر وعينين ملونة وبياض مبالغ فيه.. كذا مرة أتكلم معهم على أساس أنهم واحد تاني فيتضايقوا جدًّا.. أقول للبنت: مساء الخير أنت سألتيني على رقم كذا أمبارح، فتقاطعني لا آسفة أنت قصدك فلانة.. إحساسي أن كلهم أخوات توءم.. عندك حل؟

وفهمت منه أنه انفصل عمن يفترض أنه قصة حبه عندما كتب لي:

ـ هنا تزعل تطبطب على نفسك.. تفرح افرح لوحدك.. وتشوف أكتر حد حبيته في حياتك زهق من بعدك وقرر يكمل حياته ولا كأنك موجود.

تصورته سيندمج سريعا مع مجتمع يشبهه، لكنه قال لي إنه عرف وهو تعيس هناك أنه كان مسرورا هنا. قال إنه اقتلع نفسه ليهيم في فراغ بدون كل من عرفهم في حياته.

أتى لي من النمسا لألمانيا حين زرتها. قطع كل هذه المسافة ليراني رغم أننا لم نكن مقربين أصلا. قال إنه يتمنى الشعور بشيء حقيقي ولا حقيقة سوى في كل ما به رائحة بلدنا. حكى لي عن العنصرية التي لاقاها لكونه عربيا، وعن العجوز التي بصقت على الأرض حين رأته لأنه «مسلم حقير»، وعن قسوة أن يخطر ببالك دعابة ولا تقولها لأن من بجوارك لن يفهمها، وعن برودة أن تعلم أنك ستشرح له النكتة وسيبتسم على الفكرة، لكنه لن يضحك أبدا.

قال مجدي إن اسمه الذي كان معتادا عليه يسمعه بالألمانية وكأنه تعويذة، ولونه القمحي الذي كان شائعا يراه في عيونهم عجيبا، وعاداته التي لم يكن ينتبه لها أساسا أصبحت مثار تساؤل.

استشعرت أنه يتهيأ للعودة، طالبته بالاحتراس من الفكرة فقال:

ـ مفيش عيشة حلوة عندكم، لكن عمري كله كان عندكم..

عشان أكون أنا لازم أكون معاكم.. هي الحياة إيه غير حنين لأماكن وذكريات مع ناس.. عندي حنين للفوضى وحنين لحلمنا في التحرير وحنين لوجع أنه اتكسر.. مش حقدر أكمل وأنا كل همي هنا إن اليوم يمر وأخلص منه.. أنا ناجح هنا، لكن لازم يكون عندك بني آدم تجري تقول له أنا نجحت.. إنسان يفرح معك.. الفرحة لوحدك كآبة.. كل يوم في حياتي المدبلجة هنا أسأل نفسي: أنت متأكد؟ أنت متأكد؟

خرج من مصر ولم تخرج منه، وبديع النهر الهادئ أمام مقر عمله لم يكن كافيا لجعل حياته محتملة، فعاد بعد أربعة أشهر للقاهرة. وحين اتهمته بالسذاجة قال:

-على الأقل في مصر أنا فاهم الناس بيكرهوني ليه.

٢٠١٦ بعد عودته أقام مع منى وحيد كشريكي سكن على الطراز الغربي، هي تعيش مطمئنة دون أطماع، وهو يشتت انتباه الفضوليين. التقيته في القاهرة هذه المرة فبدا مسرورا ومرتاحا.

-كفاية صوت عبد الحليم في الراديو.. كفاية أن الساعة ٢ بالليل الدنيا تكون مبهجة والناس في الشارع.

بعد ستة أشهر ابتاعت منى كلبا منزليا أليفا فنهرها لأنها لم تستشره قبل أن تفعل بصفته شريكها بالسكن، تراشقا لفظيا ووصفها بانعدام المسئولية، فانفصلت عنه وانتقلت للسكن مع صديقة. حين رأيتها مؤخرا قالت:

-خايف من الكلب سيادته.. دي آخرة اللي تسكن مع عيل نجس ولا تعرف له إن كان دكر ولا نتاية في بيت واحد.

محمد مهدي

٢٠١١ العالم الذي يعرفه لم يعد له وجود.

يوم ٢٨ يناير الصبح قبض على محمد مهدي وهو متجه إلى مسجد الرحمة بوسط البلد للتظاهر، ومن شباك سيارة الترحيلات لم ير لساعات سوى صحراء ممتدة.

هتف هو ومن معه ضد مبارك، عاقبهم فرد الشرطة الذي يقود السيارة بالتوقف فجأة ليتكوموا منسحقين بعضهم فوق بعض، الألم عنيف. عاودوا ليصل صوتهم للخارج فكرر السائق باحتراف، عاودوا فكرر، عاودوا فكرر، فكفوا.

داخل السيارة حاصر بعضهم العطش، وحاصره هو امتلاء المثانة. صرخوا، نادوا الضابط، وحين شتمهم أمين الشرطة بصوته الغليظ خرسوا.

الظلام غلفهم، يضربون الباب بهستريا، وهذه المرة كانت الإجابة مخيفة أكثر: لا رد.

السكون بالخارج، ولساعات يضرب مهدي ورفاقه جوانب السيارة بلوثة الأمل، فلا يتردد سوى صراخهم الذي يرجع لهم صداه من شباك السيارة، الجو بارد والعتمة كثيفة. دهمهم الخوف ثم دهمهم صوت يصرخ في الخارج:

- هو أنتم لسه جوه؟

لم يستوعب مهدي السؤال، فأين سيذهبون؟ سمع طرقا عنيفا على الباب لفتحه عنوة، انفرج الباب فخرج ليجد مواطنين مدنيين

يلتفون حول السيارة لنجدتهم ولا وجود لرجال الأمن الذين تركوهم في طريق القاهرة ـ السويس.

لم يدر كيف اختفى الحرس، اتجه للتحرير بصحبة قائد السيارة الذي وقف لهم في الصحراء لنجدتهم، وفي طريقه للميدان شاهد لجانا شعبية مسلحة بالعصا، ومدرعات جيش يطل منها جنود مذهولون، وأعمدة دخان وهبابا أسود على واجهات ما كان قبل ساعات أقسام شرطة، ومحلات تجارية تنهب علنا.

لا يوجد أي شيء كما كان من ساعات، ومن كان ينوي تغيير العالم بالتظاهر خرج من العلبة الحديدية الزرقاء ليجد العالم تغير وحده.

٢٠٠٦ على باب مقر جريدتنا الأسبوعية لاصقة كتب عليها «في عصر الذئاب لا تخلعي الحجاب»، ومهدي هو من لزقها بالباب.

بعد تخرجه هجر عمله بالسياحة في شرم الشيخ لأنه حرام، وأتى للعمل مترجما بالجريدة، يعمد مهدي إلى قراءة القرآن من مصاحف الجيب في المواصلات كدعوة بالقدوة، وفي العمل نناديه بـ«الشيخ».

شارك في اعتصام التحرير عام ٢٠١١ وهتفنا معا «الشعب يريد إسقاط النظام». ويوم تنحى مبارك تعالى هتاف «الشعب خلاص أسقط النظام»، فانطلق من جهة أخرى بعيدة عن خيمتنا هتاف «الله وحده أسقط النظام.. الله وحده أسقط النظام».

مهدي بجواري لكنه يهتف مع الجهة الأخرى الذين راق له هتافهم أكثر. الارتباك عم الجموع، تزايد من ينتقلون من هذا الهتاف لذاك حتى غلبت همهمات نقاش وصرخات توجيه لأحد الهتافين، ثم انقطعت الربكة بدوي هتاف ضد مبارك عدنا جميعا لترديده.

لحية مهدي زادت كثافة مع تراجع مخاوفه الأمنية برحيل مبارك،

ثم تصدر ـ وهو الزملكاوي الأشهر في جريدتنا ـ الصفوف الأولى لاشتباكات محمد محمود مع أصدقائه في «وايت نايتس» زمالك، وهناك كسر الرصاص حجارتنا ولم يكسر الباطل حقنا.

شاركنا في كل المظاهرات أما هو فاستغرق فيها. وأمام قصر الاتحادية انخرط بحماس مع إخوانه أتباع محمد مرسي في الاشتباك مع من يتصورهم الفلول، حتى اكتشف أنه يلقي الحجارة على رفاقه في «وايت نايتس» في الجهة المقابلة.

رمى حجارته على الأرض وانتقل يقنع إخوانه بالرجوع عن فض الاعتصام، فقالوا إنها أوامر إخوة أكبر يعرفون أكثر، وحيثما كانت مصلحة دعاة الله فثم شرع الله، انفعل وسبهم وإخوانهم فتجمهر عليه من لا يعرفونه وعجز أصدقاؤه الذين يتناقش معه عن حمايته وسط الاحتقان وإصراره على الزعيق، تعرض للضرب بقسوة فقاوم بشراسة حتى هتف فيهم:

ـ اتقوا الله.

أوقف المهاجمون الضرب لأنه نطق حرف القاف بشكل صحيح فشعروا بأنه واحد منهم.

بعدها زاره أصدقاؤه في بيته لمصالحته، وقالوا إنها أخطاء واردة من أجل مستقبل ينيره روعة حكم الإسلام، فقال لهم:

ـ المهم البؤس الحاصل، وليس الجمال المتصور.

بدت جملة مصكوكة دققها طويلا قبل أن يقولها، بعدها صار شرسا في انتقاد الإسلاميين والاستهزاء من حكمهم، ما جعله يخسر أغلب أصدقائه، لكن انتقاداته التي زادت للإخوان، ونزوله ٣٠ يونيو للدعوة لانتخابات مبكرة، لم تمنعه من المشاركة في اعتصام رابعة مع أصدقائه القدامى.

هزم وفض الميدان، وبعد هزيمته هزم ثانية حين نصب وزير الدفاع رئيسا، ويوم إعلان فوز السيسي بالرئاسة اتصل بي من ميدان التحرير قائلا:

ـ أنا في نفس المكان اللي كانت عنده خيمتنا من تلات سنين.. مين الناس دي؟

دعاني للنزول إلى الاحتفالات لنرى خيبتنا بأعيننا بدلا من أن نسمع عنها. نسير بميدان التحرير فلا يعرفنا أحد ولا نعرف أحدا. كانت هذه أول مرة من سنوات نسير بالميدان من دون أن نلتقي أي مخلوق نعرفه ولو شكلا.

التقطنا صورا مع المؤيدين وهم يحملون علم مصر ونحن نضحك بسعادة بدت مختلة، وتمادينا فرقصنا معهم بجنون على أنغام أغنية «تسلم الأيادي»، وفي طريق عودتنا قال لي الليلة خمر ونساء وغدا يقتلنا الرئيس وأتباعه.

٢٠١٥ في ٢٠١١ استيقظ مفزوعا من حلم أنه ألقي القبض عليه ونقل مقر أمن الدولة، وأنه فور دخوله المقر لطمه ضابط وقال له: «إحنا لسه هنا يا بن الكلب».. وفي ٢٠١٥ تحقق الحلم.

قبض عليه باعتباره من «الوايت نايتس» بتهمة قتل زملائه في إستاد الدفاع الجوي. كان قد نجا من الاعتقال عقب المذبحة لكن الأمن أمسك به خارج الإستاد لأنه يرتدي قميصا نقش عليه «وطن بلا تعذيب».

ضاع الحق رغم أن وراءه مطالبا ثم ضاع المطالب نفسه، فعانيت الاختفاء القسري لصديقي ولأمانينا الضائعة.

وحين سمح بزيارة استثنائية لغير الأقارب في إطار احتفالات وزارة

الداخلية بـ«عيد ثورة يناير المجيدة»، زرته لأول مرة في سجنه وسألته ماذا يفعل في هذا الطقس قارس البرودة، فقال إن برد يناير مؤلم لكن حر يونيو أقسى. حكى أن الصيف الماضي كان رهيبا حتى إنه لم يكن يرتدي بالزنزانة سوى الملابس الداخلية بسبب الرطوبة والحرارة.

يومها بدا مهدي مختلفا، بات يسب ويلعن في الضباط بألفاظ بذيئة لم اعتدها منه، شكا حرصهم على أن يكسروه كلما التقت عيناه بعين احدهم، قال إن كل من يقبض عليه بالنسبة للضباط هو عضو بتنظيم الإخوان ومقتنعون أنه قتل زميلا لهم. الإهانة تدس في كل شيء، في صوتهم ونظراتهم وفي طريقة تفتيشهم له، حتى قيل له:

- إياك تفتكر إن الزنزانة دي ملكك.. حتى الشبر اللي بتنام فيه ملكنا إحنا.. أنت ولا لك أي حاجة هنا.

ثم سكت الضابط قليلا وأضاف:

- ولا بره.

ابن محمد مهدي ولد وهو بالسجن فلم يره. قال إن ذنب الرضيع الوحيد إن أباه متفائل أحمق يعتقد أن دوره المعافرة من أجل بلد أفضل.

قضى أياما في الحبس الانفرادي حيث الماء مقطوع والدواء مقطوع والأمل مقطوع والظلم موصول. تذمر ولم يرض بالقضاء، فقيل له ليس لحمقك دواء. وقف وراء السور الحديدي الفاصل بين عنبر (ج) الذي يسكنه وعنبر (د) لمسجوني فض اعتصام رابعة، وتأمل كيف كانوا وكان غريمين في نهار ٣٠ يونيو ٢٠١٣ خلال المظاهرات المعارضة والمؤيدة لمرسي، وأين انتهى بهم الحال، وتساءل لحظتها عن مغزى الحياة، وهل يستحق هذا المغزى كل ما يحدث؟

في الحبس انقلبت نوافذ نفسه إلى مرايا، رأى حراسه يقرءون

القرآن وكذلك الإخوان، فتملكته عقيدة راسخة قالها لي فور خروجه من السجن:

ـ عارف؟ غالبا الإخوان والظباط مصيرهم في الآخر هو الجنة.

وضحك.

٢٠١٥ في مقهى الفيشاوي وتحت قبة مسجد الحسين تناقشنا بينما مئذنة المسجد وحدها تتجه للسماء، هونت عليه سجنه بعبارات تافهة فقال:

ـ عادي.. سيدنا يوسف لبس في مصر قضية تحرش بالظلم، وقضى سبع سنين في السجن.

لم أسترح للمثال رغم صحته. سألته عن حال زملائه وراء القضبان فاستخف من قناعتهم أن النصر آت.

ـ بتقولوا الملكة إيزابيلا بتصفي المسلمين من الأندلس.. يبقى أكيد الإسلام حينتصر.. أكيد ربنا مش حيسبنا.

قالها وضحك..

ارتبكت من مثاله فحكى لي أن خروفا قال لصاحبه إن دماءهم المسفوكة لن تذهب هدرا فالله لن يرضى بذلك، ثم سألني كيف لم يعلم الغبي مع التكرار أن الله هو من أمر بذلك.

فبدأت أميز أين وصل..

٢٠١٥ كان مهدي الوحيد من مجموعتنا الذي استمر بجريدتنا الأسبوعية، أقول كان لأنه فور خروجه من الحبس لم يعد كذلك.

اعتبر رئيس التحرير عزيز البدري أن مناوأة مهدي للرئيس السيسي سقوط في امتحان الوطنية، ومعناها أن مستوى ذكاء مهدي لم يسعفه

لفهم الواقع والمخاطر المحيطة بنا، وبالتالي فمهدي غير مؤهل لإجادة العمل ولا للفلاح في أي شيء.

فصل من الوظيفة بعدما وصف بأنه عضو في حركة ٦ إبريل الخائنة، فأدرك أن الأرض تسحقه والسماء لا تحبه، فقضى وقته في بيته دون عمل، يراقب أنفاس ابنه ويقيس المسافة بين أنامله، يضمه لينسى ضمة الزنزانة، وأمام جمال نظرة عينيه الطفولية الساهمة نفض وحشة أيام قضاها يتخيل ملامحه.

ظهر له أنه منذ شارك لتغيير كل شيء تبدل هو ولم يتبدل أي شيء، فأصبح على يقين أنه لا يقين.

ـ محتاج أفهم.. إحنا معملناش جريمة في حق أي بني آدم.. ليه يحصل فينا كل ده؟ العيال أصحابي عينها طارت في محمد محمود، ولغاية دلوقت ولا مخلوق جاب لهم حقهم.. أنا قعدت ١٢ ساعة أكفن ١٠٠ جثة بعد فض رابعة وشفت أم بتستلم نص جثة لابنها، وفي الآخر مفيش حيوان قضى يوم واحد في السجن.. أنا اللي قضيت في الحبس شهور وشهور وجسمي كان بينزل منه شلالات عرق وبنقسم نفسنا مجموعات تهوية بالملايات.. كل ده ليه؟ لأني رحت أتفرج على مباراة زفت كورة، اللاعيبه فيها كملوا عادي ولا كأن فيه حيوانات كانوا جايين يشجعوهم بيتقتلوا بره.. مفترض يكون في عدل نشوفه عشان نؤمن.. مش كلامكم إن اسمه العدل.. أنا مش شايف غير ظلم بيكسب ومش قادر أعيش بنظرية العدل في السما بعد ما نموت.. أصلا كل اللي عملوا فينا كده بيشهدوا إن لا اله إلا الله وحيخلدوا في الجنة في الآخر.. هو ده عدل الآخرة؟ محتاج أفهم عشان أعرف أعيش وأتعامل وعشان أقدر أكمل في الدنيا على الأقل.

اقتنع بأن الدنيا ما هي إلا أرحام تدفع وقبور تبلع، سألته هل

نعرف أن الله موجود؟ فقال إن السؤال الأهم وهل يعرف الله بوجودنا؟

لم أدر هل يرفض المجتمع أم الرب الذي يعبد فيه. كان تحليلي أنه إيغال في الخصومة مع أعز ما نقدس، أكثر منه عناية بوجود الإله من عدمه، رفضه للناس يراه رفضا لخالقهم، عبرت له عن رأيي وطالبته بالتعقل، فضحك وقال: إنها نصيحة متزنة من مهووس طلق حب عمره لأن آراءها لا تعجبه.

ـ كلنا بندفع تمن غلطة أبو لهب.. الحمار.. كان وفر علينا مجهود كبير لو نجح.. لا كان زمان عندنا إخوان ولا سلفيين ولا سنة وشيعة بيقتلوا في بعض في كل مكان.

قال مهدي. فأنهيت الحوار بحزم وطالبته باحترام مقدساتي، على إثر ذلك انقطع هذا النهج من الحديث بيننا.

لكن مهدي واصل مع غيري، فعندما علم بعودة مجدي الفيل من النمسا سأله:

ـ ليه؟ قالوا لك إنما المسلمون نجس فلا يقربوا النمسا بعد عامهم هذا؟ ولا ميكرفون الكنيسة خرق ودنك كل يوم بأدعية اللهم اشف مرضانا ومرضى النمساويين وارحم موتانا وموتى النمساويين؟

رغم الوضوح لم يفهم مجدي، كانت هذه أول مرة يلتقي مهدي منذ سنوات، فحاول أن يبدو ودودا وسأل:

ـ أنت في حزب النور دلوقت يا مهدي ولا فين؟

تبادلت مع مهدي النظرات وضحكنا.

ـ حلوة النمسا يا مجدي؟

ـ طبعا.. أكيد أجمل من إمبابة وبولاق.

ـ عارف يا مجدي.. جيش الخلافة العثمانية حاصر فيينا.. لو

كان دخلها كان زمان الجيش النمساوي منع الانتخابات هناك عشان الإخوان ميفوزوش فيها.. وكان زمانها نسخة من إمبابة وبولاق.. لكن نفدوا أولاد الذين.

شعر مجدي بأنه لا يفهم الدعابات، التزم الصمت برهة ثم سأل لأننا في شهر رمضان:

ـ هو وأنا صايم ينفع أخد حقنة وأكمل صيام عادي؟

كان مجدي يسأل المتدين الذي يعرفه كما كان يفعل من قبل، فابتسم مهدي وأجاب:

ـ آه ينفع.. الحقن عادي لكن الحبوب هي المشكلة.

ـ طيب أنا منتظم في الصيام لكن مش منتظم في الصلاة.. كده ربنا يقبل صيامي؟

ـ يتقبل.. ده فرض وده فرض تاني.

همَّ مجدي بأن يسأل سؤالا ثالثا، فقاطعه مهدي منهيا فقرة الهزل:

ـ كفاية.. أنا ولا أعرف حاجة يا مجدي.. فعلا دلوقت ولا أعرف أي حاجة.

٢٠١٦ احتفظ مهدي بلحيته التي لا يعرف شكله إلا بها، وظل يحتقر العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، كما ظل يشمئز من مجدي، ورغم تدخينه السجائر فكلما رأى فتاة تدخن رمقها بازدراء.

العديد من سلوكياته لم يتغير، لذا فمنى وحيد ظلت تعتقد أن هناك سلفيا صغيرا ما زال يقرأ صحيح البخاري بداخله، وإن أنكر.

حين قدم لتعزيتي في محمود شعلان ابن خالتي قال لي «البقاء لله» اندهشت من اختياره للعبارة، فأكمل مفسرا:

ـ البقاء لله؛ لأن البقاء للأقوى.

لم ابتسم، يعلم أنني لا تضحكني هكذا دعابات، بدا يومها مرتبكا وسألني:

ـ هو موجود؟

لم أفهم من يقصد فسألت:

ـ هو مين؟

ـ طيب هو فين؟

بدا جادا، كان يسأل فعلا، لم يكن يسخر هذه المرة.

٢٠١٦ بعد كم مرة تتوقع أن تفقد وعيك عند ارتطام رأسك بالحائط؟ أتصور بعد مرات عديدة، فمهدي صمد طويلا.

هذه النسخة من الحياة تسحقنا، سجنوه كأنه إسلامي، وطردوه من عمله وكأنه ليبرالي.. فأصبح يكره الله والرئيس.

سألت من أصبح يشك حتى في شكه عن توقعه للغد، فقال سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، وقف على ناصية الحلم وقتله، وأخبرني أنه لا خير في خير بعده السجن ولا شر في شر بعده دفء بيتك.

ـ البلد دي مش كفاية أنها ولا تستاهل أتضرب بالرصاص عشانها.. لا دي كمان ولا تستاهل قميصي يتكرمش عشانها في زحمة مظاهرة.. طيب وحياة أمي لو شفت البلد بتولع قدامي مش حعمل هوف حتى.

لكنه عاد واشترك بغضب وربما بأمل وربما بيأس وربما بعناد وربما بحب في مظاهرات «جمعة الأرض»، احتجاجا على انتقال جزيرتي تيران وصنافير من السيادة المصرية للسعودية. قبض عليه من ميدان المساحة بالدقي، وبعد محاكمة سريعة أنجزت في ثلاثة أسابيع حكم عليه بالسجن خمسة أعوام.

الشاب في المترو

٢٠١٦ كيف أوقف هذه النظرات المؤلمة؟

لا تنظري لي هكذا يا حاجة، آسف، ما زال أمامي خمس عشرة محطة وجلست لتوي والله.

نظرات الاستجداء تغرز في لحمي المنهك، فادعيت أنني نائم.

الزحام مرهق والحرارة بالمترو مستحكمة. متعرق وأفتح عيني بصعوبة من التعب وآخر ما أحتاجه هو الوقوف أيضًا.

حين دخلت المترو اخترت أن أقف مقابل المقاعد وليس عند أماكن الوقوف لأنتهز فرصة نهوض أي من الجلوس حينما نصل محطة التحرير. كلنا ننتظر الوصول للتحرير لنستريح، وفعلا قامت فتاة من مقعدها، كنت أقف على يمين الفتاة بينما يقف شاب آخر على يسارها، فأشار لي الشاب بأدب مرهق أن اجلس في المقعد الخالي، فعلت، فلمحت في عينه الدهشة للحظة، بدا له غريبا أنني لم أرد الدعوة إليه أو حتى أشكره، لكنه فهم عندما رآني أترك له نصف المساحة وأشير له ليجلس بجانبي، فعل، وملنا للأمام في قعدتنا فلم يكن هناك مكان لنستند بظهورنا. الجلسة غير مريحة لكن جسمي خدر أخيرا.

ثم ظهرت العجوز.

لزقت فينا، خبطتنا، بصت لنا، فالتفت إلى جاري في نفس الكرسي كأني أسأله، أشاح بوجهه، ثم أخرج سماعة الأذن وانفصل بها عن العالم ببرود له مغزى، فعاودت الاسترخاء.

أتساءل لماذا لا توجد مقاعد لكبار السن؟ ففي كل البلدان هناك

واحدة، ولماذا لا توجد أساسا شبكة مواصلات آدمية؟ أليس من حقي مجرد الجلوس وأنا منهك؟

تنهج العجوز، يعلو شهيقها وزفيرها المتعب، سلطت علينا نظرتها، ترشقنا الآن بضيق ولوم، لا تحدجيني هكذا يا حاجة، أقسم بالله أنا أضعف من أن أحتمل.

وجدت نفسي أقف، لم أنتصب بشكل كامل وإنما نهضت بنصف جسدي منحنيا في إشارة لجاري، كان هذا إحراجا سمجا له لكنه الموقف الأخلاقي الذي يجب أن ألتزم به.

رفع سماعة الأذن ورمقني بدهشة المباغتة لبرهة ثم نهض بدوره وأشار للعجوز أن تقعد، فعلت وهي تدعو لي وتجاهلته.

كم مرت من الدقائق بعدها؟ احسب الكثير قضيناها في الوقفة الحارة الطويلة، لكنني نسيت الإرهاق، فقد كنت مرتاحا لأنني ساعدت، أحسست بالرضا عن اختياري وانتابني شعور بأنني قريب من البهجة.

لكن الاقتراب لا يكفي، الاقتراب معناه أنك لم تصل.

فجأة قامت العجوز وقد بلغت محطتها ليجلس شخص آخر مكانها، صدمت، فهذا مكاني، رمقتها غاضبا فلم ألمح سوى ظهرها وهي تسرع بالخروج من عربة المترو.

اندفع عشرات جدد إلى المترو ليزداد ازدحاما، ثم أصغيت لسعال من ورائي، أجزم أنه سعال الشاب الذي كان جاري في المقعد، هو الآن يقف بلا داع وبناء على قرار لم يتخذه، بالتأكيد يشعر بالحنق والإحباط. شعرت بقشعريرة، لم ألتفت له لكني أشعر بأنفاسه الغاضبة، أسمع صوت لهاثه المرهق، أحس وخز نظرة غل وكراهية تلتهمني من خلفي.

كيف أوقف هذه النظرات المؤلمة؟

الحاجة سهير

٢٠١٥ قاس هذا الزحام.

الباعة الجائلون استأثروا بالرصيف والسيارات تركن صف ثاني، بينما الناس تسير في نهر الطريق مع العربات، فالقبح استشرى، والأمور ساءت كثيرا خلال السنوات الأربعة الماضية.

هل تعلم؟ هي أصلا كانت بالغة السوء.

بينما أتمشى وجدت نفسي أمام منزل الحاجة سهير والدة أيمن حنفي زميلي بالمدرسة الذي قتل يوم جمعة الغضب ضد مبارك، فمنذ عرفت بوفاته وأنا أزورها أحيانا حين أكون بالجوار.

أحاول التخفيف عنها بزيارات متقطعة، استقرت الرصاصة في قلب ابنها واستقر الوجع في قلبها، ومنذ ذهب لم تعد تبكي على أشياء ذهبت.

تعافر، انتزعت بيديها يافطة شارعنا وأبدلت بها يافطة زرقاء عليها اسم ابنها الشهيد، هي ليست متعلمة لكنها انخرطت في حملة «لا للمحاكمات العسكرية»، يستعينون بها للتواصل مع أمهات المعتقلين أو لإقناعهم بجدوى ظهورهم إعلاميا. غالبا بدأ نشاطها حين تعرفت على أحد الشباب الذين دعموها بصفتها أم شهيد، تقول لي:

ـ كفاية إننا بقينا نختار وننتخب اللي يحكمنا.. الله يرحمك يا أيمن.

أو تتنهد قائلة:

ـ خلاص زمن سواق الميكروباص اللي يتاخد منه إتاوة ولو اعترض يضرب على قفاه ولى من زمن.

وبينما كانت تطارد أشباح حقوقنا في سرادقات عزاء مدن القناة، ظهر عدو آخر جوار من سفكوا دم ابنها، عرفته عندما سافرت لدعم أمهات من قتلوا أمام سجن بورسعيد، ففور عودتها قال لها جارنا الملتحي إن مؤازرتها أسر «من نفقوا في بورسعيد» مشايعة لبلطجية يتآمرون على الرئيس المسلم، فشخرت له ومسحت بكرامته أرض شارعنا.

بعد بيان الجيش في ٣ يوليو ٢٠١٣ اتقد نشاطها في دعم أسر الشهداء، استمرت كذلك لشهور، ثم أدركت أن أغلب من تدافع عنهم إخوان، تحيرت ولم تستوعب دوافع الشباب للنضال عنهم، وسألتهم أليس هؤلاء من القتلة؟

ارتبكت، وبدت لفترة مشوشة ثم انقطعت فجأة.

في هذا اليوم زرتها في شقتها المدهونة بالجير، والتي يغطي السجاد كل شبر فيها ليداري البلاط الرمادي، لاحظت أنها شاخت كثيرا خلال السنة الأخيرة منذ كفت عن النشاط والحركة.

هذه المرة لم تعد هناك صور لأي شهداء أو مسجونين ممن كانت صورهم تملأ صالة البيت، حتى لوحة «الورد اللي فتح في جناين مصر» الشهيرة، التي نشرت في جريدة المصري اليوم خلال الـ ١٨ يوما في ٢٠١١ لم يعد لها وجود، فقط صورة ابنها ويعلوها شريط أسود كما في الأفلام القديمة.

- من كذا يوم بنام ودموعي على خدي وشوقي للحبيب نار في القلب.. بالليل ربنا طبطب على قلبي وجابه لي في المنام، قال لي أنا عايش يا أمي.. فرحت وضميته لصدري وأنا بقول له يا حبيبي يا بني وصحيت حاسة بإيده، ولقيت نفسي لسه بقول يا حبيبي يا بني.

ضايقها تمادي الجيران في استخدام الاسم القديم للشارع، وتجاهل اللافتة الجديدة التي علقتها باسم ابنها، واسيتها بكلام

تصورته لطيفا عن أننا جميعا نذكر أيمن بالخير، بصرف النظر عن وجود اللافتة من عدمه.

ـ ولا واحد فينا ناسي صاحبنا مات ليه يا أمي.

ـ والنبي تتلهي يا وائل.. يا بني صاحبك نفسه ولا يعرف هو مات ليه.

يقينها كان أننا سنتذكره حين نحتفل بالنصر، والآن تعلم أنه ليس ثمة نصر، دعمتنا في المعركة والآن تعلم أن لم تعد هناك معركة، ولأن إماطة الأذى عن القلوب صدقة، تعمدت عدم الحديث في الشأن العام لكنها واصلت:

ـ البيت فضي.. البنت سافرت والولد في القبر..أمبارح نمت على كنبته من غير ما نتعارك لأنه عايز يتفرج على أفلام أجنبي وأنا عايزة المسلسل.. ليه مشي وأنا محتاجاه؟ مشي لأجل خاطر إيه ومين؟ أنا أولى.. أنا اللي موجوعة بغيابه.. طلبت منه يقعد يومها.. عيطت وقلت له مش حترجع.. لكن ولا فرقت دموعي معاه، وقال حيوقف ولاد القحبة.. طيب السفلة افتراهم زاد.. دفنوه وردموا عليه تراب وافتراهم زاد.. مين قال له من حقه يمشي؟ مين قال له إن كسر ضهرنا حقه؟ مين طمنه علينا فصدقه ومشي؟

تبدل صوتها إلى نحيب، ارتعشت عندما فهمت أنها تنتظر مني ردا على سؤالها الأخير، عضضت شفتي وقد ضاق صدري فلم ينطلق لساني، أمسكت يدها بقوة داعما، بينما تابعت:

ـ طيب هو مبسوط عنده؟ يمكن عنده حاجات حلوة، لكن احنا ولا عندنا حاجة.. ولا أي حاجة من اللي ضيع نفسه بسببها أتحسنت أو حتتحسن عمرها.. زعلانه منه جدًّا ومش قادرة أسامحه على بعده.

بكت بشوق للحبيب عندما قالت إنها لن تسامحه، وقبل رحيلي طلبت مني معاودة زيارتها، لا تريد شيئا لكنها فقط تأنس بي. نويت تكرار الزيارة، لكني للأسف انشغلت بإجراءات طلاقي بمنال بالإضافة لضغوط العمل ولم أجد وقتا لأفعل.

شاب في ميدان

٢٠١١ بعد ساعة من وصولي «اعتصام التحرير» ضد مبارك وجدت من يلج علينا خيمة الاعتصام ليبلغنا بأن هناك اقتحاما للميدان لطردنا.

اعتبرتها مبالغة حتما، فنحن عشرات الآلاف فأي بلطجية يجرءون على مواجهة كل هؤلاء؟ خرجت لأجد حشودًا هائلة قادمة من مدخل عبد المنعم رياض تزحف نحونا حتى توغلت لتسيطر على ثلث الميدان، جمعنا أنفسنا واصطففنا أمامهم لنشكل حائطًا بشريًّا ضخما لصد هجومهم، بينما أمامنا آلاف يحملون صور مبارك ويهتفون بحماس:

«مش حيمشي.. انتم امشوا».

نرد بهتافات معادية للرئيس مبارك، يجذب أحدهم الكوفية التي أحملها فأختطف منه علم مصر. زميل له رد لي الكوفية بعدما انتزعها خصمي وهو يقول:

ـ مش صح إننا نعض في بعض.

أربت على كتفه مؤيدًا بعصبية. تهدأ الجبهة وأعاون ثلة من شبابنا في الفصل بين الصفين، تطوى الدقائق وفجأة يشتبك اثنان على بعد أمتار فننظر لوجوه من يواجهونا وينظرون لنا.

يبدو أننا سنشتبك فنرتبك. يتسع الشجار بالأيدي ثم أرى حجارة تنطلق من خلفهم نحونا فتصيب من بجواري وحجارة تندفع من ورائنا إليهم، أمد يدي إلى الأرض وأتناول حجرًا آسفًا، يقل أسفي عندما أجد من أمامي يفعل.

يلتقي الجمعان، تتباعد الصفوف ونتبادل الحجارة بكميات هائلة، تصطدم حجارتنا بحجارتهم في الهواء.

أسأل نفسي من هؤلاء، ولماذا نزلوا ضدنا؟ وماذا عن أولئك الذين نرميهم بالحجارة على وجوههم ولا ندري من هم؟ يقطع «تأملاتي» حجر يصاب به شاب بجواري في رأسه، حسنًا سنسحقكم وبعدها سنعرف من أنتم.

تراجعوا أمام سيول قذائفنا إلى ميدان طلعت حرب، وتواصلت الاشتباكات في طريق جانبي يربط التحرير بطلعت حرب، نتبادل الكر والفر بالشارع، أرى شجعانًا من الطرفين يرفضون الانسحاب عندما يهجم الطرف الآخر فينتهي بهم الأمر إلى التكالب عليهم ضربًا، يتساقط العشرات حولي فأتقلب من إنسان إلى غضب، أعلم لحظتها أن البشر كأسماك القرش تثير الدماء جنونهم.

٢٠١١ رميت حجرا فأصبت شخصا.

أراه يتلوى من الألم، أتابع ضحيتي ببصري وهو يمسك بدوره حجرا ويلقيه بغيظ نحونا فيدمي شخصا من جانبنا.

زميلي الذي أصيب كان يقف في صفنا لكنه لم يكن ينخرط في قذف الحجارة، بعد ما أُستهدف قرر الاشتراك، ألقى حجرا، لكنه بدا ساذجا إذ رماه من مكانه حيث يقف فلم ينطلق الحجر سوى بضعة أمتار ليقع على رأس شاب معنا في صفوفنا الأمامية.

الشاب الذي أصيب انتابته لوثة غضب فور سقوط الحجر عليه، بدا حريصا لذا فقد ذهل من أين جاءته الضربة، تعمد الاقتراب من صفوف خصومنا ليصيب وجوههم، وفعلا ألقى بحجره وأصاب واحدا منهم.

المتتالية مفزعة، لا وجود لعالم جميل ترمي فيه الحجارة على من يلقيها عليك، فكلنا نقذف حجارتنا على من يقفون بجوار من أصابونا.

٢٠١١ الاشتباكات انتهت..

متاريسنا الصفيح شارفت تمثال عبد المنعم رياض، نقف خلفها بينما أفراد قلائل من «العدو» فوق كوبري أكتوبر يلقون علينا الحجارة بغل الهزيمة فلا تصل إلينا، وتحت الكوبري دبابات رابضة في سكون.

قضينا ليلا لا تنيره سوى قنابل المولتوف والآن طلع النهار، بذلنا فانتصرنا على من فوق الكوبري، منعنا أتباع مبارك من اقتحام الميدان.

انتهت المعركة ومنيت نفسي أني سأعود للبيت وارتمي في حضن منال وانسى كل شيء.

في السابعة صباحا أخرج من ميدان التحرير عبر بوابة شارع الفلكي وأمامي شاب أصغر مني وجهه مشوه بفظاعة من حادثة تصورتها قديمة، أسير بجواره لنحمي بعضنا بعضا من اللجان الشعبية التي يهيمن عليها أنصار مبارك بالمنطقة.

ـ فيه حاجة في وشي؟

اندهشت من السؤال، حاولت عدم الاستغراق في بشاعة الوجه فتابع:

ـ رموا علينا مولوتوف فلبست فى وشي.. حاولت أروح بالليل لكن المخارج كلها كانت متحاصرة.. دكتور معنا حط لي حاجة قللت الألم.

هالني عدم إدراكه لشناعة ما حصل لوجهه، فكرت كيف أصارحه دون أن أصدمه فقلت له:

ـ لازم تروح المستشفى فورًا.

ـ أروح الأول استحمى وأطمن أمي.. تلاقيها مرعوبة.

استحمام؟ يطمئن أمه؟ كررت بعصبية أن عليه الذهاب لطبيب حالا.

لم يرد ولكن بدأ توتري ينتقل إليه، صافحني لنفترق عند محطة مترو محمد نجيب. أتألم لمن خرج بوجه ولم يعد به، لمح نظرتي الملتاعة فسألني:

ـ أنا اتشوهت؟

شكر

شكرًا لمن ساهمت ملاحظاتهم في تطوير النص:
طلال فيصل، حمور زيادة، نهى بدر، محمد أبو الغيط، أحمد رجب، أحمد الفخراني، جمال الجمل.

وشكرًا لمساعدة:
محمد علي الدين، أحمد صفوت، دينا ماهر، نورا يونس، أحمد محجوب، دنيا ماهر، محمد فوزي، نهلة حداد، عمرو مدحت.

مقالات تم الاستعانة بشهادتها عن «يناير»:
- «كنت شاهدا على فض اعتصام رابعة»، لماجد عاطف.
- «هل ذهبوا للمشانق بدلا منا؟»، لعمرو عزت.
- «حكاية من لم يقتل في موقعة الجمل»، للكاتب.
- «حكاية من سقط حكمهم دون أن يقفز أحد من فوق سور الاتحادية»، للكاتب.

شكر خاص للكاتب بلال فضل، الذي استعنت بمجموعة قصصية له قيد النشر عن «شقة الكيت كات».

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

قريباً من البهجة

إلى الله..

هكذا يتوجه الإهداء، إلى الله، فالرواية تتشكل من مجموعة مشاهد إنسانيه بسيطة تشكل في مجموعها مشهدًا كاملاً، صور صغيرة ترى من خلالها صورة واحدة كبيرة، بانوراما واسعة لتناقضات بشرية سترى فيها من حولك وعلى الأغلب ستكتشف فيها نفسك أيضا.

الكل حاول، فانظر ما حدث لهم، لذلك فالبهجة لا تغيب فى الرواية، تقترب جدًا من ملامستها، لكن الخبر الأهم أن الاقتراب وحده لا يكفي، فالاقتراب ـ ببساطة ـ يعني أنك لم تصل.

أحمد سمير؛ صحفي وكاتب مقالات مصري، من مواليد ١٩٨١، تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ٢٠٠٣، وبدأ العمل الصحفي عام ٢٠٠٥ في جريدة الدستور، بدأ كتابة مقالات الرأي عام ٢٠١٠ في موقع البديل الإلكتروني، ثم عمل كاتبًا صحفيًا في «بوابة المصري اليوم»، ثم في «بوابة الشروق». فاز بجائزة نقابة الصحفيين لأفضل مقال سياسي مرتين متتاليتين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥، وجائزة مصطفى الحسيني لأفضل مقال صحفي عام ٢٠١٤. صدر له كتابي «مانشيتات يوم القيامة»، و «أحمد ١٩٨١»، عن دار الشروق.

9 789770 934326

دار الشروق
www.shorouk.com